بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

من مكتبتي

الدكتور مهدى علام ، الأمين العام للمجمع ، والمشرف على المجلة

المكتبة الشخصية رفيق عزيز لصاحبها ، وتزداد الصداقة بينهما على مر الأعوام ، بل على مر الأيام فكلما أضاف إليها كتابا كان ذلك بمثابة التنمية الروحية للعلاقة بين المكتبة وصاحبها .

بل إنه إذا لم يضف إليها جديدا من الكتب ، على مدى فترة قصرت أو طالت ، فإن الشعور بالإعزاز لها لا يقل ، فهى للعالم الذى يقتنيها أعز من كنز المال لمختزنه .

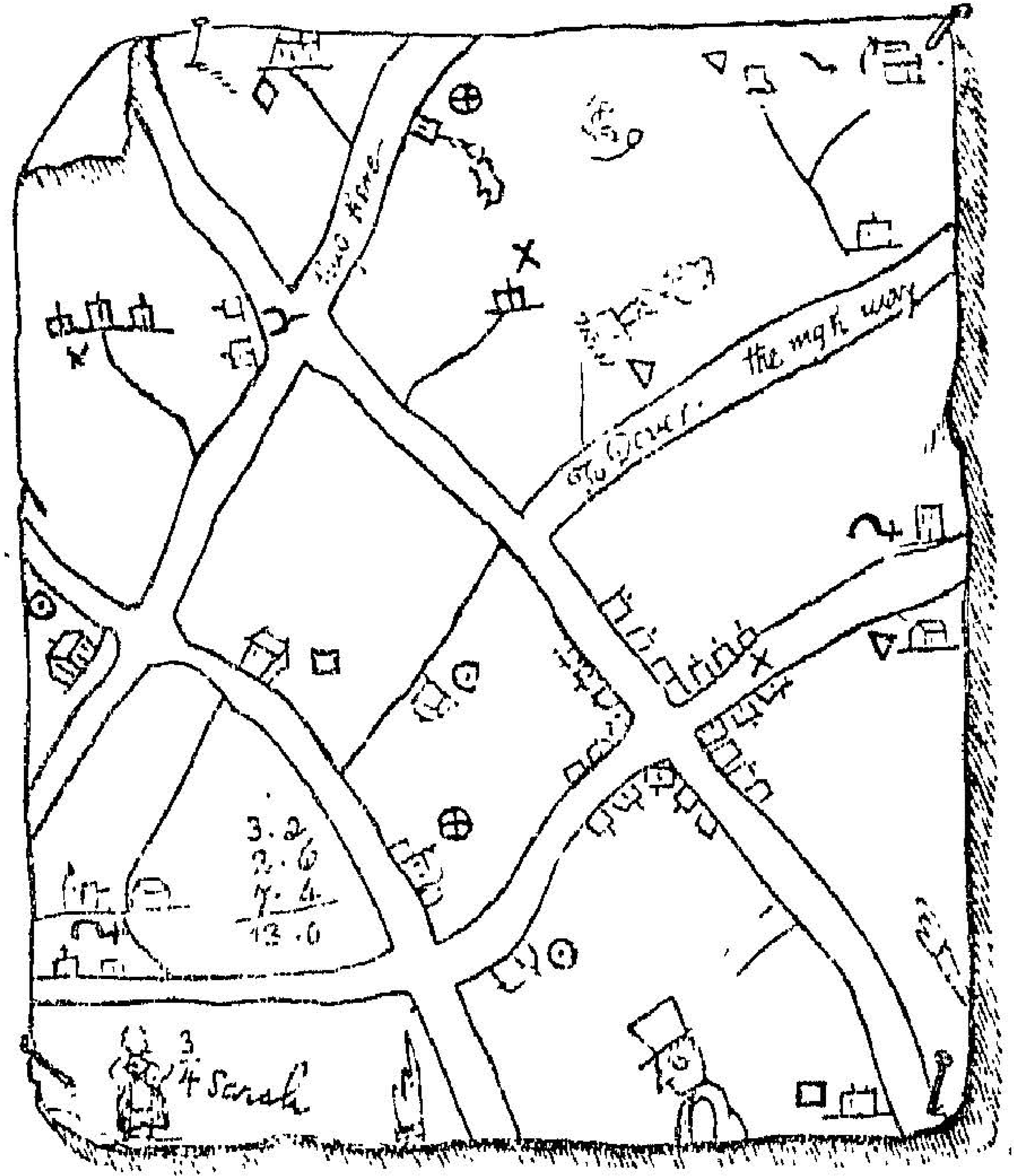
ولا أريد — ولا أستطيع — أن أدعى أن شعورى نحو مكتبتى يمتاز عن شعور زملائى ونظرائى نحو مكتباتهم . فمن قديم وصف الكتاب بأنه « خير صديق فى الزمان » وصداقة الكتاب دائمة مهما غطى الزمان على بدئها أو على بعض مراحلها . ونحن حين يتاح لنا من الزمن مايجعلنا نقلب بين كتب طال العهد بقراءتها ، أو بمجرد رؤيتها ، نشعر بأننا نلاقى أصدقاء قدامى ، وكأنما تناجيها ، وتناجينا ، فتعود بنا الذاكرة إلى يوم شرائها ، وإلى مبلغ السرور الذى شعرنا به حين دفعنا لها ثمنا ، قروشا قليلة (فى كثير من الأحيان) كما نذكر بعض ما جاء فى تلك الكتب من مسائل علمية كان لها أهمية عظيمة فى مرحلة من مراحل حياتنا .

وأستأذن القراء فى الإشارة إلى عمل شائع — أو حادث — بين كثير ممن يلحقهم الإرهاق أحيانا ، ويريدون أن يلتمسوا الراحة فى قراءة حرة لم يخطط لها ، ولم تعمد إلى هدف فكرى خاص ، فينهضون إلى رفوف كتبهم يتوسمونها حتى تقع عينهم على أحدها ، فيستلونه ويقلبون صفحاته ، وقد يقفون عند بعضها وقفة طويلة ، فإذا هذه القراءة تجلب الراحة للنفس ، وتزيل الإجهاد بما تعيد إلى الذهن من ذكريات تتصل بالمادة المقروءة فى الكتاب الذى قدمته المصادفة .

وكثيراً ما ألاقى مثل هؤلاء الأصدقاء فأجد فى لقائهم متعة عقلية عظيمة .

وقد وجدت فى أحد هذه الكتب طرفة تاريخية رأيت أن أشرك قراء المجلة فيها :

فهذا كتاب « قصة الحروف الهجائية »(1) مضى على شرائى له أكثر من نصف قرن . وفى أحد فصوله يتعرض مؤلفه لخريطة لشحاذ ، منشورة فى « معجم اللغة العامية » تأليف هُورتن والمنشور سنة ١٨٦٩ ، فينقلها . وفيما يلى صورة لها :



وهذه ترجمة للعلامات التى وضعها صاحبها الشحاذ ، لترشده عن الأماكن التى يزورها ، فى جولاته لممارسة نشاطه :

× لا فائدة : فى منتهى الفقر ، ويعرفون أكثر من اللازم .

+⌒ قف إذا كان معك ما يحتاجون إليه فسيشترون . وهم على قدر لا بأس به من المعرفة.

—⊃ اذهب من هذا المسلك : فهو أفضل من الطريق الآخر . فليس هناك فائدة فى ذلك الطريق .

◊ حسن . هناك أمان . كُفَّ عن الثرثرة ، وارحل .

▽ أفقده مزيته كثرة التردد عليه .

⊏⊐ غير مناسب . من المحتمل أن يتسببوا فى إلقاء القبض عليك. احترس من الكلب .

⊙ خطر : من المؤكد شهر فى السجن .

⊕ متدينون ، ولكنهم بصفة عامة مناسبون .

* * *

وبعد ففى هذه الخريطة والتعليق الذى عليها ، دلالة واضحة على أن الكُدْيَة كان لها وضع تخطيطى فى العصر الذى تنتمى إليه هذه الوثيقة . ومن غير مجازفة فى الاستنتاج ، نستطيع أن نطمئن إلى أن مثل هذا التخطيط كان معروفا لدى شحاذين آخرين ، وإن لم يدونوه بمثل هذه الدقة ، ويحولوه إلى صورة فنية ممتعة . بل يمكن أن نتصور أن بعض الشحاذين فى بلادنا لهم آرؤاهم ووسائلهم فى اقتناص فرائسهم . فمنهم من لا يعتمد على تغيير « مسرح العمليات » ؛ بل يعتمد على تغير المرتادين لهذا « المسرح » . فالذين يلازمون أبواب الأضرحة يعتمدون على

(1) The story of the alphabet, by Edward, Cload London : George Newnes, ltd .
وليس فيه تاريخ الطبع ، ولكننى اشتريته سنة ١٩٢٢ إبان دراستى فى إنجلترة ، ويشير مؤلفه (ص ٥٦) إلى أنه نقل « الخريطة » التى أنقل صورة لها فى هذه الفذلكة من كتاب Slang Dictionary, by hotten. المطبوع (سنة ١٨٦٩) .

أن زوارها يتجددون يوما بعد يوم ، وموسما بعد موسم ، من أهل الريف . ومنهم من يعوّل على المناسبات ، كالأعياد الدينية أو حالات الوفاة أو الدعاء لأهل المرضى أمام المستشفيات .

وقد رأيت شحاذة «مجدّدة» كانت تأتى أمام كلية البنات الإسلامية بمدينة نصر ، فى صباح أيام الامتحان ، وتدعوا بالنجاح لكل طالبة وهى تعبر إلى مدخل الكلية . وكان معظم هؤلاء الألوف من الفتيات يسقط فى حجر هذه « الفنانة » ما تيسر من النقود .

وقد نشرت إحدى الجرائد فى الصيف الماضى أن الشرطة ألقت القبض على شحاذة فى العباسية ، ووجدت معها مبلغا كبيرا جدا من النقود ، قالت إنه حصيلة يومها من الطلاب فى جامعة عين شمس وهم فى طريقهم إلى لجان الامتحان .

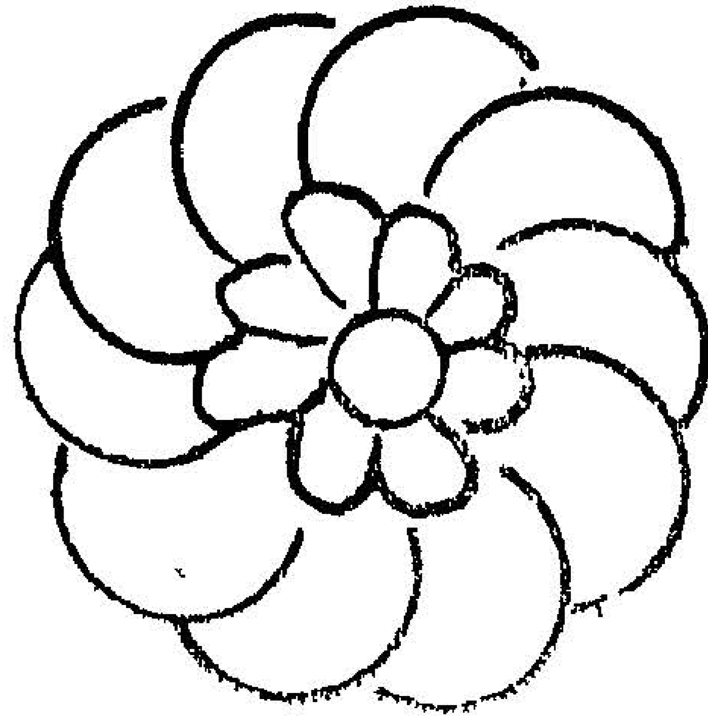
ومنذ بضع سنوات انتحل صحفى نابه قدير حرفة الشحاذة .

وقد عرض فى الصحف وفى التليفزيون النتائج الباهرة التى كانت من نصيبه وكان مما عرفناه من تجربته أن هناك مناطق نفوذ لعدد من المحترفين لا يستطيع أن يعتدى عليها غيرهم . وأن هناك مناطق تؤجر أو تباع لاستغلالها ، على نحو ما هو متبع بين النشالين المتخصصين فى « استغلال » خطوط خاصة من طرق المواصلات العامة .

ولكن هذا يجرنا إلى موضوع خطير له تاريخ قديم فى الإنتاج الأدبى وفى البحث الاجتماعى ، وهو موضوع الكدية .

ولعل الله تعالى يأذن أن يتاح لنا من الزمن ما يمكننا من الكتابة فيه .

مهدى علام



مجمع القاهرة والمصطلح العلمي

للدكتور إبراهيم مدكور

ترجمة

فكرة هذا المجمع إلى القرن الماضي ، دعا إليه الأستاذ الإمام محاكاة لما عرفه عن الأكاديمية الفرنسية أثناء إقامته في باريس وحقق الفكرة بالفعل في صورة متواضعة في نهاية هذا القرن ، وفيما سمي « بمجمع البكري » ولم يقدر لهذا المجمع أن يعمر طويلا. ثم أثير الموضوع في قوة في أوائل القرن العشرين ، وبخاصة في « نادي دار العلوم ». وأعيدت التجربة مرة أخرى في العقد الثاني من هذا القرن فيما سمي « مجمع دار الكتب » وكان هو الآخر مجمعاً أهليا متواضعاً، عمر بضع سنوات، ولم يلبث أن توقف نشاطه. وكان لابد لنا أن ننتظر إلى العقد الرابع من هذا القرن ، لكي نشهد ميلاد مجمع القاهرة الحالي (١٩٣٢) وقد أريد به أن يأخذ في تكوينه شكلا يختلف عن المجامع والأكاديميات اللغوية الأخرى ، فلم تقصر عضويته العاملة على الأعضاء المصريين وحدهم ، بل امتدت إلى غيرهم من العرب والمستعربين وكان عدد أعضائه عند تكوينه عشرين ، نصفهم من المصريين ، والنصف الآخر من العرب والمستعربين ، ولم يراع في اختيار هؤلاء جميعاً أي اعتبار لتمثيل سياسي أو إقليمي ، بل بني هذا الاختيار على أساس خدمة العربية والاشتغال بعلومها. وبقي هذا محترما ومعمولا به بنسب متفاوتة حتى عام ١٩٦١ ؛ ثم أريد أن تقصر هذه العضوية على المصريين وعلماء العرب ؛ وفي تعديل أخير لقانون المجمع حرص المجمعيون على أن يعودوا إلى تقليدهم القديم ، وفتحوا باب العضوية العاملة للمستعربين مرة أخرى . أما العضوية المراسلة فكانت ولا تزال تغذي بخدام اللغة والثقافة الإسلامية شرقا وغربا ، من آسيويين وأفريقيين وأوربيين وأمريكيين . وكان لهذا التعاون شأن في وضع قواعد العمل المجمعي ، ورسم خطة واضحة لخدمة اللغة.

(أ) اللغة بين الحاضر والماضي :

حياة كل لغة في أمرين هامين : ماض له قداسته ، وحاضر له متطلباته ؛ واللغات الحية هي تلك التي تعتز بماضيها وحاضرها معا . وتكـــاد تتخلص مهمة المجـــامع اللغوية

فى الملاءمة بين هذين الجانبين ،فتستبقى من الماضى أسلسه وأنفسه ، وتتقبل من الحاضر أحكمه وأدقه ، وماضى اللغة تراث أدبى من نثر ونظم ، وتراث فكرى من علم وفلسفة . وعلى المجامع أن ترعى هذا التراث ، وتدعو إلى إحيائه ،وعبثا تحاول إن شاءت أن تحيى الألفاظ الغريبة والمهملة . وفى الماضى اللغوى عصور ازدهار وعصور ركود. وكثيرا ما طال الحديث حول عصر الاحتجاج اللغوى : أنقف به عند القرن الثانى للهجرة أو نمده إلى القرون التالية ؟ ولعل من الخير ألا نقف طويلا اليوم عند هذا الخلاف ، لأن فى "عصور الركود" الأدبى دررآ لايصح أن نهملها .

وحاضر اللغة ماتعيش فيه من مستحدثات العمران والمدنية ، ومبتكرات العلم والتكنولوجيا . وما تواجهه من مشاكل الفرد والمجتمع ، وما تضطلع به من أعباء السلم والحرب ، وما تعبر عنه من شؤون المال والاقتصاد والسياسة . وحاضر اللغة باختصار هو المجتمع فى شتى مظاهره ، وقد عدت بحق ظاهرة اجتماعية تسير بسير المجتمع ، وتقف بوقوفه . وتمتاز العربية — بين اللغات العالمية الكبرى — بأنها قديمة وحديثة فى آن واحد ، واستطاعت أن تسد فى الماضى حاجة العلم والحضارة الإسلامية الكبرى ، وها هى ذه تواجه متطلبات النهضة العربية المعاصرة . وفى حاضرها ما يملؤنا ثقة بأنفسنا ، وما يشعرنا بأنا نملك حقاً لغتنا ، ونستطيع أن نتصرف فيها .

(ب) العمل المجمعى :

إنه لطويل وشاق ، يتطلب صبرا وأناة ، وعلما ودراية ، وذوقا وحسن تقدير . ويعيش المجمعيون — كغيرهم — بين تيارين متقابلين : محافظة وتجديد ، ويكاد يدور حوارهم وجدلهم حول هذين الاتجاهين ، وفى هذا التقابل ما يضمن قسطآ غير قليل من الاتزان فى الحكم وسلامة التقدير . وقد تكتب الغلبة أحيانا لأنصار القديم ، ولكن الزمن فى سيره يفرض سلطانه على أشد الناس محافظة . وفى تاريخ مجامعنا اللغوية العربية المعاصرة — على قصره — ما يشهد بتطورها ، ويبرهن على تلاقى المحافظين والمجددين على كلمة سواء .

ونخطئ إن زعمنا أن المجامع تستأثر وحدها بخدمة اللغة . لأن لكل لغة حياة أطول وأعرض ، وأقوى وأنشط مما يجرى بين جدران مجمع لغوى . لها حياتها فى البيت والمدرسة ، فى الحقل والمصنع ، فى السوق والمتجر ، فى المكتب والديوان ، فى

الصحف والمجلات فى المسرح والسينما ، فى الكتب والمؤلفات ، فى المعاهد والجامعات وهنا تحيا اللغة وتتطور ، تخلق وتبتكر. تسير مع الزمن ، وعلى المجامع اللغوية أن تتابع هذا السير ، وتراقب خطاه ، فتلاحظ وتسجل ، وتقر ما استقام وشاع ،وترفض ما اعوجّ أو خرج على الأصول الثابتة. توحى ولا تأمر ، ولوحيها أثره ، ولتوجيهها فعله ، وعليها أن تعول دائما على الخبراء والمتخصصين .

ويدور العمل المجمعى حول أبواب مختلفة أخصها تيسير اللغة فى متنها وقواعدها وكتابتها ، وتهذيب المعجم اللغوى وتطويره بحيث يتمشى والمنهج العلمى الحديث ، وإمداد لغة العلم والحضارة بما تحتاج إليه من مصطلحات وألفاظ ، ووضع معجمات علمية متخصصة وإحياء التراث اللغوى ، وتشجيع الإنتاج الأدبى .

ويعنينا أن نقف قليلا عند المصطلح العلمى ، ونبين مدى إسهام مجمع القاهرة فيه .

(ج) المصطلح العلمى :

لكل علم لغة خاصة تعتمد على مصطلحاته وتعبيراته ، وبها يتم الفهم والتفاهم بين طلابه والمشتغلين به . وكم من مصطلحات ماتت فى مهدها ، لأنها لم تؤد وظيفتها على وجهها الصحيح . وحياة المصطلح فى استعماله وشيوعه بين أخص المختصين به ، وإن لم يقبله هؤلاء فمن العسير أن يقبله الآخرون . وفى توحيده تثبيت له وتعزيز . وتحيا اللغة العلمية كلها بحياة العلم نفسه ، وحيث لا علم لا سبيل إلى التحدث عن لغة علمية .

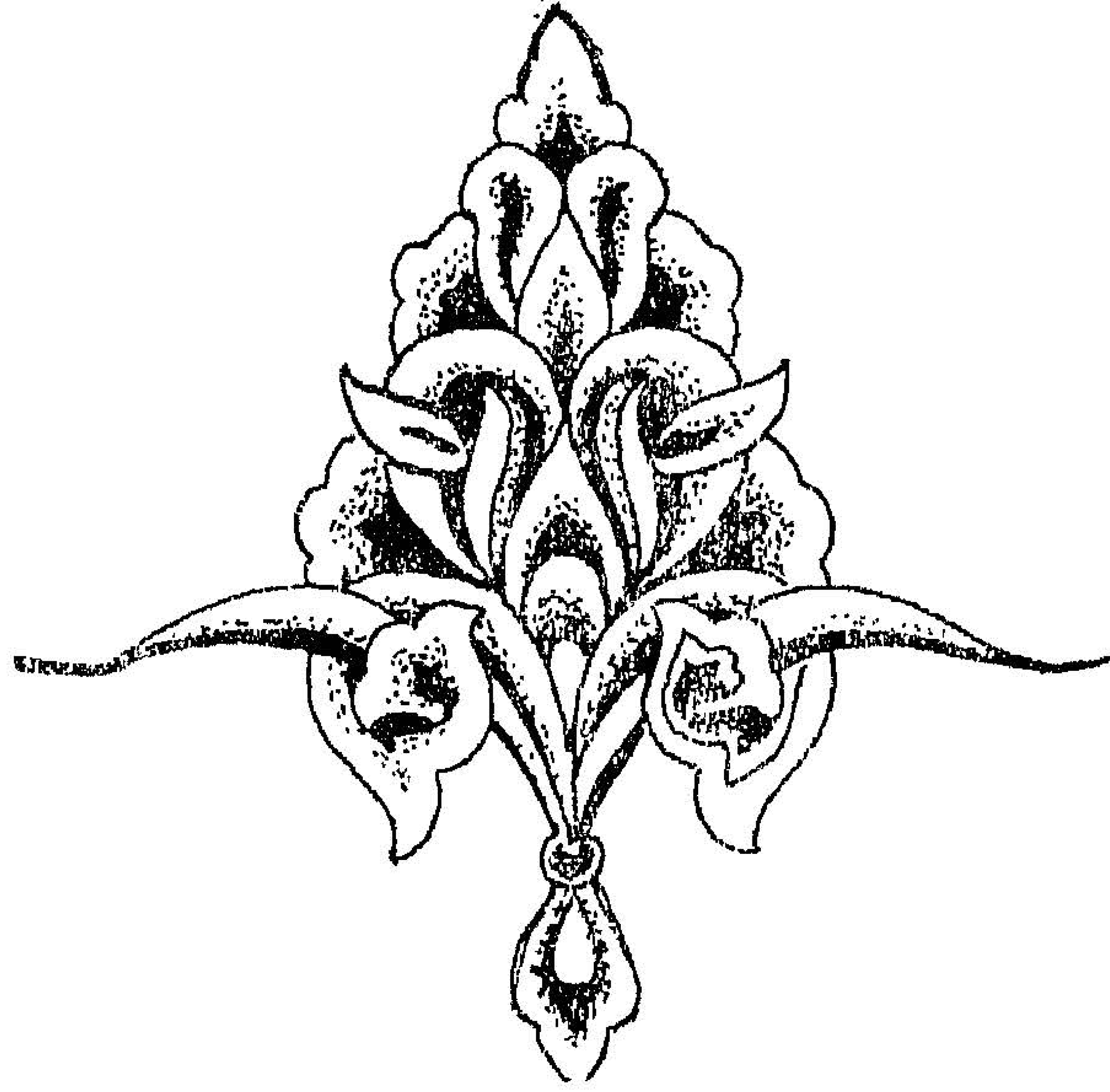
وحظيت العربية قديما بعلم أصيل ، أخذت وأعطت ، وكان لعلمها شأن فى النهضة الأوربية الحديثة . ولهذا العلم لغته ومصطلحاته. وقد عول واضعوها على النقل والاشتقاق ، ولم يبالوا بأن يكون المصطلح عربيا أو معربا وربما آثروا المعرب إن كان أدل على المعنى وأكمل فى الأداء . وما إن حل القرن الرابع الهجرى حتى اكتملت لغة العلوم الإسلامية ، واستقرت مصطلحاتها ، وتداولها الباحثون فى العالم الإسلامى جميعه ، وانتقل قدر منها إلى اللغات الأجنبية . ويوم أن ركد البحث العلمى فى العالم العربى ، ركدت لغته معه . ثم جاءت النهضة العربية الحديثة فى القرن الماضى ، فحاولت أن تحيي علومها . وقد نشطت الحركة العلمية العربية فى القرن الحاضر ، وأخذت تكون من جديد لغتها ، مستعينة بالدراسات العالية والجامعية ، ومعولة على الهيئات العلمية بوجه عام ، وعلى المجامع اللغوية بوجه خاص .

(د) عناية مجمع القاهرة به :

لاشك فى أن لغة العلم ومستحدثات الحضارة كانت من أهم البواعث التى دفعت إلى قيام المجامع العربية . ويكفى أن نشير إلى أن « مجمع البكرى » شغل ببعض ألفاظ حضارية « كالمدره » للأفوكاتو ، «والمسرة» للتليفون ، واقترح « مجمع دار الكتب » : « المليل» للفول المدمس ، «والوثل» للسلب. ولمجمع القاهرة شأن كبير فى وضع المصطلح العلمى ونشره ، والدعوة إلى توحيده ، وقد أعد للأمر عدته ، فكون منذ نشأته لجانا متخصصة لتحرير لغة العلوم المختلفة ، ورسم على مر الزمن منهجا واضحا لوضع المصطلح والتعريف به ، وحرص على نشر مقرراته فى هذا الباب بشتى الوسائل، وآمن بضرورة توحيد المصطلح العلمى والأخذ به .

وسنعرض لهذه الجوانب فى الأعداد التالية ، إن شاء الله .

ابراهيم مدكور
رئيس المجمع



البلاغة عند ابن رشد

للدكتور شوقي ضيف

(١)

مقدمة :

لا نكاد نتقدم فى القرن الثالث الهجرى حتى نرى القائمين على وضع معايير البلاغة العربية تتوزعهم ثلاث اتجاهات : اتجاه لغوى محافظ يتخذ من الأمثلة العربية الخالصة معايير هذه البلاغة على نحو ما هو معروف عن اللغويين ، واتجاه مجدد مسرف فى التجديد يتخذ من البلاغة اليونانية معايير للبلاغة العربية ، ويمثله المتفلسفة والمترجمون ممن يلتمسون تلك المعايير لدى اليونان ، واتجاه معتدل لا يسرف فى التجديد ولا فى المحافظة ، بل يوازن بين معايير اليونان ومعايير اللغويين ويختار منها جميعا ما يلائم البلاغة العربية ، ويمثله المتكلمون .

وكان من أهم ما عُنيتْ به بيئة المترجمين والمتفلسفة نقلُ كتابى أرسطو عن الخطابة والشعر الى العربية ، أما كتاب الخطابة فيذكر ابن النديم فى مصنفه « الفهرست » أن اسحق بن حنين المتوفى سنة ٢٩٨ للهجرة نقله الى العربية ، ويقول إنه يصاب بنقل قديم ، وأكبر الظن أنه نُقل منذ أواخر القرن الثانى الهجرى أو على الأكثر منذ أوائل القرن الثالث فإن من يقرأ الملاحظات والوصايا البلاغية الكثيرة المتناثرة فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ المؤلف فى أواخر العقد الثالث من هذا القرن السالف يحس بوضوح أثر القسم الخاص بالعبارة أو الأسلوب من كتاب الخطابة لأرسطو . ويتسع فيما بعد أثر هذا القسم فى كتاب البرهان فى وجوه البيان لابن وهب المؤلف فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى : ومعروف أن القسم الأول من كتاب الخطابة لأرسطو يتحدث فى تفصيل عن أنواع الخطابة السياسية والقضائية والحفلة ما يتصل بها جميعا من غايات كفاية النفع فى السياسية ودفع الظلم فى القضائية وبث الفضائل فى الحفلية . ويتحدث القسم الثانى من الكتاب عن انفعالات السامعين وعواطفهم وما ينبغى أن يلاحظه الخطيب من الملاءمة بين خطبته وما يناسب سامعيه مفيضا فى تحليلات نفسية قيمة . ولم ينتفع أصحاب البلاغة العربية أى انتفاع بهذين القسمين : الأول والثانى من كتاب

الخطابة لأرسطو إلا ما تمثلوه من فكرة مقتضى الحال . وهى مكررة مراراً فى كتاباتهم ، بل جعلوها جزءا لا يتجزأ من تعريف البلاغة إذ قالوا إنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته .

ويرجع عدم انتفاعهم بالقسمين الأول والثانى من كتاب الخطابة المذكور إلى أنهما يتناولان بالتفصيل نظما من الحكم تتصل بالخطابة السياسية لم يكن يعرفها العرب ، وكانوا لا يعرفون الخطابة القضائية . فأهملوا لذلك هذين القسمين من الكتاب إهمالا تاما ، بينما انتفعوا بالقسم الثالث الخاص بالعبارة أو الأسلوب ، إذ وجدوه عاما لا يختص بأمة دون أمة ولا بلسان دون لسان . وبدأ بهذا الانتفاع الجاحظ ثم ابن وهب ، ثم أربى عليهما عبد القاهر الجرجانى فى هذا الانتفاع مضيفا إلى أرسطو مالا يكاد يحصى من المعانى والخواطر والآراء مما يجعله بحق مؤسس البلاغة العربية ورافع صرحها القويم .

ونُقل إلى العربية كتاب الشعر لأرسطو مبكرا فيما يبدو لما ذكره ابن النديم من أن للكندى الفيلسوف المتوفى سنة ٢٥٢ مختصرا فيه ، مما يؤكد أنه كان قد ترجم إلى العربية ، إذ لم يكن الكندى يعرف اليونانية فهو لم يختصره عنها مباشرة ، بل اختصره عن ترجمة عربية إما كانت معاصرة له ، وإما كانت سابقة لزمنه . ويقال إن إسحاق بن حنين ترجم الكتاب ، غير أن العصور بعده لم تحمل ترجمته . ونمضى إلى القرن الرابع الهجرى فنجد مَتَّى بن يونس يعنى بترجمته ، وقد حملت إلينا العصور الماضية تلك الترجمة ومن يقرؤها يلاحظ توا تعثر مَتَّى فى الترجمة وأن معانى الكتاب استغلقت عليه ، لسبب طبيعى ، وهو أن أرسطو فى الشطر الأكبر منه يتحدث عن المسرح والتراجيديا والكوميديا ، مما لا يعرفه متى والعرب من حوله ، فلم يفهم أفكار الكتاب ، وبلغ من سوء فهمه أن ظن أن التراجيديا عند اليونان تقابل شعر المديح عند العرب وأن الكوميديا تقابل شعر الهجاء ، وأدار معانى الكتاب على هذا الفهم المخطىء ، وبذلك أفسد ترجمته وغدت سقيمه أشد السقم .

(٢)

ابن رشد وتلخيص كتاب الخطابة

أخذ فلاسفة العرب يعنون بكتاب الخطابة لأرسطو منذ القرن الرابع الهجرى يتقدمهم الفارابى المتوفى سنة ٣٣٩ للهجرة ، إذ وضع شرحا له ، غير أن هذا الشرح سقط من يد الزمن فلم يصل إلينا ، وصنع له ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ تلخيصا . وصل إلينا ، كما وصلت إلينا ترجمته العربية القديمة ولخصه الفيلسوف القرطبى ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ ونُشر هذا التلخيص فى القاهرة مرتين مرة بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى سنة ١٩٦٠

ومرة بتحقيق الدكتور محمد سليم سالم : ولاحظ الدكتور بدوى أن ابن رشد لا يحتفظ فى تلخيصه لكتاب الخطابة من كلام أرسطو إلا بألفاظ قليلة وأنه تحول بتلخيصه إلى شرح موسع لنصوصه ، ولاحظ الدكتور سالم أن ابن رشد يورد فى عرضه للكتاب أمثلة من الشعر العربى لكل مبدأ من مبادئ البلاغة اليونانية ، ويتضح ذلك فى القسم الثالث من الكتاب وهو القسم الخاص بالعبارة وما أنشد فيه من أشعار الشعراء .

وابن رشد فى هذا القسم يفصل القول مرارا فى الأبواب الأساسية فى علم البيان : أبواب التشبيه والاستعارة والكناية . أما التشبيه فقد أشار إلى أدواته وإلى أن للأمم أعرافا فى تشبيهاتها تستمدها من بيئتها ويقول إن كثيرا من تشبيهات العرب غير بيّن عند سائر الأمم ، مثل قول امرىء القيس يصف حمار الوحش وما يثير من غبار فى الصحراء أثناء عدوه :

يُهيل ويُذْرِى تُرْبها ويثيره
إثارةَ نبَّاثِ الهواجر مُخْمِس

وهو يشبه إثارة حمار الوحش للغبار باثارة نباث الهواجر المخمس ، وهو البعير الذى يثير التراب فى وقت الهاجرة والقيظ الشديد ليحس برد الثرى فيسكن عنه العطش . ويقول إنه مخمس أى أنه شديد الظمأ وأنه ما يزال يطلب الماء خمسة أيام طوال ، وواضح أن التشبيه مستمد من البيئة الصحراوية خاص بها ، فإن نباث الهواجر المخمس إنما يعرفه سكان البوادى والصحارى .

ويذكر ابن رشد تشبيه المفرد وأنه يرتفع درجات حين يستتم المشبه به صفته أو فعله ، فينتزع الشبه بذلك من أحواله ، ويمثل لذلك بقولهم : «فلان يشبه قردا يزمر بأنبوب» ويتابع أرسطو فى أن التشبيه قد يكون نابيا كقول القائل عن شخص إن ساقيه جعدتان كالكرفس ، ويحذر الشعراء من الوقوع فى مثل هذا التشبيه النابى . وينبّه الى أن التشبيه ينبغى أن يكون بين أشياء متجانسة ، إما فى النوع مثل تشبيه الإنسان الجميل بيوسف ، وإما فى الجنس القريب مثل تشبيه العرب المرأة الحسناء بالظبية ، وإما فى الجنس البعيد مثل تشبيه المرأة الحسناء بالشمس . فلا بد من وجه شبه يجعل طرفى التشبيه يلتقيان فى جنس واحد أو جامع واحد وإلا كان التشبيه رديئا : ويذكر أرسطو التشبيهات التمثيلية المركبة وأنها تنتزع من أمور متقابلة فى الطرفين ، ويمثل لذلك بقول بعض اليونانيين عن شبان من إحدى المدن قُتلوا فى بعض المعارك أنهم « فُقدوا من المدينة كما لو أن أحدا أخرج الربيع من دور السنة » . ويقول هنا إن أرسطو ذكر أمثلة أخرى كثيرة من أقاويل مشهورة عندهم يعسر فهمها بحسب لساننا وعاداتنا ، ويضرب لذلك مثالا عربيا يوضح هذا النوع من التشبيه

التمثيلى هو قول المتنبى فى جنات شِعْب بَوّان ورياضه .

مغانى الشِّعْب طِيباً فى المغانى
بمنزلة الربيع من الزمـــان

فتلك المغانى والرياض تفضل سائر المغانى فى الدنيا طيباً وشذى عطراً كما يفضل الربيع بحسنه وبهائه سائر الفصول والأزمنة .

ويتحدث ابن رشد مرارا عن الاستعارة على هدى مانثره أرسطو من آراء . ويذكر أن الاستعارة التصريحية تقوم على التشبيه بين المستعار والمستعار له ، وأنها تأتى طيعة منقادة على نحو مايلاحظ فى تشبيه النساء بالظباء ، فقد يذكر المشبه والمشبه به معا ، فيقال النساء كالظباء وقد يذكر المشبه به وحده ، يقول : وهذا النوع يسميه أهل زماننا بالاستعارة مثل قول ابن المعتز :

يادار أين ظباؤكِ اللُّعسُ
قد كان لى فى أنسها أُنُسُ

فقد عبَّر ابن المعتز عن النساء بالظباء على طريقة الاستعارة التصريحية .

ومعروف أن هذه الاستعارة تقابلها عند البلاغيين الاستعارة المكنية فى مثل « أنشبت المنية أظفارها بفلان » فإنهم يرونها هى الأخرى قائمة على التشبيه ، وكأن قائل هذه الكلمة يشبه المنية بحيوان مفترس . وجعلهم ذلك يحملون حملات شعواء على أبى تمام إذ رأوه يكثر من هذه الاستعارة دون أن يتضح فيها التشبيه وهى لاتقوم على التشبيه وإنما تقوم على بث الحياة والأفعال فى الأشياء من المعانى المجردة وعناصر الطبيعة ، ولذلك فصلها أرسطو عن الاستعارة وسماها « وضع الشيء نُصْبَ العين » أى جَعْله حيًّا وله أفعال الأحياء المنظورة . وتبعه ابن رشد يفصلها عن الاستعارة ، ومثل لها ببيت لأبى العلاء يصف فيه سيفا وبطشه بالأعداء ، إذ يقول :

توَهَّم كلَّ سابغة غَديرا
فرنَّق يشرب الحَلَقَ الدِّخالا

وواضح أن أبا العلاء بث الحياة فى السيف إذ جعله ظمآن يظن لظمئه الشديد كل درع سابغة مصبوبة على الفرسان غديرا ، فرنق وحوم حولها تحويم الطير الظامئة يريد أن يسقط على حلق الدروع المتداخلة يظنها ماء . وكل ذلك تصوير لفتك السيف بالأعداء ، ولم يشبه أبو العلاء السيف بطائر على طريقة الاستعارة المكنية كما قد يظن ذلك البلاغيون عندنا ، بل جعله طائرا فعلا ، يتنفس تنفسه ويفعل أفعاله من التحويم والسقوط على المياه . ويدل على صحة نظر أرسطو أنك لا تستطيع أن تقول السيف طائر على التشبيه أو الاستعارة ، إنما يقع ذلك فى ذهنك بعد أن ترى مايضاف إليه من الأفعال والصفات ، فالتشبيه لاينتزع من الطائر مباشرة وإنما ينتزع مما يضاف اليه . ومن المؤكد أن ابن رشد كان دقيقا كل الدقة حين تابع أرسطو فى تصور هذه الصيغة البيانية ، ولم

يطلق عليها اسم الاستعارة المكنية . ويعرض ابن رشد للاستعارة التمثيلية عن طريق الأمثال التى تضرب فى حوادث مشابهة للحادثة الأصلية كقول بعض العرب : « ذكَّرتنى الطعن وكنت ناسيا » ويشير إلى الأمثال الكثيرة ، المضروبة فى كتاب كليلة ودمنة :

وفى مواضع مختلفة من التلخيص أو الشرح يعرض لصور من الكناية مثل التعريض وما يحمل من تلويحات دالة مثل قول أحد اليونانيين لمن كان ينافره : « ما أنى بآثم ولا أمى بآثمة » فظاهر التعبير أنه نفى الإثم عن نفسه ومقتضى الحال يدل على أنه أثبته على خصمه . ويقول إن الكناية قد تستخدم رغبة فى التخلص من الألفاظ القبيحة والخسيسة والبشعة الثقيلة ، ويذكر أنه يمكن الخلوص إلى ذلك باستخدام لفظ أعم أو أخص أو لفظ مشترك له معنيان : معنى قبيح ومعنى غير قبيح ، ويقول ابن رشد إن هذا النوع من الكناية فى كلام الفصحاء كثير . ويعرض مثالا للكناية التى تكثر فيها الوسائط ، نقله عن الفارابى ، وهو لامرئ القيس إذ يقول :

بُدِّلْتُ من وائلٍ وكِنْدَةَ عَدْ
وانَ وفَهْماً صَمِّى ابنةَ الجبلِ

وابنة الجبل : الحصاة ، وصممها كنى به امرؤ القيس عن اشتداد الأمر عليه . وقد نظم البيت فى أثناء مطاردة المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة له بعد مقتل أبيه ، وهو يتنقل فى القبائل يستغيث ولا مغيث . ويذكر ابن رشد الوسائط أو البدائل الكثيرة بين ظاهر قول امرئ القيس : « صَمِّى ابنة الجبل » ومراده ، يقول : إنه جعل ابنة الجبل بدلا من الحصاة وقال : « صمى » بدلا من عدم الصوت لأن عدمه وعدم السمع يتقاربان ، فإنه قسيمه ، إذ عدم السمع يكون عن عدم الصوت ، وجعل عدم صوت الحصاة بدلا من ابتلال الأرض ، وجعل ابتلالها بدلا من انصباب الدماء على الأرض ، وجعل انصباب الدماء بدلا من القتال الشديد ، وجعل القتال الشديد بدلا من الأمر العظيم ، فكأنه أراد : وفى ذلك أمر عظيم . وهى وسائط كثيرة كما يقول البلاغيون ، ويرى ابن رشد أن مثل هذه الكناية كثيرة البدائل إنما تليق بالشعر ، فينبغى أن لا تستخدم فى سواه .

ومن الملاحظات البلاغية الطريفة التى رسمها ابن رشد على هدى كلام أرسطو فى الخطابة درجات الحسن والقبح المتفاوتة فى التعبير عن صورة بيانية ، ويضرب مثلا لذلك أن يصف واصف امرأة مخضوبة اليد بالحناء ، فيقول فيها : حمراء الأطراف أو قرمزية الأطراف أو وردية الأطراف أو كما قال بعض الشعراء :

من كفِّ جاريةٍ كأن بَنَانَها
من فضّةٍ قد طُوِّقتْ عُنَّابَها

يقول : فإن قولنا : وردية الأطراف إبدال حسن أى استعارة حسنة ، وكذلك قولنا : عنابية الأطراف ، وقولنا : حمراء

الأطراف أخس منه ، وأقبح من هذا قولنا : قرمزية الأصابع ، ولو قال فيها : دمّيّة الأصابع لكان أن يكون هجواً أقرب منه إلى أن يكون مدحاً».وواضح أن ابن رشد رتب التعبيرات فى درجات بعضها فوق بعض ، وقد جعل أدناها « دمية الأصابع » بل جعل هذا التعبير يدنو من الهجاء لنبوه عن الذوق . ووضع فى الدرجة التالية له : « قرمزيه الأصابع » لأن كلمة قرمزية منسوبة إلى القرمز وهو دودة حمراء مستقذرة ، مما يجعل الصورة أو العبارة شديدة القبح . وجعل كلمة « حمراء الأطراف » أقل درجة فى القبح ، بل فى الخسة ، ولعل الخسة جاءتها من أنها حقيقة مجردة ، وليست من التعبيرات التصويرية التى تعد بلاغياً أسمى منها وأرفع ، ووضع فى أعلى الدرجات التعبيرين التصويريين « وردية الأطراف » و « عنابية الأطراف » والعناب ثمر شديد الحمرة .

ويلاحظ ابن رشد مستضيئاً بكلام أرسطو تفاوت درجات البيان أيضاً فى التعبيرات الحقيقية ، ويضرب مثلا لذلك السرقة فإن من يريد أن يحكى الواقع تماماً عن شخص سارق يقول إنه سرق ، ومن يريد أن يحقر أمره يقول : خان ، ومن يريد أن يعظم أمره يقول أغار . ومثل ثان هو : الشفاعة والتضرع فهما داخلان تحت جنس واحد ، وهو المسألة ، يقول : « التضرع أخس من الشفاعة وذلك أن التضرع يكون ممن هو دونك ، والشفاعة من المساوى ، فمتى أردنا أن نحسن التضرع سميناه شفاعة ، ومتى أردنا أن نخسّس الشفاعة سميناها تضرعاً .وكذلك إذا أردنا أن نعظم الشيء الواحد بعينه سميناه بالأعظم من ذلك الجنس ، وإذا أردنا أن نصغره سميناه بالأصغر » .

وهذه الدرجات البلاغية والبيانية للتعبيرات عن معنى حقيقى أو صورة أدبية كان حرياً بالبلاغيين من أسلافنا الذين قرأوها عند ابن رشد أن يدخلوها فى بحوثهم وأن ينموها فى دراساتهم بعقولهم البصيرة النافذة . وكذلك كان ينبغى أن يضيفوا إلى دراساتهم ما ذكره ابن رشد من تعبير البلغاء فى كلامهم بالأفعال الدالة على الحركة مما يحيل كلامهم إلى مشاهد حية نابضة ، من مثل قول النابغة فى وصف المتجرّدة ورؤيته لها وقد سقط نصيفها أو خمارها :

سقط النَّصيفُ ولم ترد إسقاطه
فتناولتْه واتقتنا باليد

فالمتجردة سقط خمارها عفواً دون قصد ، فأسرعت إلى التقاطه بيد وسترت باليد الأخرى وجهها حياء وخفراً . وهو مشهد متكامل ، وليس فيه مجاز ولا ما يشبه المجاز ، إنما هى أفعال تصور واقعاً بكل هيئته ، وكأنما يحدث تحت عين السامع أو القارئ . ويذكر ابن رشد أبياتاً أخرى لأبى تمام وغيره تصور مشاهد حقيقية تامة بما تحمل من أفعال الحركة حتى كأنما تشاهدها الأبصار.

ويعرض ابن رشد رأى أرسطو فى المبالغة المفرطة وأنها تُقْبَلُ فى الشعر ولا تقبل فى الخطابة ، وكذلك لا تقبل فى الرسائل ، بل تقبح فيها قبحاً شديداً . وبالمثل يعرض ابن رشد آراء أرسطو فى الطباق والمقابلة والإيجاز والإطناب ، ويلاحظ أن الإيجاز تقل فيه أدوات الربط بين العبارات ويمثل لذلك — تابعاً للفارابى — بخطب الجاهلية إذ تقل فيها تلك الأدوات قلة شديدة ، إذ تأخذ شكل حكم متعاقبة . وقد أفاض أرسطو فى بيان تلك الأدوات ودقة استخدامها فى العبارات . وَيَنْهَى أرسطو مراراً عن استخدام الألفاظ المشتركة ، لأن استخدامها يجعل الكلام مبهماً فلا يدرى السامع مراد المتكلم كاستخدام لفظة الأبيض مكان اللبن ، ومثل تسمية العرق رطوبة باسم جنسه ويلاحظ أرسطو أن الخطباء والشعراء يستخدمون الكلمات المترادفة كثيراً ، ورأى ابن رشد البلاغيين من أسلافنا يلحون على نبذها وعدم استخدامها فى الشعر ، ويسمون ما جاء منها حشواً كقول بعض الشعراء :

ألا حبذا هندٌ وأرضٌ بها هندٌ
وهندٌ أتى من دونها النَّأْيُ والبُعْدُ

يقولون إن كلمة البعد مع النأى فضل وزيادة، ينبغى طرحها . ويخالفهم ابن رشد ، فيقول إنها جاءت لتصحيح الوزن والقافية ، وكأنما يشعر أن لها دلالة موسيقية بجانب دلالتها اللغوية . ويبسط ابن رشد القول فيما عرض له أرسطو من الفروق بين موسيقى النثر الخطابى والشعر ، فالكلام الخطابى لا يخلو من الإيقاع الموسيقى ، ولكن ينبغى أن لا يكون موزوناً إذ هو نثر وليس شعراً . ويعرض ابن رشد للازدواج فى النثر ويقول إنه كثير فى الكتاب العزيز مثل : (فاصبر صبراً جميلا)(إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً) فإن جميلا وبعيداً وقريباً على صيغ واحدة وشكل واحد . ويذكر أرسطو أن العبارات المتعاقبة فى النثر تختلف طولا وقصراً مع انتظامها فى النسق حتى تحدث متعة ، ويعقب على ذلك ابن رشد بقوله : « وذلك مثل مايحمده الكتاب عندنا من كون الفقرة الثانية أطول من الأولى ، كما هو معروف فى كلام أصحاب البلاغة عن السجع ، إذ يطلبون أن تكون السجعة الثانية هى الأطول من السجعة الأولى لا العكس . ويطيل أرسطو الحديث عن أجزاء الخطبة ، ويقول إن الصدر مبدأ الكلام وفاتحته ، وينبغى أن يحترس الخطيب فيه من إيراد كلام تنفر منه النفوس والأسماع . ويورد أرسطو بعض الأمثلة الموضحة لرأيه ، ولا يلبث ابن رشد أن يسرد فواتح لبعض المدائح عابها البلاغيون من مثل قول المتنبى فى مطلع مدحة لكافور :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا
وحسبُ المنايا أن يكنَّ أمانيا

وكأنما صكّ المتنبي وجه كافور بهذا البيت ، إذ جعله يواجه أول ماسمعه غمّ الموت ، وقال إنه الدواء الوحيد لداء التعاسة والكرب ، بل جعله الأمل المنقذ من الهم والغم.

وفى مواضــع كثيرة من كتاب الخطابة يتحدث أرسطو عن الغرابة والابتذال فى الكلام ملاحظاً أن الغرابة تكثر فى الشعر كما تكثر الصور البيانية ،وينصح أن لايكون الكلام كله بألفاظ غريبة أو مستعارة أو مألوفة ، بل يخلط المتكلم بين هذه الألوان ليكون الكلام أشد تخييلا وأكثر تأثيراً فى النفس . ومن طريف مانقرأ فى هذا الجانب أن الكلام إذا كان كله مكوناً من ألفاظ غريبة أو مستعارة أشبه الكلام المألوف فلم يحرك النفوس . ولا يحاول ابن رشد أن يأتى بأمثلة توضح غرابة الألفاظ ، وكأنه أحس بأن مباحث البلاغيين منذ الجاحظ استوعبت الحديث فيه ، ولم تعد هناك بقية لكلام أو تطبيق .

(٣)

ابن رشد وتعريب كتاب الشعر

عنى فلاسفة العرب بكتاب الشعر لأرسطو على نحو ماعنوا بكتابه عن الخطابة فقد كتب الفارابى على هديه رسالة فى قوانين صناعة الشعراء ورسالة أخرى صغيرة ، ويبدو من الرسالة الأولى أنه فقه بعض الشىء ماتحدث به أرسطو عن المحاكاة فى الشعر وبالمثل ماتحدث به عن الطراغوذيا (التراجيديا) والقوموذيا (الكوميديا) وإن كانت صورتهما لم تتضح له تماما . وصنع ابن سينا بعده تلخيصا لكتاب الشعر ، وهو يبدو فيه متمثلا له بأكثر مما تمثله مترجمه متى بن يونس ، ولعله اعتمد فى تلخيصه على ترجمة تالية له ليحيى بن عدى لم تصلنا . وهو فى تلخيصه يحس بوضوح الفروق بين الشعر اليونانى والشعر العربى ، مما جعله يبقى على اصطلاحى الطراغوذيا والقوموذيا فلم يسمهما المديح والهجاء كما صنع متى . ومع فطنته فى تصور الكتاب يظل غامضا عنده أوبعبارة أدق تظل أطراف منه غامضة ، وإن كان مما لاريب فيه أن تلخيصه أجود من ترجمة متى ، وقد سمى مصطلح التعرف فى المأساة باسم الاستدلال ، وسمى مصطلح الانقلاب فى البطل من السعادة إلى الشقاء والعكس باسم الاشتمال .

وجاء ابن رشد بعده فحاول تلخيص الكتاب ، ويبدو أنه أحس أن من الصعب تلخيصه ، وأنه أولى من ذلك أن يكتب تفسيراً ملخصاً له ، لا ينقل فيه نصوص الكتاب نقلا حرفياً ، بل يشرحها فى إجمال ، وأراد أكثر من ذلك أن يقترب بعمله من الذوق العربى ، فأكثر فيه من الأشعار العربية ، بحيث غدا صنيعه أشبه بتعريب للكتاب ، وكأنه يريد أن يطبق قضاياه على الشعر العربى ، مع عدم إدراكه بوضوح لهذه القضايا ، وفى مقدمتها حديث أرسطو عن الطراغوذيا والقوموذيا فقد مضى فى أثر

متى بن يونس وترجمته يظنهما على الترتيب المديح والهجاء. وإذا كان ابن سينا والفارابى قبله أدركا إلى حد بعيد ما يريده أرسطو بالمحاكاة فى التراجيديا والسكوميديا وأنها محاكاة لأفعال وأحداث، فإن ابن رشد غاب عنه هذا المعنى تماماً وظن أن المحاكاة تقابل التشبيه فى البلاغة العربية، وسمى الانقلاب فى المأساة من السعادة إلى الشقاء والعكس إرادة. ومضى فى الكتاب يكثر من ضرب الأمثلة من الشعر العربى: أبياته وشطوره، ابتغاء الشرح والتفسير.

وفى الحق أننا عند ابن رشد — كما قلنا — بإزاء تعريب لكتاب الشعر لأرسطو، وهو تعريب يداخله الخطأ أحيانا فى فهم بعض النصوص والمصطلحات فى الكتاب، ومع ذلك فقد نثر فيه الفيلسوف القرطبى كثيرا من الآراء البلاغية الصائبة. وأول ماتقف معه عنده المحاكاة وظنه أنها تقابل فى البلاغة العربية التشبيه، فقد خصه بكلام كثير تحدث فيه — متابعا للبلاغيين عندنا — عن أدواته ومجيئه أحيانا بدونها مما يسمونه تشبيها بليغا، ومجيئه أحيانا أخرى فى صورة عكسية يصبح فيها المشبه مشبها به والمشبه به مشبها كقول ذى الرمة فى أحد شطور أبياته «ورمل كأوراك العذارى قطعته». ويقول إن التشبيه قد يكون تشبيه محسوس بمحسوس، ويمثل لذلك ببعض الأبيات، وقد يكون تشبيه معنوى بمحسوس كقولهم فى الإحسان إنه قيد على شاكلة قول المتنبى:

وقَيَّدْتُ نفسى فى ذَرَاكَ محبةً
ومن وجَدَ الإحسان قَيْدًا تقيَّدا

ويرى أنه ينبغى فى التشبيه أن يكون بالأشياء الفاضلة لا بالأشياء الخسيسة، وقد يكون فى ذلك متأثرا بما جاء عند عبد القاهر فى كتابه «أسرار البلاغة» من أنه ينبغى أن لايقرن فى التشبيه الخسيس بالشريف، ويضرب ابن رشد لذلك مثلا هو قول شاعر فى مديح سيف الدولة وفتكه بالبيزنطيين فى بعض معاركه:

وكانوا كفأر شَوَّشوا خلف حائط
وكنت كسِنَّوْرٍ عليهم تسلَّقْا

وواضح أن الشاعر شبه سيف الدولة فى سحقه للبيزنطيين بسنور أوهر، وهم خلف حائط يتهامسون هلعا كأنهم فأر مذعور، ومابنى سيف الدولة يتسلق الحائط عليهم ويمزقهم إربا. ويعيد هنا مامر بنا فى تلخيصه لكتاب الخطابة من أن الأمم تختلف فى تشبيهاتها باختلاف أعرافها وبيئاتها وعاداتها كتشبيه العرب النساء بالظباء وبقر الوحش، ومثل تشبيهها الضب — حيوان من الزواحف — بالنون (الحوت) لمكان السراب الموجود فى بلادهم، ويقول: ومن ذلك قول الله تعالى فى تصوير أعمال الكفار: (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة).

ويعرض أمثلة للاستعارة المكنية فى غير موضع من كلامه ، ويقف مع الآمدى فى حملته على أمثلة جاءت منها عند أبى تمام لايتضح فيها التشبيه من مثل قوله :

لاتسقنى مــاء المــلام فإننى
صبٌّ قد استعذبتُ ماء بكائى

وقوله فى مدح أحد القواد وتنكيله بالأعداء :

يوم فتحٍ سقى أسودَ الضواحى
كُثَبَ الموت رائباً وحليبا

الكثب جمع كثبة وهى من اللبن الجرعة . يقول ابن رشد — كما قال الآمدى وغيره من بلاغى العرب — إن الماء فى البيت الأول غير مناسب للملام وكأنه افتقد فى الصورة التشبيه الذى يؤهل للاستعارة ، ولم يلاحظ أن ماء البكاء فى نهاية البيت هو الذى أتاح لأبى تمام أن يأتى بماء الملام على سبيل المشاكلة وكأن للملام جـدولا كبيرا . وبالمثل نقد ابن رشد التشبيه الذى قامت عليه الاستعارة فى البيت الثانى إذ جعل أبو تمام للموت جرعا كجرع اللبن منها الرائبة ، وغير الرائبة. والصورة غريبة غير أن أبا تمام استوحاها من مثل قول العرب : جرَّع فلان أعداءه الصلب والعلقم . وابن رشد — مثل الآمدى وبلاغيِّى العرب— مخطئ فى طلبه أن تكون هذه الصورة وسابقتها قائمتين على التشبيه، وهما من صور الاستعارة المكنية التى لاتعتمد على التشبيه ، وانما تعتمد على تجسيم الأشياء تارة وتشخيصها وبث الحياة فيها تارة ثانية ، وكأن ابن رشد لم يتنبه إلى مانقله عن أرسطو فى وصفها وبيانها ،على نحو مامر بنا آنفا فى تلخيصه لكتاب الخطابة، إذ نقل عنه هناك أنها وضع الشيء نصب العين أى تجسيده أو إيداع الحياة فيه ، وليس فى ذلك تشبيه ولا استعارة كما ظن الآمدى وأضرابه ، وكان ينبغى أن يفتحوا أبواب التصوير البيانى لاستقبال هذا النوع من التشخيص والتجسيم الذى أكثر منه أبو تمام على أن ابن رشد نفسه عاد فى صحف من الكتاب بلون من هذا النوع شاع عند العرب قديما ، وهو مخاطبتهم للأطلال والديار ومحاورتهم مع الجبـال وغيرها مما يبث الحركة فى الأشياء ويضعها نصب الأعين كما يقول أرسطو ، ومما مثل له فيلسوف قرطبة من ذلك مخاطبة مجنون ليلى لجبل التَّوْباد وحواره معه على هذا النمط :

وأجهشتُ للتَّوْبادِ لما رأيتُه
وكبَّر للرَّحْمن حينَ رآنى
فقلت له أينَ الذين عهدتُهم
حواليك فى أمنٍ وخفْض زمان
فقال : مضوا واستودعونى بلادَهم
ومن ذا الذى يبقى على الحدَثانِ

وهى أبيات طريفة تصور مجنون ليلى وقد ألم بديارها فلم يجد من معاهدها سوى جبل التوباد ، فاجهش بالبكاء ، وامتلأ الجبل اشفاقا عليه فكبر لله لعله يرحمه ، ويسأله المجنون عن ليلى وأهلها الذين كانوا يروحون ويغدون فى ظله آمنين وادعين ، ويقول الجبل بلسان

حاله : لقد مضوا وخلت الديار منهم ، ومن ذا الذى يبقى على الليالى والأيام ، فالكل إلى زوال والجميع إلى فناء . وكان ابن رشد يعجب بمثل هذا المشهد الكامل فى الشعر وأداه ذلك إلى إظهار إعجابه بالأبيات التى تحمل مشاهد أو أحاسيس كلية كأحاسيس الذكريات من مثل قول متمم بن نُوَيْرة فى رثاء أخيه مالك :

وقالوا أتبكى كلَّ قبرٍ رأيته
لقبرٍ ثوَى بين اللِّوى والدكادك
فقلت لهم إن الأسى يبعث الأسى
دعونى فهذا كلُّه قبرُ مالكِ

والبيتان يحملان أحاسيس حادة بذكرى أليمة وتوجع ممض وحزن لاشاطئ له ، فالأرض كلها أصبحت قبرا كبيرا لمالك وهو يذرف الدمع سخينا على شقيق روحه والدمع لايرقأ ولا يجف . وينشد ابن رشد من هذه الأحاسيس والمشاهد والصور الكلية قول مجنون ليلى ، وقد ذهب إلى حج بيت الله لعله يتعزى عنها أو يتسلى :

وداعٍ دعا إذ نحن بالخَيْف من منىً
فهيَّج أحزان الفؤاد وما يدرى
دعا باسم ليلى غيرَها فكأنما
أطار بليلى طائرا كان فى صدرى

والبيتان يصوران مجنون ليلى وهو يؤدى عبادة الحج متنقلا بين مناسكه ومشاعره ، وإذا شخص يدعو باسم ليلى أخرى ، فيخفق قلبه حين سماع اسمها ، وتتوالى ضرباته وخفقاته فى صدره، وتعود إليه رعداته فى جلده وعظامه ، وتعود إليه ذكرياته مع ليلى فى أيام الحمى ، وكأنما يتصدع قلبه تصدعا . ويذكر ابن رشد لمجنون ليلى صورة كلية أو قل مشهدا كليا ، إذ يقول :

وإنى لأستغشى ومابى نعسةٌ
لعل خيالا منك يلقى خياليا
وأخرجُ من بين البيوت لعلنى
أحدِّث عنك النفسَ فى السرِّ خاليا

والمعنى فى البيت الأول يتردد عند الشعراء. غير أن البيت الثانى رائع إذ يكمل المشهد أو الصورة . إذ يقول المجنون إنه يعتزل أهله وبيوتهم فى الحى ليخلو إلى نفسه وحبه ومناجاته ليلى ، وكأنه يطلب الاعتكاف دائما ، ليس إلى معبودته بحبه فى همس ، بل فى صمت . وليس فى البيتين استعارة ولا تشبيه ولكن فيهما مما استوحاه عن أرسطو فى تلخيصه لخطابته ، كما أسلفنا ، من الافعال الدالة على الحركة التى ترفع أمام أبصارنا أو قل ترسم مشاهد حية نابضة. وكان حريا بالبلاغيين عندنا أن يفتحوا فى البلاغة بابا لهذه المشاهد الخافقة بالحياة ، مما تداخله الصور البيانية . ومما يخلو منها متحولا بالاحاسيس والحقائق الواقعية إلى مشاهد خافقة بالحياة والحركة . ومن بديع ماذكره من هذا اللون أو الباب قول المتنبى يصف فزع رسول للروم حين دخل على سيف الدولة فى قلعته بحلب :

أتاك يكاد الرأسُ يجحد عُنْقَه
وتنقدُّ تحت الذُّعْر منه المفاصلُ

يقوِّم تقويمُ السماطين مشيتَه
إليك إذا ماعـوّجتْه الأفاكلُ

والسماطان : الصفان من الحاشية وغيرهم . والافاكل : جمع أفكل وهى الرعدة . والمتنبي يصور حالة الرسول النفسية ، وكأننا نراه أمام أبصارنا وقددخل على سيف الدولة ، والرعب يملأ نفسه من لقائه ، وكأنما رأسه تنكر أن يظل عنقه متصلا بها ، وكأنما مفاصله تتقطع خوفا وهلعا ، والرعدات تأخذه من كل جانب ، فيضطرب فى مشيته حتى ليكاد ينكفىء ، لولا السماطان اللذان يقوِّمان سيره بينهما ، فيتماسك ونفسه لاتكاد تستقر ضيقا وقلقا وفزعا مابعده فزع . وقد عرف المتنبي كيف يعرض علينا هذا المشهد الكامل لفزع رسول الروم وبيان حالته النفسية . ولو أن البلاغيين من أسلافنا عنوا بعرض مثل هذه المشاهد الكلية فى البلاغة العربية ومايُطْوىَ فيها من وصف الأحوال النفسية الحقيقية والمتخيلة لأثروا مباحثهم ولاستحالت فى بعض جوانبها خصبة ممتعة .

ويعرض ابن رشد مرارا للكناية ويمثِّل لها ، ومما عرض له الأمثال ومعروف أنها تدخل فى باب الاستعارة التمثيلية ، ويقول إنها أدخل فى باب الإقناع منها فى باب التخييل لانها تقيس أحوالا حقيقية حاضرة على أحوال حقيقية ماضية ، ويذكر من أمثلتها قول أبى فراس :

ونحن أناسٌ لاتوسُّط بيننا
لنا الصَّدرُ دون العالمين أو القبْرُ

تَهُون علينا فى المعالى نفوسُنا
ومن خَطَبَ الحسناء لم يُغْلِها المهرُ

والشطر الأخير مثل واضح . ويقول إن هذا الجنس من الأمثال والحكم كثير فى شعر المتنبي ، وهى ملاحظة صحيحة فشعره يمتلئُ بالحكم ، ولاحظ ذلك معاصروه ومن جاءوا بعده فألفوا فيه رسائل مختلفة .

وذكر ابن رشد الجناس التام والناقص ومثل لهما كما مثل للطباق والأضداد ملاحظا مافيهما من المتاع والجمال الفنى ، وأشار إلى تصنع المتنبي للمصطلحات العلمية فى شعره ، وقال انه ربما استعمل تعريفات واشتقاقات لم تستعمل من قبل ، ناقلا فى ذلك كله عمن سبقه من البلاغيين والنقاد . وعرض للأسلوب المعروف عند البلاغيين باسم الاستثناء أو المدح بما يشبه الذم من مثل « على لاعيب فيه غير أنه شجاع » وقد جعله من باب السلب والإيجاب ، وكأنه يشير بذلك إلى السر فى المتاع الأدبي به وأنه يعود إلى مسحة من التناقض تبدو فى ظاهر التعبير .

ويصطدم فيلسوف قرطبة بما جاء على لسان أرسطو فى كتاب الشعر من حديث عن تسلسل التراجيديا بحيث يكون لها فاتحة ووسط وخاتمة ويحاول أن يطبق ذلك على الشعر العربي . ويلقاه مايذكره أرسطو عن الربط والحل فى المأساة ، ويخال أن الربط يلتقى فى قصيدة المديح العربية بالبيت الذى يتخلص فيه الشاعر من النسيب أو وصف الصحراء إلى

المديح ، ويمثل لذلك بتخلصين بديعيين لأبي تمام والمتنبي ونكتفي بما جاء عند الاول من تخلص في مديحه لأحمد بن أبي دوأد :

عامي وعام العيس بين وديقــة
مسْجورةٍ وتنــوفة صَيْخُودِ
هيهات منهــا روضةٌ محمودةٌ
حتى تُناخَ بأحمدَ المحمودِ

والعيس : الابل ، والوديقة : الهاجرة . ومسجورة : موقدة . وتنوفة : فلاة وصيخود : محرقة يقول أبو تمام إن عامه وعام إبله كان عسفا في هاجرة متقدة وفلاة مهلكة ، وماكان أبعاه وأبعدها من النزول بديار الممدوح ورياضها الغناء . وهو تخلص بديع . ويقول ابن رشد إن هذا الربط أو هذا التخلص يكثر في أشعار العباسيين بينما يعمــد العرب قديمــا في الجاهلية والاسلام إلى الحل أو الخروج دون وصلة من النسيب وغيره إلى المديح . ويلتقي عند أرسطو بكلمات كثيرة عن هوميروس والإليــاذة والأودسا والشعر القصصي ، ويحاول أن نجــد لذلك مثالا في الشعر الجاهلي ، ويهديه بحثه إلى قصيدة للأسود بن يعفر ، يقول إنها من جيد ما في هذا المعنى للعرب ، وينشد منها خمسة أبيات يتحدث فيها الاسود عن فناء الدول والممالك الغابرة وهي من الشعر الغنــائي . وكأن الفيلسوف القرطبي لم يفهم بوضوح ما يراد عنــد أرسطو بالشعر القصصي وشعر هوميروس .

ولكن مع كل مافات ابن رشد من فهم هذه الجوانب وماماثلها في كتاب الشعر فإنه نفذ في تضاعيف تعريبه إلى كثير من الأفكار البلاغية وخاصة فيما يتصل بالمشاهد المتكاملة للأحاسيس والأحوال النفسية والحقائق الواقعة . ولاتزال من أفكاره بقية طريفة تتصل بمراعاة النظير والغلو أو المبالغة . أما مراعاة النظير فإن البلاغيين قبله كانوا يعرضون أمثلة منه دون بيان لصوره وما يمكن أن يتوزعها من طرق مختلفة ، وعرف ابن رشد كيف يستنبط هذه الطرق ، وهي في رأيه أربعة : أحدها أن يأتي الشاعر بالشيء وشبيهه مثل الشمس والقمر ، وثانيها أن يأتي بالاضداد مثل الليل والنهار ، وثالثها أن يأتي بالشيء وما يستعمل فيه مثل القوس والسهم والفرس واللجام ، ورابعها أن يأتي بالأشياء المناسبة مثل الأشجار والأزهار والمياه . وكان حريا بالبلاغيين بعده أن يعرضوا هذه الطرق التي وضعها فيلسوف قرطبة لمراعاة النظير . وعلى ضوئها عرض ماقاله بعض البلاغيين والنقاد عن فقد التناسب في بيتين لامرىء القيس وآخرين للمتنبي ملاحظين أنه كان ينبغي وضع شطر البيت الثاني مع البيت الأول وشطــر البيت الأول مع البيت الثــاني ، ونكتفي ببيتي المتنبي إذ يقول في مديح سيف الدولة وفتكه بالروم :

وقفتَ ومافي الموت شكٌّ لواقفٍ
كأنك في جَفْنِ الرَّدَى وهو نائمُ

تمرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً
ووجهُك وضّاحٌ وثغرُك باسمُ

فقد زعموا أن التناسب مفقود فى شطرى كل بيت ، وكان التناسب يقتضى أن يكون صدر البيت الأول صدرا للبيت الثانى ، وصدر البيت الثانى صدرًا للأول على هذا النمط :

وقفت وما فى الموت شك لواقف
ووجهك وضاح وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة
كأنك فى جفن الردى وهو نائم

ويعقب ابن رشد على ذلك بقوله :

« ماقاله أبو الطيب له وجه من التناسب »

ولم يوضح ابن رشد الوجه المشار إليه وكأنه تركه للقارئ ليعود إلى ضوابط التناسب ومراعاة النظير التى ذكرها آنفا ، ليلتمس فيها الوجه المظنون ، وهو الإتيان بالشبيه فى البيت الأول إذ ذكر المتنبى مع الموت النوم شبيه والإتيان بالضد فى البيت الثانى إذ ذكر مع حزن المهزومين فرحة سيف الدولة بالنصر الحاسم والتشابه والتضاد وجهان قويمان من وجوه التناسب التى ذكرها ابن رشد . وبالمثل رد زعم البلاغيين والنقاد ازاء بيتى امرىء القيس قائلا ان لقوله وجها من التناسب .

وواضح مانفذ إليه بدقة نظره من وضع الضوابط المحكمة للتناسب فى التعبير الأدبى ومراعاة النظير . أما الغلو أو المبالغة ، فقد قرأ عند أرسطو أن أحداث التراجيديا ينبغى أن تكون فى حيز الممكن ، فاندفع يهاجم المبالغة المفرطة فى الشعر مسميا لها باسم الكذب ، ويقول إن السوفسطائيين هم الذين يستخدمونها وينبغى أن يتحاشاها الشعراء حتى لا يخرجوا عن حدود المعقول فى حقائق الوجود ، ويقول إن هذا الغلو الكاذب كثير فى أشعار العرب والمحدثين ، ويضرب لذلك أمثلة مختلفة من شعر بعض الجاهليين ومن شعر المتنبى ، إذ يقول فى مديح كافور :

عــدوُّك مذموم بــكلِّ لسانِ
ولو كان من أعدائك القَمَرانِ

وفى نفس القصيدة يقول لكافور :

لو الفلكُ الدوّارُ أبْغَضْت سَعْيَهُ
لعوّقَــه شىءٌ عن الدورانِ

فقد كان للمتنبى مندوحة عن مثل هذه المبالغة المبعدة فى الغلو بما يمكن أن يتخيله العقل ويقبله ، أما أن يذم الشمس والقمر من أجل كافور ، وأما أن يتصرف كافور فى الفلك حتى ليستطيع تعويقه عن الدوران فان هذا تطرف فى المبالغة . وكان المتنبى بدونه يستطيع أن يمدح كافورا دون أن يفرط هذا الإفراط الذى يرده العقل ويدفعه .

وقفات الشعراء بالأطلال

للدكتور احمد الحوفى

(١) لماذا احتفوا بها ؟

في شعرنا العربي القديم وما بعده حفاوة بالأطلال ، ووقفات حيالها ، وبخاصة في الشعر الجاهلي ، حتى ليكاد يكون الغزل الطللي سمة من سماته .

وقد سارع بعض المولعين بالعيب إلى التهوين من شأن هذه الوقفات ، بل إلى السخرية منها والاستهزاء بالشعراء الواقفين أمام الأطلال :

ولو تأنى هؤلاء العيابون لامتدحوا أولئك الشعراء وأنصفوهم وأضفوا عليهم حللا من الوفاء .

نعم ، هنا كانت الحبيبة تقيم ، وإلى هنا كان قلب الشاعر يخفق ، ونظره يمتد ، وخياله يحوم ، وربما كان هنا لقاء ومناجاة ومناغاة ورجاء ووصل . ومن هنا ظعنت الحبيبة في بكرة مشقية مبكية .

هنا كان الحب ، وهنا كان الحبيب ، ثم قضت حياة الانتجاع أن يعطل المنزل الذي كان خاليا ، وأن يقفر المكان الذي كان خصبا موحيا ، فيعود إلى طبيعته جمادا بعد ما أضفت عليه الحبيبة حياة وجمالا ، فقد تناوبته الرياح والأمطار فلم يبق منه إلا أطلال ورسوم لكنها كالعنوان من الكتاب المرقوم ، أليس من حق هذه الأطلال أن يعزها الشاعر ، وأن يقف بها وأن يطوف من حولها ؟

بلى ، وقد وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، ونطق واستنطق .

وإذا كانت الحبيبة هي المثير الطبيعي لعاطفة الحب فإن الأطلال هي المثير المقارن أو (الصناعي ، وتفسير ذلك كما يقرر علم النفس أن الحبيبة بعيدة عن الشاعر فديارها حلت حلها في إثارة عاطفة حبها ، فلما ثارت هذه العاطفة أقبل المحب على الجدران يقبلها ، لأن الديار وجدرانها هي المثير الصناعي ، والذى سوغ ذلك أن الحبيبة كانت تسكن تلك الديار ، فاقترنت الديار بها حتى صارت الحبيبة وديارها وحدة متماسكة) ، فإذا كان جزء قد ارتحل فإن الجزء الآخر قد حل محله :

ولهذا أضافوا الأطلال إلى اسم المحبوبة لأنهما مقترنان اقترانا معنويا فى ذهن الشاعر وقد كانا مقترنين اقترانا محسوسا من قبل ، قال امرؤ القيس :

يادار معاوية بالحائل
فالسُّهبُ فالخبتين من عاقلِ

وقال طرفة :

لخولَة أطْلال ببرقة ثَهْمَدِ
تلوح كباقى الوَشْمِ فى ظاهرِ اليد

وقال زهير :

أمِن أم أوْفى دِمْنَة لم تَكَلَّمِ
بحَوْمانة الدرَّاج فالمتثَلَّمِ

ويشبه هذا ما جاء فى الشعر الأوربى إذ لم ينفرد شعراء العربية بوقفاتهم على الأطلال ، فقد شابههم بعض شعراء الغرب فى مثل هذه الوقفات وإن لم تكن على أطلال ، بل كانت على بحيرات .

نعم ، وقف لامرتين على بحيرة بورجيه وكذلك وقف روسوفى قصته (هلواز الجديدة) وفى (أحلام متنزه وحيد) ، ووقف فكتور هيجو فى قصيدته (أحزان أوليمبيو) ووقف ألفريد دى موسيه فى قصيدته (الذكرى) ، ولبيرون قصيدة على بحيرة (ليمان) تحسر فيها على حبه الذى انقضى ، وتذكر أنغام محبوبته على خرير مياه البحيرة .

وليس المقام مقام موازنة بين الأدبين ولكن قراءتهما توضح أن الأطلال والبحيرات وما يشبهها تشترك فى أنها المثير المقارن لعاطفة الحب ، وأنها تبعث فى نفس الشاعر ذكرى سعادته الماضية ، وحسرته على نعيم لن يعود ، والأطلال والبحيرات عزيزة على الشاعر ، لأنها متصلة بحبه اتصالا يخوله أن يتمثل الطلل أو البحيرة إنساناً حياً عزيزاً يناجيه ويستخبره ، ويبثه ما به من شوق وحنين ووجد ولهفة .

(٢) عنايتهم بتحديدها

لم يكتف الشعراء بذكر الأطلال مقترنة باسم الحبيبة ، بل حددوا مواقعها تحديداً دقيقاً كأنما يرسمونها على الورق ، أو كأنهم جغرافيون يخطون الخرائط والبلدان ولعل سبب هذا تخوفهم من أن تمحوها عوادى الطبيعة ، لأنها ليست دوراً مشيدة ولكنها آثار قوم رحل ضربوا خيامهم ، ثم ارتحلوا ، وتركوا نؤيا وأحجاراً وآثاراً تعفى عليها الرياح والرمال والسيول ، وهم يودون أن تبقى تصورهم .

حدد امرؤ القيس الطلل من جهاته الأربع فى قوله :

قِفَا نَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزل
بِسقْطِ اللِّوَى بين الدَّخُول فَحَوْمَل
فَتُوضِح فالمِقْراة لم يَعْفُ رَسْمُها
لما نسجتها من جنوب وشمأل

وقال زهير :

أمن أم أوفى دمنــة لم تكلم

بحومانة الدراج فالمتثــلم

وكذلك حدد لبيد والحارث بن حلزة والنابغة الذبياني وعبيد بن الأبرص وغيرهم .

(٣) معالمها الباقية

وماذا تبقى فى الصحراء من آثار قوم رحل ؟

تبقى نؤى وأحجار وأثافى ورمال ودخان يصبغ الأحجار ، وتبقى آثار للحيوان . لــكن هذه البقايا عميقة الأثر فى نفس الشاعر ، لأنها مرتبطة بحبــه ، فليست جمادات وإنمــا هى أحياء ذوات معان ودلالات ، قال المخبل السعدى :

وأرى لها داراً بأغدرة السيــ

ـدان لم يدرس لها رسم

إلا رمادا هامدا دفعت

عنه الرياح خوالد سحم

وبقية النؤى الذى رفعت

أعضاده فثوى له جذم[1]

ومثل هذا نجده عند عميرة بن جعل وأعشى طرود والمرقش الأكبر وغيرهم

وقال زهير إن الدمنة صارت مرعى للبقر الوحشى والظباء ، أسراباً يتبع صغارها كبارها ، ويمشى بعضها فى اتجاه وبعضها فى اتجاه آخر ، وبين الفينة والفينة تنهض صغار من مراقدها بأمهاتها :

بها العين والآرام يمشين خلفه

وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

وصورها الأخنس بن شهاب مسرحا للنعام يمشى متمهلا متثاقلا :

تظل بها ربد النعام كأنها

أما تزجى بالعشي حواطب

وقال المرقش الأكبر لها قد خلت من سكانها ، وليس بها إلا أبقار الوحش ترعى فى دعة ، وتمشى مختالة كالفرس فى قلانسهم :

أمست خلاء بعد سكانها

مقفرة ما إن بها من ارم

إلا من العين ترعى بها

كالفارسين مشوا فى الكمم

(٤) الأطلال من الوجهة الفنية

إذا كان بعض الشعراء قد تأنق فى تصوير أسراب الحيوان التى ترعى بالأطلال فإن آخرين افتنوا فى تصويرها ، إذ

---

(١) أغدرة : غدران . السيدان : أرض لبنى سعد . لم يدرس لها رسم : لم يذهب أثرها كله . هامداً : خامداً . خوالد : بواق والمراد أثافى القدور . سحم : سود . نؤى حفيرة تحفر حول الخيمة لتحميها من السيل . أعضاده : جوانبه . جذم : أصل .

شبهوها بالوشم ، وبالطراز الموشى ، بالوشى وبالكتابة .

وأسارع فأذكر أن هذا التشبيه ليس قائما على الشكل والمظهر فحسب ، ولكنه قائم أيضا على علاقة نفسية ، لأن الشاعر يتذكر حبيبته ويستغرق فى ذكراها وهو واقف بآثارها ، فأسرع الصور إلى ذهنه ما يتصل بالمحبوبة من قريب أو من بعيد .

هو يرى الرمال موجتها الرياح ، وتناثرت بها الآثار ، ونبتت بها الأعشاب الخضر ، فيشبهها بالوشم ، والوشم من حلى الحبيبة وضروب تجملها ، وهو يرى هذا المنظر فيشبهه بالوشى وبالطراز الموشى ، وهما من ملابس المحبوبة .

شبه زهير الأطلال بالوشم فى قوله :

ودار لها بالرقمتين كأنهـا
مراجيع وشم فى نواشر معصم

وشبهها معن بن أوس بالوشم على المعصم الجميل :

يلوح وقد عفى منازله البلى
كما لاح فوق المعصم الحسن الوشم

وارتبطت فى خيال طرفة بن العبد بثوب جميل زخرفه أهل ريدة وأهل سحول :

وبالسفح آيات كأن رسومها
يمان وشته ريدة وسحول

وشبهها قيس بن الخطيم بالثوب المذهب :

أتعرف رسما كالطراز المذهب
لعمرة وحشا غير موقف راكب

ولقد أكثر الشعراء من تشبيه هذه الآثار وتوجاتها والخطوط المنتظمة التى تصنعها الرياح فيها بالكتابة وبالصحف المكتوبة .

قال المرقش الأكبر :

الدارُ قفرٌ والرسومُ كما
رَقّشَ فى ظهرِ الأديم قلمْ

وقال الأخنس بن شهاب :

لابنة حطان بن عوف منازل
كما رقش العنوان فى الرق كاتب

وقال حاتم الطائى :

أتعرف أطلالا ونؤيا مهدما
كخطك فى رق كتابا منمنما

وكذلك صورها معاوية بن مالك بن جعفر وامرؤ القيس وطرفة وثعلبة بن عمرو العبدى :

وهذه الكثرة من التشبيه كفيلة بدعوتنا إلى تصحيح نظرتنا للعصر الجاهلى . فلم تكن الكتابة مجهولة للعرب تلك الجهالة التى تحكى عنهم ، لأن هذا الفيض من التشبيه بالكتابة وبالورق وبالقلم وبالمداد والأسطر ينبىء عن معرفة بها عند الشعراء المشبهين ، وبخاصة أننا نجد فى بعض هذه

التشبيهات دقة وتفصيلا يدلان على خبرة الشاعر بالكتابة وممارسته لها .

وحسبي في هذا المجال أن أذكر عدى ابن زيد العبادى ولقيط بن يعمر الأيادى وسويد بن الصامت الأوسى وعبد الله ابن رواحة والربيع بن زياد العبسى والمرقش الأكبر وأخاه حرملة وكعب بن مالك الأنصارى والزبرقان بن بدر وكعبا وبجيرا ابنى زهير ولبيد العامرى والحارث بن حلزة والبعيث بن حريث .

(٥) الأطلال بعد الجاهلية

لم ينفك كثير من الشعراء يفتتحون بعض قصيدهم بالوقوف على الأطلال في كل عصر ، كالبحترى وأبى نواس وابن الخياط وأبى تمام والمتنبى والبارودى وغيرهم . وحسبنا أن نذكر من العصر الإسلامى قول عمر بن أبى ربيعة :

لمن الديار رسومها قفر
لعبت بها الأرواح والقطر

ومن العصر العباسى قول أبى نواس مع أنه كان من الساخرين بالغزل الطللى ومن بكاء الأطلال :

لقد طال في رسم الديار بكائى
وقد طال ترددى بها وعنائى

وقول البحترى :

وقوفك في أطلالهم وسؤالها
يريك غروب الدمع كيف أنهما لها

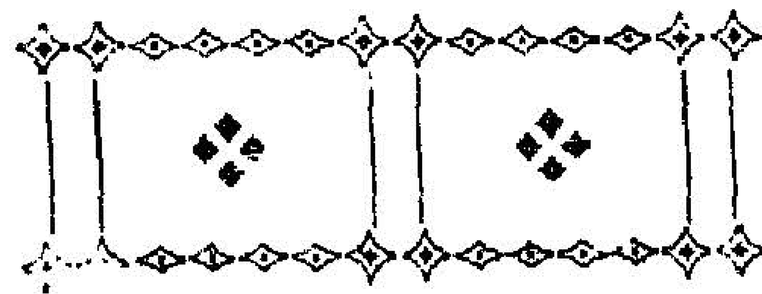
فإذا ما قفزنا إلى العصر الحديث وجدنا أثارة من بكاء الأطلال والوقوف بها وذكرها على أنها رموز إلى عهود مضت وإلى وفاء باق ، وعلى أنها ينبوع للذكرى كقول البارودى :

ألا حى من أسماء رسم المنازل
وإن هى لم ترجع بيانا لسائل

وقول شوقى معللا بما لم يسبقه إليه شاعر :

أنادى الرسم لو ملك الجوابا
وأجزيه بدمعى لو أثابا
وقل لحقه العبرات تجرى
وإن كانت سواد القلب ذابا
لها حق وللأحباب حق
رشفت وصالهم فيها صبابا
ومن شكر المناجم محسنات
إذا التبر انجلى شكر الترابا

أحمد الحوفى
عضو المجمع



مثال "أخذ" من معجم فيشر

تقديم وعرض: الأستاذ محمد شوقي أمين

العهود

من التراث أن يكون عن رواحل مضت به ركائب الأيام ، فكيف أسمي ما أقدمه اليوم تراثا مجمعيا ، على حين أن المجمع — طال عمره — قائم حي ، بل إن أعضاءه — وإن مضوا — يسمون : الخالدين.

لا بأس بأن نطلق اسم التراث على ما يتصل بالمجمع من آثار علمية ، في عهود تقادمت وتقادمت ، إذا لم تكن على أعين الناس ، من ظاهر أعماله ، فيما يتداولون من منشوراته . . . إنها إذن تراث ماض وعزيز .

هذه أوراق نبعثها اليوم من مرقدها وقد لبثت فيه سنين ، ذرفت على الأربعين فهي من أتراب المجمع ولداته ، إن صح التعبير ، عاصرته في نشأته الأولى ، مع الفوج الأول ، من أعضائه الأولين .

هي أوراق مخطوطة ، كتبها بيده المستشرق الألماني الكبير الدكتور « أوجست فيشر » وضمنها الثلث الأول من مادة «أخذ» في معجمه التاريخي الذي اشتهر باسم «معجم فيشر» ، وقد بقيت على حالها مطوية منذ سنة ١٩٣٦ م ، لم تشتمل عليها من قبل وثائق المجمع المطبوعة .

ولهذه الأوراق قصة وتاريخ :

١ — كان من بين الفوج الأول من أعضاء المجمع — عند افتتاحه سنة ١٩٣٤م الدكتور « أوجست فيشر » ، وهو حجة في اللغات الشرقية من عربية وعبرية وسريانية وحبشية وفارسية وغيرها ، وقد عرض في اجتماع المستشرقين الألمان سنة ١٩٠٧م فكرة تأليف معجم للغة العربية الفصحى يتناول تاريخ كل كلمة ، مبتدئا بالكتابة المنقوشة من القرن الرابع الميلادي ، منتهيا بالقرن الثالث الهجري ، على أن تستخرج الكلمات من المتون في الكتب والكتابة المنقوشة والمخطوطات على أوراق البردى وعلى النقود ، لكي يمكن تحديد عمر الكلمة ومعناها وتركيبها وظل مجتهدا في جمع مادة

هذا المعجم عشرات السنين ، حتى اختير عضوا فى مجمع القاهرة ، كما أسلفنا القول .

٢ – ولما كان مرسوم إنشاء المجمع قد نص على أن يكون من أغراضه القيام بوضع معجم تاريخى للغة العربية ، فقد ألف لذلك لجنة خاصة ، وفى سنة ١٩٣٥م فى أثناء انعقاد الدورة الثانية – نظرت اللجنة فى تقرير للدكتور فيشر أحد أعضائها حول نظام مفصل لتأليف المعجم التاريخى ، فاقترح أحد الأعضاء – وهو الأستاذ نالينو ، المستشرق الإيطالى – أن ينتفع المجمع بعمل الدكتور فيشر فى معجمه ، لاختصار الوقت والجهد وذلك بطبع «معجم فيشر» تحت إشرافه على نفقة الدولة .

وفى مفتتح الدورة الثالثة سنة ١٩٣٦ م تضمنت خطبة رئيس المجمع المرحوم محمد توفيق رفعت أن الدكتور فيشر رأى إيثاراً لمشرق العربية وترجمانها الحق فى هذا الزمان ، أن يخص مصر بمعجمه ، ليطبع فيها باسمه ، فيهبه لمجمعها هبة الكريم ، وأنه سيقدم منه نموذجا يعرض على أعضاء المجمع ، فكان هذا النموذج هو الثلث الأول من مادة «أخذ» مشفوعا بمراجعه ورموزه ودليل المراجعة ، وهو موضوع هذا المقال .

٣ – وحين عرض النموذج على لجنة ألفت للبحث فى شأنه ، قدم رئيس المجمع اقتراحا بأن يطبع المعجم ، وأن يتولى الدكتور فيشر تصحيحه بمصر ، على أن يحل ما يرده من استدراكات الأعضاء محل النظر والتقدير ، وأن يعاونه من أعضاء المجمع من يتفق الرئيس معهم .

ونوقش الاقتراح فى جلسة للمجمع ، فوافقت عليه غالبية الأعضاء ، وعارض فيه من عارض ، وامتنع من إبداء الرأى من امتنع . وإن المتتبع للمناقشات حول المعجم ونموذجه ليتبين له أنه قد أبديت عليه ملاحظات ، وافترقت فيه آراء .

كان من رأى الشيخ إبراهيم حمروش أن استدراكات الأعضاء قد لا يعمل بها ، وماذا يكون الأمر حين يغض الطرف عنها؟ وإن إقرار المجمع لطبع المعجم التزام بصحة ما فيه . وإن فى المعجم تفصيلا لا حاجة إلى الكثير منه ، فهناك معان متداخلة لا متغايرة ، ولا يصح جعلها فصولا قائمة بذاتها ، فليس بصواب أن يكون الأخذ فى الحرب فصلا من معانى «أخذ» ، ومن خلاف الصواب اعتبار أخذ بمعنى «نوّم» فى قوله تعالى « لا تأخذه سنة ولا نوم » وإنما المعنى : لا تغلبه :

وكان من رأى الأستاذ أحمد العوامرى أن هناك ملاحظات عامة يجب استخلاصها وإظهار المؤلف عليها ، حتى يعدل بها فهناك شواهد لا تؤدى معنى جديدا ، فيحسن حذفها ، وهناك شواهد مقتضبة لا يفهم المراد منها إلا بالرجوع إلى أصولها ، وهناك

ألفاظ غريبة وأعلام غير مشهورة فيحسن تفسيرها .

وكان من رأى الأستاذ أحمد الإسكندرى أن هناك شواهد لاداعية إليها ، واستشهادات على أفعال قياسية ، وأن ثمة مسألة ذات بال ، وهى أن النموذج لم يذكر إلا الشواهد على المعانى الأصلية، ولم يميز بين الحقيقة، والمجاز ، ولو فرّق بين استعمالات الكلمات فى أقوال الشعراء لكان له الشأن العظيم .

وقال الشيخ عبد القادر المغربى إن من أمثلة ما تجب ملاحظته النقط الدينية ، مثل ذكر حديث « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » فى معانى «أخذ» الحقيقية، وبدهى أن أخذ الله للظالم ليس من باب الحقيقة فى شىء ، وإنما هو مجاز أو كناية عن الاستيلاء .

أما الأستاذ على الجارم فكان رأيه أن تفصيل المعانى المتداخلة تبيين لاختلاف الأساليب ، والمعجمات غير العربية تعنى بذلك كل العناية ، فتفصل بين أخذ الكتاب وأخذ الأسير وأخذ الرأى مثلا، فإذا أخذنا بهذا النسق فتحنا أبواب اللغة للناس ، وسهلنا عليهم تذوق الألفاظ فى أحسن مواقعها فى الاستعمال .

وقال الأستاذ ماسنيون : إن النموذج يذكر شواهد النادر والغريب وغيرهما . فيثبت أقدم شاهد للمعنى المشروح ، والمعجم الذى يؤرخ للكلمات ومعانيها يجب أن يعنى بإثبات الشواهد القديمة عليها ، سواء أكانت معروفة ظاهرة أم كانت من الغريب المجهول. واللجنة المؤلفة لمعاونة الأستاذ فيشر ستبدى له آراءها ، وحبه للصواب سيغريه بدرس تلك الآراء ، ولكن هذا لا يسلبه حقه فى اختيار ما يراه من ناحية الترتيب والتهذيب، والفصل بين أصول المعانى وفروعها ، والتفرقة بين الحقائق وعوارضها فذلك كله موكول إليه ، لا تريده اللجنة على شىء منه .

وقال الأستاذ نلينو لعل الأستاذ فيشر لا يوافق على المعاونة إذا كان معناها إلزامه التغيير والتبديل ، فهو المسئول عن نظام معجمه ، بيد أنه بالضرورة يتقبل المقترحات تقبل النصيحة لا تقبل الأمر .

٤ — وتنفيذا للقرار المجمعى السالف الذكر أصدر رئيس المجمع قرارا بتأليف اللجنة التى يعهد إليها معاونة الدكتور فيشر فى مراجعة معجمه ، عند تقديمه للطبع . ولكن القرار وقد صدر سنة ١٩٣٦ م — ظل معلقا غير معمول به حتى سنة ١٩٣٨م — وربما كان فى المناقشات التى أجملنا طرفا منها سر هذا التعليق .

على أن الدكتور فيشر أوشك فى سنة ١٩٣٨م أن يقدّم الجزء الأول من معجمه للطبع فلما عرض ذلك على المجمع ، تقرر إعفاء لجنة المعاونة من مهمتها ، وترك أمر المعجم لمؤلفه ، يطبع باسمه ، وعليه تبعته .

وهكذا مضى الدكتور فيشر فى عمله فى المعجم ، مستقلا به ، وما هى إلا أن نشبت الحرب العالمية ، فحالت بينه وبين العودة إلى القاهرة ، وكان قد غادرها صيفا ، وبذلك تعذرت مواصلة العمل فى المعجم ، بعد أن أعد الدكتور فيشر مقدمته والجزء الأول منه ، حتى آخر مادة « أبد » وراجع بعض تجارب الطبع .

وفى سنة ١٩٤٩ م توفى الدكتور فيشر ، فعرض رئيس المجمع اقتراحاً بأن يطبع هذا القدر الذى تتمثل فيه طريقة المؤلف ومنهجه وبيان مراجعه ، كما يحتوى النموذج الواضح لمواد المعجم وأسلوب صياغتها وتفصيل معانيها ، فهو بذلك صورة صحيحة للنحو الذى كان يريد المؤلف أن يخرج عليه معجمه ، ولا يعوزه إلا ماعساه يعن أثناء المراجعة .

وما لبث المجمع أن وافق على هذا الاقتراح فأخرج المجمع ذلك القدر مطبوعاً مرتين .

٥ – وإذا نحن عنينا اليوم بهذه الأوراق التى تحوى الثلث الأول من مادة « أخذ » وما يتصل بها من المراجع والرموز ودليل المراجعة ، وعمدنا إلى أن نبعثها من مرقدها خلال عشرات السنين ، فإنما ذلك :

أولا – لأنها تعدمثالا محرراً ارتضاه صاحبه مستخلصاً من جزازات معجمه .

وثانياً – لأنها كانت فاتحة الاطلاع على منهج هذا المعجم التاريخى الذى عرض أمره على مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، فوافق على طبعه باسم مؤلفه .

وثالثاً – لأنها كانت كذلك مثاراً ومحوراً لمناقشات الأعضاء المجمعيين حول هذا المعجم الجديد فى منهجه وأسلوبه ، وفى ضوء هذه المناقشات تتجلى صورة واضحة لقيمة المعجم التاريخى ووزنه وطرازه فى تقدير نخبة من علماء اللغة المعاصرين .

محمد شوقى امين
عضو المجمع

وفيما يلى مراجع هذا التقديم والعرض :

١ – محاضر مجمع اللغة العربية بالقاهرة :
الدورة ٢ – الجلسات ١٦ ، ٣٣ ، ٣٥
الدورة ٣ – الجلسات ١ ، ٢ ، ٨ ، ١٢
الدورة ٥ – الجلسة ١٢
الدورة ٧ – الجلسة ٩
الدورة ١٦ – الجلسة ٢
٢ – مرسوم إنشاء المجمع .
٣ – مقدمة المطبوع من معجم فيشر .
٤ – مجموعة القرارات العلمية للمجمع .
٥ – كتاب « المجمعيون » .

طُرَف من الأدب واللغة

للدكتور أحمد عمار

-٥-

الناس :

١ - قيل هو اسم من أسماء الجموع : جمع إنسان وإنسانة . وتصغيره نُوَيْس ، والناس من النَّوْسِ أى الحركة : يقال نَاسَ يَنُوسُ أى تحرك ؛

٢ - وقيل أصله من نَسِى : قال ابن عباس : نَسِى آدم عهدالله فسمى إنسانًا .

« نَسِى آدم فنسيت ذريته » : حديث شريف :

فإن نَسيتُ عهودًا منك سالفةً
فاغفر فأول ناسٍ أول الناس

٣ - وقيل سمى إنسانًا لأُنْسه بحواء . وقيل لأُنسه بربه . فالألف هنا أصلية .

وما سُمِّى الإنسان إلَّا لأُنْسه
ولا القلب إلا أنه يتقلَّبُ

* * *

وأغفر عَوْرَاءَ الكريم ادخاره
وأُعْرِض عن شتمْ اللئيم تكرما

(حاتم)

* * *

التبشير :

الإخبار بما يظهر أثره على البَشَرة وهى ظاهر الجلد ، لتغيرها بأول خبر يرد عليك . ويستعمل فى السرور مقيدًا وغير مقيد . ولكن لا يستعمل فى الشر والغم إلا مقيدًا منصوصًا على الشر المبشَّر به . « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَاب أَلِيم » .

ويقال بشَّرته وبَشَرتُه بِشارة فأَبشر واستبشر . وبَشِرَ يَبْشَر إذا فرح . ووجه بَشيرٌ بيِّن البَشَارة . والبشرى ما يعطاه المبشِّر . وتباشير الشيء أوله .

الخلف :

من الصالحين. والخَلْف من الطالحين .

* * *

« انه هو التواب الرحيم » :

وقد يطلق على العبد أيضًا تَوَّاب :
« إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ »

* * *

القوم :

جماعة الرجال دون النساء .

(لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ وَلَا نِسَاءٌ مِن نِسَاءٍ) .

وما أدرى وسوف إخال أدرى
أقومٌ آل حِصنٍ أم نساء
(زهير)

وقد يقع القوم على الرجال والنساء
(إنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِه) .

تقول يا قومِ ويا قومى ويا قَوْمِىَ ويا قَوْمِيَهْ ويا قومَا ويا قومُ (بمعنى ياأيها القوم) ويا قوماً (إن جعلتهم نكرة) .

وواحد القوم امرؤ. والجمع أقوام وجمع الجمع أقَاوِم.

* * *

لبس فلان لفلان جلد النمر :

تنكر له . وكانت ملوك العرب إذا جلست لقتل إنسان لبست جلود النمر ثم أمرت بقتله .

* * *

مدح ابن قيس الرقيات عبدالملك ابن مروان بقوله :

يأتلق التاج فوق مفرقه
على جبين كأنه الذهب

فقال له : وماذا من الفضل فى تألق التاج ونصاعة الجبين ؟هلا مدحتنى بمثل ما مدحت به مصعب بن الزبير إذ تقول فيه :

إنما مُصْعَبٌ شهاب من الله
تجلَّتْ عن وجهه الظلماءُ
مُلْكه مُلْك عِزّة ليس فيه
جبروت منه ولا كبرياءُ

ثم حرمه عطاءه العمر كله .

* * *

العين بعدك لم تنظر إلى حَسَنٍ
والنفس بعدك لم تسكن إلى سكن
كأن نفسى إذا ماغبت غائبة
حتى إذا عدت لى عادت إلى بدنى

أما ترى اليوم ما أحلى شمائله
صحو وغيم وإبراق وإرعاد
كأنه أنت يامن لا شبيه له
وصل وهجر وتقريب وإبعاد
فاكر الراح واشربها معتقة
لم يدخر مثلها كسرى ولا عاد
واشرب على الروض إذ لاحت زخارفه
زهر ونور وأوراق وأوراد
كأنما يومنا فعل الحبيب بنا
بذل وبخل وإيعاد وميعاد

* * *

قال أعرابى فى دعائه :

اللهم إن استغفارى إياك مع كثرة ذنوبى لؤم ، وإن تركى الاستغفار مع معرفتى بسعة رحمتك عجز. إلهى كم تحبَّبْتَ إلىَّ بنعمتك وأنت غَنِىٌّ عنى ، وكم أتبغَّضُ إليك بذنوبى وأنا فقير إليك . سبحان من إذا توعَّد عفى ، وإذا وعد وفى .

* * *

وإنى لمشتاق إلى ظِل صاحب
يروق ويصفو إن كدِرت عليه
(أبو العتاهية)

* * *

ابدأهم بالصُّراخ يفِرُّوا

مَثَل يضرب للظالم يتظلم ليسكت عنه . وأصله أن يكون الرجل قد أساء إلى الرجل فَيَتَخَوَّف لائمة صاحبه فيبدؤُه بالشكاية والتجنى ليرضى عنه بالسكوت .

(الأغانى – الجزء العاشر ص٣٧٧)

زُرْغِبًّا تزدد حُبًّا

حديث شريف . وقال الشاعر :

إذا شئت أن تُقْلى فزر متواتراً
وإن شئت أن تزداد حُباً فزرغبا
لا تَزر من تحب فى كل شهر
غَيْرَ يوم ولا تزده عليه
فاجتلاءُ الهلال فى الشهر يوم
ثم لا تنظر العيون إليه

* * *

من الجواب المسكت

دخلت الخنساءُ على عائشة رضى الله عنها فأنشدتها قولها فى أخيها صخر :

ألا ياصخر إن أبكيت عينى . . . .

فقالت عائشة : أتبكين صخراً وهو جمرة فى النار ؟ فقالت : ياأم المؤمنين ذاك أشد لجزعى عليه ، وأبعث لبكائى .

وكانت رملة بنت عبيد الله بن مَعْمَر تحت هشام بن سليمان بن عبدالله فجرى بينهما ذات يوم كلام ، فقال لها : أنتِ بغلة لا تلدين . فقالت له : يأبى كرمى أن يخالط لؤمك !

وزن مَفْعِل لاسم المكان على غير قياس

مسجد . مطلع . مشرق. مغرب . مسقط مفرق . مجزر . مسكن . مرفق. منبت . منسك .

(مِظِنَّة . مِزَلَّة . مَرْكِز . مَرْشِ . منفِذ . معدِن . مأْوِى (لِلإبل فقط)

* * *

بُنى الحبُّ على الجَوْر فلو أنصف المعشوق فيه لَسَمُجْ .

* * *

من تراث العرب

لا تكن حُلواً فتؤْكل ، ولا مُراً فتلفظ ، وتوسُّط الأُمورأدنى إلى السلامة

قيل لأحد الحكماء : أى الأَصحاب أَبرّ ؟ قال : العمل الصالح .قيل فأَيهم أَضرّ ؟ قال : النفس والهوى .

فوت الحاجة خير من طلبها من غير أَهلها ، وعز النزاهة أَشرف من سرور الفائدة ، وحمل المنن أَثقل من الصبر على العدم .

استكثر من الهيبة الصَّموت ، والنَّدمُ على السكوت خيرٌ من الندم على الكلام .

قال لقمان الحكيم : ثلاثة لا يعرفون إلا من ثلاثة مواطن : الحليم عند الغضب ، والشجاع عند الحرب ، وأَخوك عند حاجتك إليه .

* * *

من تراث العرب

قال على بن أَبى طالب : من أَعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان ، وأَعجز منه من ضيع من ظفر به منهم .

قال رجل لعمر بن الخطاب : اتق الله ياأَمير المؤمنين . فقال له رجل من القوم : أَتقول لأَمير المؤمنين اتق الله ؟ فقال له عمر : دعه فليقلها لى ، نِعْمَ ما قال ، ثم أَردف : لا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا ، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم .

* * *

عفا : عنه ذَنْبَه ، وعفا له ذنبه ، وعفا عن ذنبه .

والعفو : أَحَلُّ المـال وأطيبه وخيار الشيء وأجوده .

والعافى : الوارد والضيف وكل طالب فضل أو رزق .

وأبو العِفاء : الحمار . والعَفْو والعَفَا [ ] ولد الحمار .

وأعطيته عفوا بغير مسألة والاستعفاءُ طلبك ممن يكلفك أن يعفيك منه .

وأعفى لِحْيَتَه وفَّرَها .

* * *

فوضى : صفة : المال فوضى بين القوم : متاعهم فوضى بينهم ، قوم فوضى أى مختلطون . وجاء القوم فوضى أى مختلطين .

دع الطير فوضى إنَّما هى كلها
طوالب رزق لا تجىءُ بمقطع

(أبو العلاء)

(وقولهم : تجنبوا الفوضى موضع نظر . أى تجنبوا الأُمور الفوضى ! وتستعمل فى المفرد والجمع) .

شَتَّى (جمع شتيت) مثل مريض ومرضى . ولكنها تستعمل للمفرد والمثنى والجمع : «وأنزل من السماء ماءًفأخرجنا به أزواجاً من نبات شَتَّى » – « إن سعيكم لشتى » .

رفيقان شتى أَلَّف الدهر بيننا
وقد يلتقى الشتى فيأْتلفـان

(لغويات – للنجار ص ٧٧)

* * *

الخَضْراوات : جمع خضراء (استعملت اسماً لا صفة)

مثل صحراء وصحراوات

والخُضَر : (سوق الخُضَر) جمع الخُضْرَة .

والخُضَارة هى الخُضْرة :

(لغويات – للنجار ص ١٠٤)

* * *

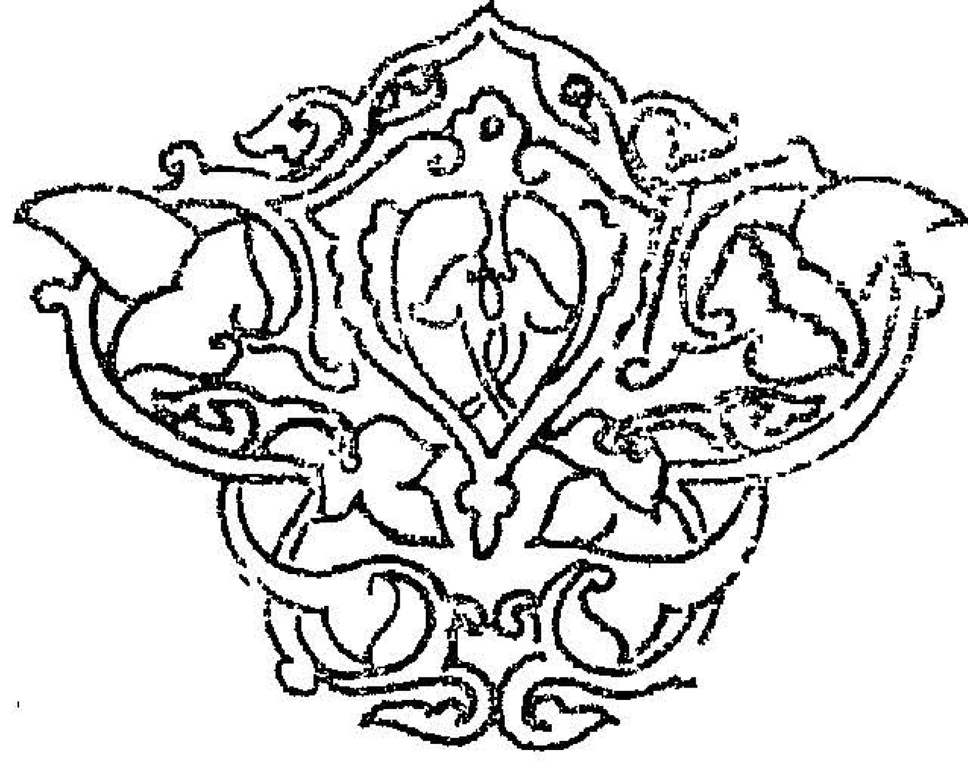
آيات القرآن وحروفه

مجموع آيات القرآن ٦٢٣٦ منها ٤٦١٣ مكية و١٦٢٣ مدنية .

وحروف القرآن ٣٤٠٧٤٣ حرفاً .
ونصف القرآن حرف الفاء في : « وليتلطف » في « فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف . » في سورة الكهف .

(وقيل : لقد جئت شيئاً نُكْراً : النون والكاف في النصف الأول والراء والألف في النصف الثاني)

أحمد عمار
نائب رئيس المجمع



كوكب الزهرة : كوكب النار
بين كشف علماء الحقيقة ... وكشف علماء الفضاء

للأستاذ المهندس صلاح عامر

علم الفلك فى ضوء غزو الفضاء :

منذ أن وجد الإنسان على سطح هذه الأرض ، وهو يتطلع إلى الفضاء فيرى الكواكب والنجوم وكلما ازداد تطلعه ازداد رغبة فى معرفة طبيعتها وحركتها ، ولقد توفر على الدراسات الفلكية العلماء فى كل جيل من حياة الإنسان على ظهر البسيطة وتطورت وسائل إجراء هذه الدراسات الفلكية إلى أن بلغت حد استخدام مختلف المناظير والقياسات الضوئية . وفى عصرنا الحاضر يمتلك الإنسان وسيلة جديدة للوصول إلى الكواكب التى تدور مع الأرض حول الشمس؛ فلقد غزا الفضاء وصنع المركبات التى تسبح فيه، كما أوجد وسائل التحكم فى مسارها، بل استطاع أن يزودها بالوسائل الألكترونية التى تتيح له التخاطب إرسالا واستقبالا سواء مع محركات المركبة أو مع ما بداخلها من أجهزة قياس. وما أعجب ما تحتويه هذه المركبات الفضائية من أجهزة قياس، بل ما أقدر الإنسان على إطلاقها ثم توجيه رحلتها وكذلك تلقى أخبارها .

رحلة فضائية الى كوكب الزهرة :

بدأت رحلة الفضاء هذه إلى كوكب الزهرة فى صيف هذا العام، وليست هذه الرحلة هى الأولى التى يرسلها الإنسان لاجتلاء غوامض الزهرة ، فلقد أرسل الاتحاد السوفيتى كما أرسلت الولايات المتحدة مجموعة ثمانية رحلات لإجراء قياسات مختلفة خاصة عن الغلاف الجوى الكثيف الذى يغلف كوكب الزهرة .

أما رحلة عام ١٩٧٨ فقد قامت بها الولايات المتحدة، وبدأت فعلا فى شهر يونيو عندما كان موقع الأرض مناسبا مع الزهرة .

والزهرة هى أقرب الكواكب إلى الأرض ولقد بقى كوكب الزهرة دائما رمزا للجمال؛ فهو ألمع الكواكب على الإطلاق ولايفوقه فى سطوعه الضوئى سوى القمر وهو كوكب أرضى، كما بقى كوكب الزهرة محلا للبحث

والاستقصاء ومدارا لإعجاب العلماء؛ نظرا لما يحيط به من الغموض فهو مغلف بطبقة كثيفة من السحب ولعلها هى مصدر سطوع الكوكب الضوئى، ولقد بذلت جهود كثيرة باستخدام أشعة الرادار كما أرسلت محطات فضائية لعمل جسات فى طبقات ذلك السحاب الكثيف .

ولقد دلت الأبحاث المتوالية على أن كوكب الزهرة عبارة عن غلاية كبرى متدرجة الحرارة تبدأ من على سطحه بمقدار ٤٩٠° وهى درجة حرارة تكفى لصهر القصدير أو الرصاص . وبالإضافة إلى ذلك فإن ثقل الضغط الجوى على السطح يساوى مئة ضعط جوى أو يتساوى مع ضغط ماء المحيط عند عمق مقداره ٩٠٠ متر .

وتجعل مثل هذه الظروف المناخية الإقامة فوق كوكب الزهرة مستحيلة بالنسبة للإنسان أو حتى بالنسبة لمختلف الكائنات . ويتكون غلاف الزهرة الجوى من طبقة كثيفة من ثانى أوكسيد الكربون كما تصل قوة الريح إلى درجة عظيمة تجعلها قادرة على زحزحة الصخور من مكانها تماما كما يفعل تيار الماء على سطح الأرض ، وتنعدم الفصول الجوية على سطح كوكب الزهرة وتأخذ حركة الرياح على سطحه شكلا مماثلا لحركتها على سطح الأرض فتهب من عند خط استواء الكوكب مندفعة فوق سطوحه، إلا أنها تختلف فى تكوينها عن الرياح الأرضية والتى تحمل ماء وثلجا فهى تحمل غالبا بحسب ماتدله الأحوال سائلا آخر هو حامض الكبريتيك المحروق.

• ويدور كوكب الزهرة فى اتجاه عكس اتجاه دوارن الأرض ، وأغلب الكواكب الأخرى ، كما أنه يتميز أيضا بسرعة دوارن بطيئة جدا فهو يدور دورة واحدة كلما دارت الأرض ٧٤٣ دورة ، ويقطع كوكب الزهـرة دورته حول الشمس فى أقل من هذه المدة فهو يقطع فلكه حول الشمس فى حوالى ٢٢٥ يوما .

ويكون شروق الشمس من المغرب فوق كوكب الزهرة ، وذلك بدلا من شروقها من المشرق على سطح الأرض وتلك علامة القيامة فكأن قيامة كوكب الزهرة قد بدأت منذ أمد يعلمه الله .

وهكذا يستوفى كوكب الزهرة كافة صفات جهنم الخارقة ، كمايستعرض شرطا من شروط زمان الحياة الآخرة ، فولدت جهنم على سطحه .

ولقد آن الأوان بعد أن بدأ غزو الفضاء أن يرتفع الحجاب عن كوكب الزهرة ، ويتضمن برنامج اكتشاف الزهرة ، الذى بدأته الولايات المتحدة منذ صيف عام ١٩٧٨م مركبتين فضائيتين فى برنامج واحد اسمه الرائد .

برنامج رحلة الفضاء سنة ١٩٧٨ :

ويحتوى برنامج الرائد على بعثتين الأولى ORSEIT أو الكوكب المدارى ، ويستغرق فى رحـلة انتقـاله خـلال

سلسلة من المناورات بعد إطلاقه من فوق سطح الأرض الفترة فى مابين يونيو ١٩٧٨ ، و ٤ ديسمبر سنة ١٩٧٨ ومهمة الكوكب المدارى أن يجرى مختلف القياسات الفضائية سواء عن الإشعاعات فى مختلف الأطياف المعروفة ، درجات الحرارة ، أو الضغط . أو الأتربة .

وأما البعثة الثانية التى تقع ضمن برنامج الرائد فهى عبارة عن مركبة فضائية أخرى تحمل أربعة كواكب صغيرة ، كل منها عبارة عن معمل يقوم بمهمة جس الغلاف المحيط بكوكب الزهرة عن طريق أخذ عينات منه ثم إجراء الفحوص والتحليلات واستنتاج نوعية التكوين وخواصه الطبيعية ، وإرسال هذه النتائج إلى سطح الأرض أثناء اختراقه للغلاف الجوى .

ويبلغ مجموع أجهزة القياس – التى سوف تحمل إلى كوكب الزهرة – ٣٠ جهازا ترسل لاسلكيا قياساتها إلى ١١٥ باحث أساسى ومعاونيه على سطح الأرض .

ويقوم القمر المدارى خلال رحلته إلى كوكب الزهرة بإجراء قياسات عن المجالات والأتربة التى تقع بين كواكب الزهرة والأتربة التى تقع بين الكواكب ، إلا أن مهمته الأصلية تبدأ فى ٤ من ديسمبر عندما تنخفض سرعته ثم يسبح فى مدار بيضاوى حول كوكب الزهرة ، وسوف يستغرق قطع الدورة الواحدة حول المدار مدة ٢٤ ساعة ، ومهمة القمر المدارى هى تحديد التكوين الحقيقى لكل من الغلاف الجوى والغلاف الأثيرى لكوكب الزهرة ، كما يقوم بدراسة التفاعل بين الريح الشمسية الغلاف الأثيرى أو المجال المغناطيسى الضعيف المحيط بكوكب الزهرة .

وسوف يراقب القمر المدارى كل التغييرات التى تطرأ على مختلف الأغلفة والمجالات .

ولقد زود القمر المدارى بأجهزة تصوير بالأشعة الضوئية والأشعة فوق البنفسجية حتى يستطيع أن يمدنا بصورة مرئية للسحب المغلفة لكوكب الزهرة مثل ما يتم بالنسبة للأرض .

ويستخدم القمر المدارى أيضا جهاز رادار ، يمكن بواسطة أشعته اختراق الغلاف الجوى للكوكب ورسم خرائط لسطح كوكب الزهرة .

وكما سبق أن أوضحنا فإن الرحلة التاريخية إلى كوكب الزهرة تتضمن كوكباً ثانياً هو فى الحقيقة نوع من « الأوتوبيس » ، إذ أنه يحمل فى داخله أربعة معامل فحص فضائية وقد تم إطلاق هذا « الأوتوبيس » الفضائى فى خلال شهر أغسطس من عام ١٩٧٨ . وقد تحدد ميعاد ملاقاته لكوكب الزهرة فى نحو ٩ من ديسمبر أى بعد وصول الكوكب الرائد بأربعة أيام ورغم أنه قد أطلق متأخراً بنحو شهرين إلا أنه سيصل إلى الزهرة معه فى نفس الوقت تقريباً إذ أنه قد تم تخطيط طريقه إلى الزهرة بما يؤدى إلى اختصار رحلة السفر إلى هذا الحد .

وعند وصول مركبة «الأوتوبيس» إلى الغلاف الجوى للزهرة تحدث وقائع محددة لانطلاق راكبى «الأتوبيس» من المعامل وانفصالهم عنه، كما تنتشر هذه المعامل الفضائية الأربع حول كوكب الزهرة فى مواقع محددة.

ولإدراك مدى مايقتضيه انغماس هذه المعامل فى الغلاف الجوى للزهرة، نقول إن الانطلاق من «الأتوبيس» يتم بسرعة عالية بحيث يكون دخول هذه المعامل فى الغلاف الجوى بسرعة تصل إلى ٤١٦٠٠ كيلو متر فى الساعة، وبذلك يكون احتكاكها مع الغلاف الجوى رهيبا يؤدى إلى تعويق هذا الاندفاع، كما يتم انفتاح «باراشوت» يبقى المعمل الفضائى معلقاً به، لإجراء قياسات بعضها يتطلب أخذ عينات من الغلاف الجوى وبعضها يكتفى بالتعامل مع الإشعاعات المختلفة. وملخص هذه التجارب هو قياس تركيب الغلاف الجوى للزهرة وتكوينه ورصد السحب وسرعة الرياح على ارتفاع ٧٠ كيلو متر من سطح الكوكب وبعد مضى ١٨ دقيقة ينفصل الباراشوت ويأخذ المعمل الفضائى فى السقوط نحو سطح الكوكب بسرعة بطيئة تبلغ ٣٢ كيلو متراً فى الساعة فقط، وعندما يرتطم المعمل الفضائى بأرض الكوكب فالأغلب أن يتم تهشيمه، وإذا بقى سالما فبداخله أجهزة لقياس ذبذبة التصادم مع الكوكب وإبلاغها إلى مراكز مراقبة الرحلة على سطح الكرة الأرضية.

ما هى النتائج العملية للرحلة الفضائية الى كوكب الزهرة :

إن نتائج مثل هذه الرحلة بالغة الأهمية من الناحية العملية، وهى تضيف رصيدا من النتائج التى تساعد على التنبؤ بالأحوال الجوية على سطح الأرض، فإن كوكب الزهرة يمثل نموذجاً فريداً لمعرفة الميزان الحرارى لأى كوكب بصفة عامة.

ونعنى بالميزان الحرارى الارتباط بين ما يكتسبه الغلاف الجوى من حرارة الشمس وما يصل منه إلى جسم الكوكب بعد درجة من التوازن الحرارى تحكمها ظروف الكوكب.

وبرغم أن كوكب الزهرة يخلو من المحيطات ومن النباتات ومن الحياة البشرية إلا أن التجربة سوف تعطى شكل العلاقة الحرارية لنموذج بسيط، كمرحلة أولى يبدأ بعدها العلماء فى تصويبها للتطبيق على ظروف أكثر تعقيداً كما هو الحال فى كرتنا الأرضية.

كوكب الزهرة فى علم أهل الله :

وهكذا يصل الإنسان بفضل العقل والفكر — هبة الله الكبرى لبنى الإنسان — إلى معرفة كانت غائبة أو كانت غيبا بالنسبة لأجيال البشر من مؤمنين وغيرهم، والذين نظروا إلى كوكب الزهرة نظرة إعجاب واستحسان برغم أنه فى حقيقة الامر أتون من النار والمواد الحارقة. ولكن العجب كل العجب أن يصل العلماء من أهل الله الذين انقشعت عن بصائرهم ظلم الحجب التى تغشى القلوب المتقلبة

فى متاع الدنيا ، أقول العجب كل العجب أن نجد فى تراثنا الإسلامى مثل : « الفتوحات المكية فى الباب الرابع والستين فى معرفة القدامة ومنازلها وكيفية البعث مايأتى :

« اعلم أخى أن الناس إذا قاموا من على ماسنورده إن شاء الله وأراد الله ، أن يبدل الأرض ، وتمد الأرض بإذن الله ، ويكون الجو دون الظلمة ، فيكون الخلق عليه عندما يبدل الله الأرض كيف يشاء إما بالصورة وإما بارض أخرى ، مايتم عليها تسمى بالساهرة فيمدها سبحانه بالأديم ، يقول تعالى : «وإذا الأرض مدت» ، ويزيد فى سعتها ماشاء أضعاف ماكانت ، من أحد وعشرين جزءا إلى تسعة وتسعين جزءا حتى لاترى فيها عوجا ولا أمتا ، ثم إنه سبحانه يقبض السماء إليه فيطويها بيمينه كطى السجل للكتب ، ثم يرميها على الأرض التى مدها واهية وهو قوله ، «وانشقت السماء فهى يومئذ واهية» ويرد الخلق إلى الأرض التى مدها فيقفون منتظرين مايصنع الله بهم وإذا وهت السماء نزلت ملائكتها على أرجائها ، فيرى أهل الأرض خلقاً عظيما أضعاف ماهم عليه عددا ... فتصطف الملائكة صفا مستديرا على نواحى الأرض ، محيطين بالعالم الإنس والجن ، وهؤلاء هم عمار السماء الدنيا ، ثم ينزل أهل السماء الثانية بعد مايقبضها الله ويرى لكوكبها فى النار وهو المسمى كاتبا وهم أكثر عددا من السماء الأولى فيفعلون فعل الملائكة الأولين من الملائكة يصطفون خلفهم صفا ثانيا مستديرا ، ثم ينزل أهل السماء الثالثة ويرمى بكوكبها المسمي الزهرة فى النار ويقبضها الله بيمينه ... فلا زال الأمر هكذا سماء بعد سماء حتى ينزل أهل السماء السابعة» .

وهكذا يتبين من فتوحات الشيخ الكبير محى الدين بن عربى رضى الله عنه أن كواكب السموات السبع هى فى نهايتها جزء من النار وهذا نوع من الغيب ، ولكنه من كشف الله للشيخ الكبير . وإنى لأعجب من أن يلتقى العلم الحديث العصرى والذى بلغ قمته فى غزو الفضاء مع العلم الذى يعطيه الله لأوليائه الصالحين رحمة من ربك .

إن كوكب الزهرة السماء الثالثة وهى التى تلى سماء الشمس يختلف عن كوكب الأرض التى يسكنها الإنسان؛ فالأرض لها دروع تقيها حرارة الرياح الشمسية ، وهذه الدروع تتمثل أساسا فى المجال المغناطيسى والأثيرى الذى ينتشر بعيدا فى الفضاء حول سطح الأرض فيصد هذه الإشعاعات الشمسية التى لاتتكون فقط من إشعاعات حرارية بل وإشعاعات ذرية أيضا ويصد المجال المغناطيسى هذه الرياح المهلكة والتى هى رياح جهنم وتأمل فى قوله تعالى : «يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين »، وأنه لايفصل الإنسان عن رياح الشمس المهلكة ورياح جهنم العارفة سوى حجاب الرحمة الإلهية فى حياتنا الدنيا ، وهو فى قول علماء الفضاء حزام من المجال المغناطيسى .

وحول كوكب الزهرة — كوكب النار — لايوجد هذا الحزام المغناطيسى وبذلك تنفذ رياح

الشمس الحارقة فتحرق الغلاف الهوائى لكوكب الزهرة ، ويصبح مكونا من ثانى أكسيد الكربون بدلا من الأكسجين والآزوت وهى مكونات الغلاف الجوى لكوكب الأرض .

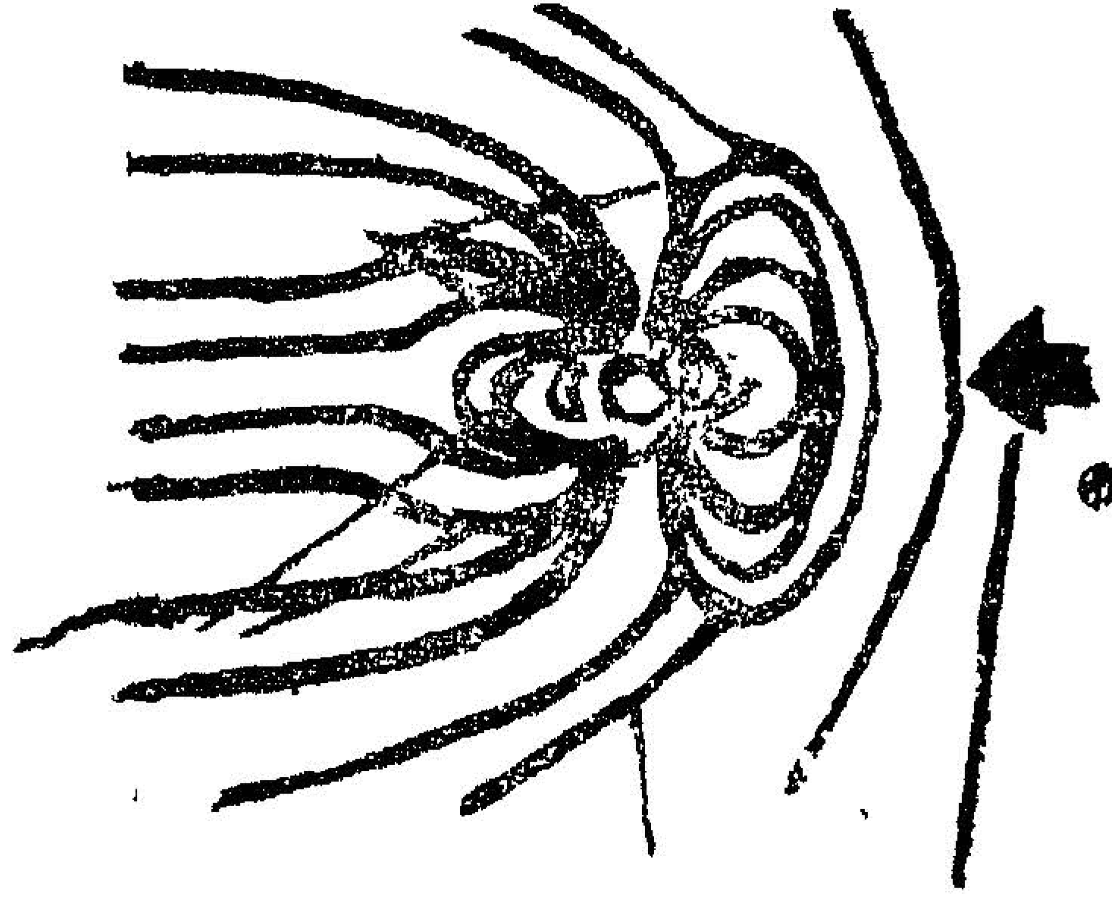
بل تتكون سحب من حامض الكبرتيك فى غلاف كوكب الزهرة بدلا من الماء والثلج فى الغلاف الجوى لكوكب الأرض .

وهكذا يمثل كوكب الزهرة حقيقة ماثلة لجهنم تحت التكوين تصل فيه درجة الحرارة فى وقتنا الحالى إلى درجة ٥٠٠ سنتيجريد ويملأ فضاؤه دخان ثانى أكسيد الكربون وهى البيئة التى تحرق زبائن جهنم أعاذنا الله.

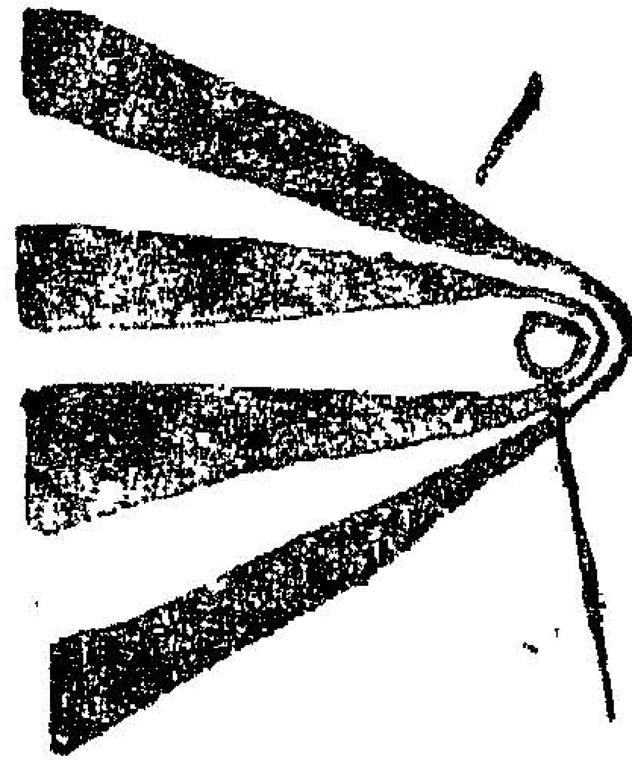
وما أصدق قوله تعالى فيهم : «يُصهر به ما فى بطونهم والجلود » والتجربة الفضائية الجارية هى لتحقيق نظرية جديدة تعطى الأبعاد ،

إختراق الريح الشمسية

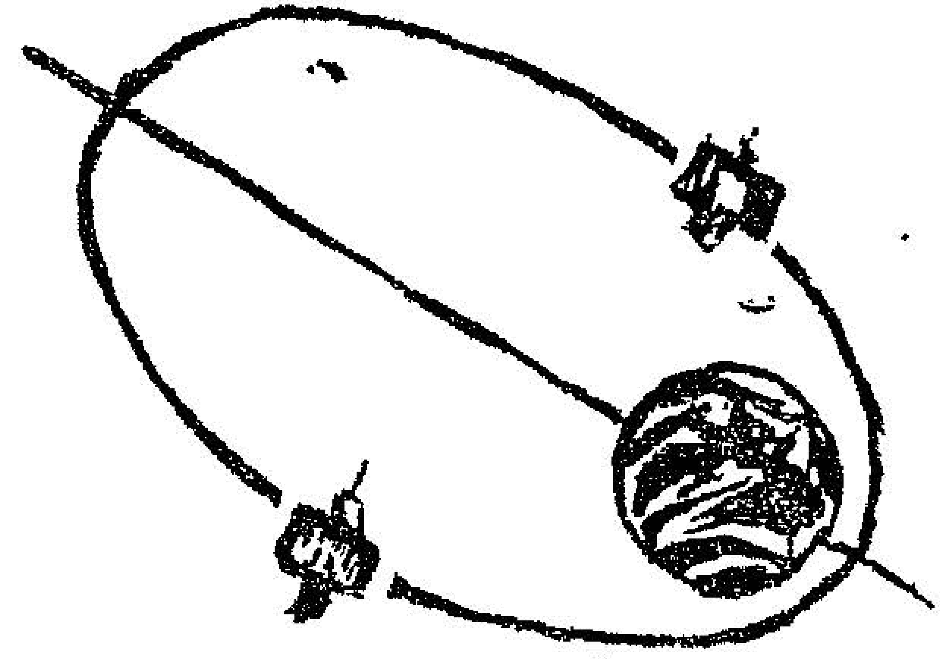
يعمل المجال المغناطيسي القوي المغلف للكرة الأرضية على صد الريح الشمسية المكونة من الغازات والمواد المتأينة والمشعة



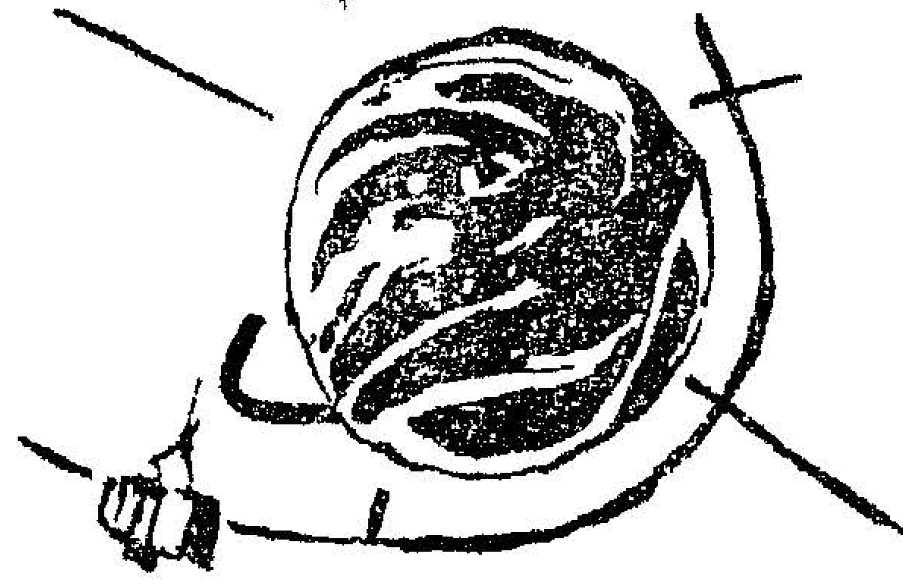
تخترق الريح الشمسية الكهربية جو كوكب الزهرة وذلك لعدم وجود الدرع المغناطيسي الواقي



المركبة المدارية

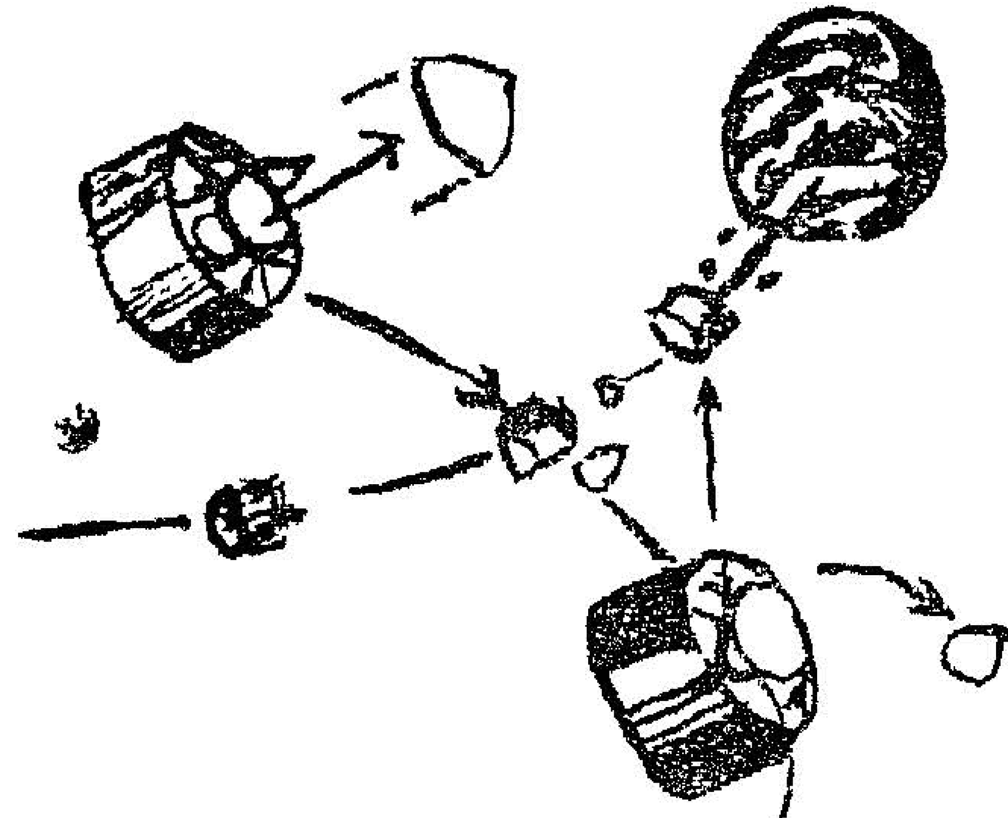


بتاريخ ٤ ديسمبر يبدأ أحد المحركات في تقليل سرعة انطلاق المركبة المدارية حتى تأخذ وضعها في مدار بيضاوي تقطعه مرة خلال فترة زمنية طولها ٢٤ ساعة

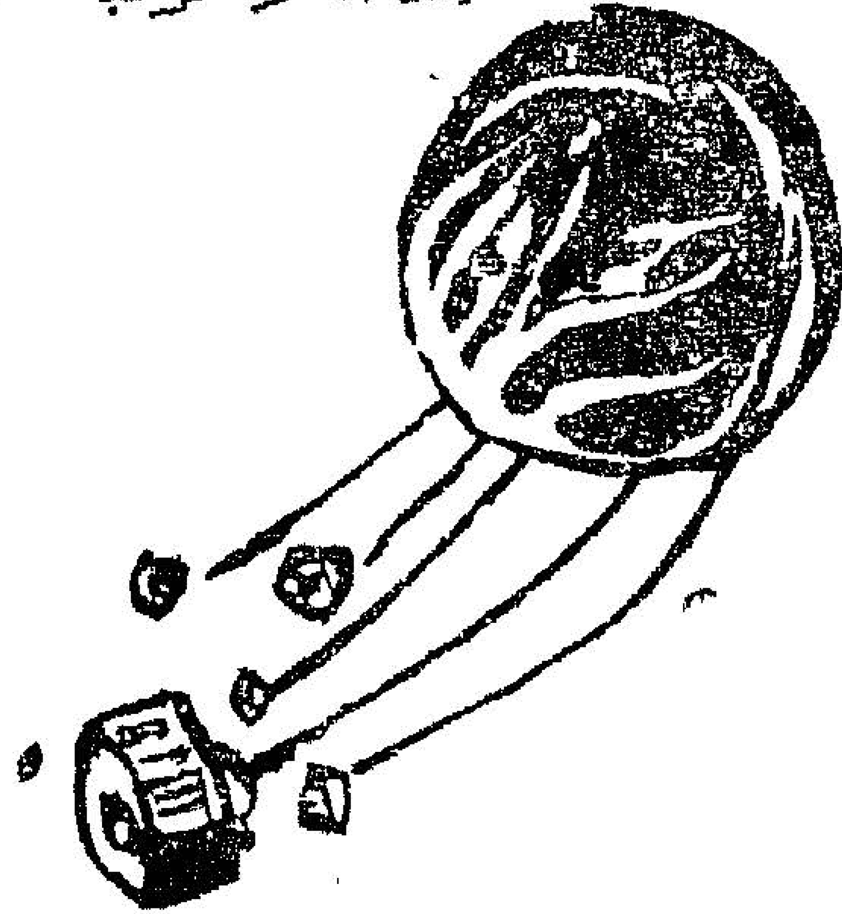


تعمل أجهزة القياسات عند نقطة المدار الأقرب إلى الزهرة ويكون بعدها عن سطح الكوكب ٢٠٠ كيلومتر

المركبة الفضائية التي تحمل معامل الحس



قبل أن تصل مركبة المجسات إلى كوكب الزهرة بأربعة وعشرين يوما ينطلق أحد المجسات وهو الأكبر ويتبعه انطلاق المجسات الأصغر بأربعة أيام ثم يبدأ انغماس المجسات والمركبة على التوالي



والقواعد والمعاملات التي يمكن بها استقراء الاتزان الحرارى الذى ربط بين الشمس كمصدر للهب والحرارة ومختلف الإشعاعات والغلاف الجوى لأى كوكب ، كمخزن يمتص طاقة الشمس من اللهب والحرارة ومختلف الإشعاعات ، ثم يمد بها سطح الكوكب الصلب فترتفع حرارته وتحدث فيه مختلف التكوينات من مواد ومعادن أو كائنات .

إن مايصدق من نظريات للاتزان الحرارى بين الشمس كمصدر وكوكب الزهرة وغلافه الجوى يصدق أيضا على الأرض وغلافها الجوى ، وإن اختلفت طبيعة الوجود الأرضى عن الوجود فوق سطح كوكب الزهرة ذلك الوجود الذى سوف يزاح عنه الستار بعد إتمام برنامج الكوكب الرائد .

صلاح عامر

عبد الله بن عبد الملك بن مروان
فاتح حصن سنان، وطرندة، والمصيصة، من بلاد الروم، وأمير مصر

للواء الركن : محمود شيت خطاب

نسبه وأيامه الأولى :

هو عبد الله بن عبد الملك بن مروان ابن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف بن قصيّ القرشي الأموي[٤] أبوه : عبد الملك بن مروان بن الحكم أمير المؤمنين وأمه : من أمهات الأولاد [٥]، ويريدون بتعبير أمهات الأولاد : الجواري والإماء اللواتي ولدت لمواليهن ذكرانا .

نشأ عبد الله وترعرع في ظروف ملائمة كل الملائمة لاستكمال مزاياه الشخصية ، فأبوه خليفة من أبرز خلفاء بني أمية إن لم يكن أبرزهم كفاية وعلما وحزما وإدارة وسياسة وقيادة ، وظروفه الإدارية والعسكرية لاتخلو من مشاكل صعبة تعين على التدريب النظري والتدريب العملي .

وكان التعليم النظري لاستيعاب العلوم المتيسرة السائدة حينذاك ميسورا لهم ولغيرهم من الناس ، إذ كان العلماء والشيوخ وقتذاك يعتبرون التعليم من أجل العبادات .

والفرق الوحيد بين أبناء الخلفاء وغيرهم من

---

(١) حصن سنان : حصن في بلاد الروم ، انظر معجم البلدان (٣ - ٢٨٥) - (٥ - ١٤١) يرد ذكر لموقعه في المصادر الجغرافية القديمة المتيسرة لدينا ، ومن دراسة اتجاه فتوح عبد الله بن عبد الملك نجد أن الحصن في منطقة (ملطية) .

(٢) طرندة : مدينة تبعد عن (ملطية) ثلاث مراحل داخلة في بلاد الروم ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦-٤٦) .

(٣) المصيصة : مدينة على شاطىء نهر (جيحان) من ثغور الشام ، بين (أنطاكية) وبلاد الروم وتقارب (طرسوس) ، وكانت ذات سور وخمسة أبواب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٨٠،٨١) والمسالك والممالك (٤٧) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٦٤) .

(٤) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٥-٣٢٣) وتهذيب الأسماء واللغات (١-٢٠٩) جمهرة أنساب العرب (٨٩) وفوات الوفيات (٢ - ٣١) وقادة فتح المغرب العربي (٢ - ٢٠٩) .

(٥) الطبري (٥ - ٤٢٠) وابن الأثير (٤ - ٥١٩) والنجوم الزاهرة (١ - ٢١١) .

الناس ، هو أن أبناء الخلفاء يتلقون العلوم على جهابذة العلماء والشيوخ ، لذلك نشأ فى عاصمة الخلافة (دمشق) ليتعلم علوم القرآن الكريم ويروى الحديث النبوى الشريف ويدرس التاريخ والسير وأيام العرب قبل الإسلام وبعده . ويتقن علوم اللغة صرفا ونحوا وبلاغة وعروضا، ويتلقى فنون الأدب الرفيع شعرا ونثرا ، ويتعلم الحساب والهندسة وتقويم البلدان .

كما أن التدريب العملى بالممارسة كان ميسورا فى الأمور السياسية فهو إلى جانب الخليفة المرجع الأعلى لتصريف تلك الأمور ، كما أنه إلى جانب الحاكمين من بنى أمية يرى ويسمع كيف تعطى القرارات الخطيرة وكيف تصرف أمور الدولة .

كما تدرب عمليا على الفنون العسكرية : ركوب الخيل ، والرمى بالسهام ، والضرب بالسيوف والطعن بالرماح ، والسباحة ، وتحمل المشاق سيرا على الأقدام إلى مسافات طويلة فى أيام متعاقبة وفى ظروف جوية قاسية ، والحرمان من الطعام والشراب مدة مناسبة وتناول الطعام الخشن والماء العكر وهو مانطلق عليه فى التعابير العسكرية الحديثة : التدريب العنيف .

ولكن هذا التدريب العسكرى العملى لايكفى ، لأنه تدريب فردى ، فلابد من تلقى التدريب الإجمالى ، وهو ممارسة الجهاد جنديا وقائدا فى ساحة القتال ، ليطبق ماتعلمه من فنون عملية فردا ، على القتال تطبيقا عمليا ، وهذا مانطلق عليه اليوم : تطعيم المعركة ، إذ لا فائدة من التدريب الفردى إلا إذ طبق عمليا فى التدريب الإجمالى وأفضل أنواع التدريب الإجمالى هو القتال الفعلى .

وكما تدرب على الفنون العسكرية العملية تدرب على الفنون العسكرية النظرية : أساليب القتال ، والقضايا التعبوية ، واختيار المعسكرات ، وطرق الدفاع والهجوم والانسحاب والمطاردة ، ومعالجة الأمور العسكرية فى الميدان ، والقضايا الإدارية .

وقد طبق الفنون العسكرية النظرية عمليا فى ميدان الجهاد ، وبذلك جمع التدريب الفنى النظرى والعملى ، ووضع معلوماته العسكرية فى حيز التنفيذ .

ولعل مما زاد فى فرص تعليم وتدريب عبد الله ، أنه تلقى علومه وتدريباته فى كنف والده أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، بعد استقرار ملكه فى الدولة الإسلامية واستعادة (الوحدة) الشاملة لهذه الدولة سنة ثلاث وسبعين هجرية[1] (٦٩٢ م) ، إذ قضى على الخوارج فى (البحرين) ، وأعاد بناء (الكعبة) المشرفة بمكة المكرمة على ما كانت عليه قبل ثورة عبد الله بن الزبير العارمة ، فانطلقت الجيوش الإسلامية للفتح وإعادة المناطق المفتوحة إلى

---

(١) انظر تفاصيل استعادة الوحدة الشاملة فى كتابنا : قادة فتح المغرب العربى (٢ - ١٠٩ - ١١٧)

الدولة والتي انتفضت في بلاد الروم وإيران وفارس والسند وإفريقية ، وكان ثمرات استعادة (الوحدة) الشاملة أن أعادت الدولة الإسلامية بقيادة عبد الملك بن مروان — بعد ماعاناه من فتن داخلية واضطرابات وحروب أهلية ومشاكل واعتداءات خارجية — كامل سيطرتها على مافتحه الخلفاء الأولون قبل عبد الملك ، وضم إلى الدولة فتوحا جديدة . بعد ما كان عبد الملك يدفع الإتاوة لإمبراطور (القسطنطينية) منذ توليه الخلافة إلى استعادة (الوحدة) الشاملة ، وكان يدفعها للروم أيام الفتن والحروب الداخلية والاضطرابات والمشاكل الأهلية[1] .

وقد تربى عبد الله في كنف أبيه بعد استعادة (الوحدة) الشاملة للدولة الإسلامية في جو كله استقرار وأمن ودعة وبناء علمي وإداري وسياسي وعسكري ، في بداية العصر الذهبي لحكم بني أمية في (الشام) برعاية والده الحصيف العالم الأديب القائد الفاتح الداهية المتمرس ، فأفاد عبد الله من رعاية والده في وقت تفرغ فيه عبد الملك لرعاية شئونه الخاصة أكثر من السابق — يوم كان في دوامة الاضطرابات والقلاقل والمشاكل والفتن والحروب ، وبقي يحظى بالرعاية الأبوية والعائلية الكاملة قائدا وإداريا ، حتى توفى عبد الملك سنة ست وثمانين الهجرية[2] (٧٠٥ م) ، فأرسى عبد الملك أسس شخصية ابنه عبد الله على أسس رصينة ، تلك الأسس التي كانت عبارة عن : الدين والتفقه فيه والعربية وإتقان علومها ، والسياسة وممارسة قضاياها ، والإدارة وحل مشاكلها ، والعسكرية والتدريب على متطلباتها ، وبذلك أصبح عبد الله قائدا متميزا وإداريا محنكا .

لقد تهيأ لعبد الله العلم المكتسب والتجربة العملية ، فآتت ثمراتها في مناصبه التي تولاها قائدا وإداريا .

في توطيد الأمن الداخلي

كان من أهم واجبات الحجاج بن يوسف الثقفي بعد أن تولى (العراقين) : العراق والمشرق سنة خمس وسبعين هجرية[3] (٦٩٤ م) ، هو : القضاء على الفتن الداخلية في العراق وفي بلاد المشرق الإسلامي المفتوحة واستعادة البلاد المفتوحة التي انتقضت على الدولة الإسلامية ، وفتح بلاد جديدة .

ومضى الحجاج ينفذ هذه الواجبات بحزم وعزم وإقدام ، وكان (رتبيل) مصالحا يؤدي الخراج وربما امتنع منه[4]

(١) ابن خلدون (٣ — ١٥٢) ، وانظر التفاصيل في كتابنا : قادة فتح المغرب العربي (٢ — ١١٣ — ١١٤)
(٢) تاريخ بغداد (١٠ — ٢٩١) وتاريخ الخميس (٣ — ٣١١) والعبر (١ — ١٠٢) وشذرات الذهب (١ — ٩٧) والمعارف (٣٥٧) .
(٣) العبر (١ — ٨٥) وشذرات الذهب (١ — ٨٣)
(٤) ابن الأثير (٤ — ٤٥٠) .

فأراد الحجاج أن يصفى الحساب جذريا بين الدولة وبين (رتبيل) ، فأمر وإلى (سجستان) [1] سنة تسع وسبعين هجرية[2] (٦٥٨م) أن يفاخره ، ولكنه اندحر أمام قواته متكبدا خسائر فادحة فى الأرواح والأموال [3] .

ولم يكن الحجاج ليسكت على اندحار قوة من قواته فى إحدى الجبهات ، لذلك عزم على أن يلقن (رتبيل) فى عقر داره درسا قاسيا لا ينساه أبدا ، فاستاذن عبد الملك بن مروان فى تسيير الجيوش إلى (رتبيل) . فلما أذن له بذلك ، عكف الحجاج على تجهيز الجيش . فجعل على أهل (الكوفة) عشرين ألفا . وعلى أهل (البصرة) عشرين ألفا ، وجد فى ذلك جدا لاهوادة فيه ، وأعطى الناس أعطياتهم كاملة ، وأنفق فيهم ألفى ألف سوى أعطياتهم ، وأنجدهم بالخيل الرائقة والسلاح الكامل ، وأعطى كل رجل يوصف بشجاعة وغناء ، وأمّر على الجيش بعد الفراغ من إعداده عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث [4] .

وسار عبد الرحمن على رأس جيشه ، وأحرز نصرا مؤزرا على (رتبيل) ، فكتب إلى الحجاج بما فتح الله عليه وبما يريد أن يعمل [5] .

وهناك روايات أخرى فى إرسال عبد الرحمن ، لا مكان لها لأنها خارجة عن نطاق الحديث عن سيرة عبد الله بن عبد الملك .

وكان عبد الرحمن يرى أن يتركوا التوغل فى بلاد (رتبيل) حتى يعرفوا طريقها ويجبوا خراجها ، وكتب بمجمل خطته هذه إلى الحجاج .

ولكن الحجاج رفض خطة عبد الرحمن وأمر عبد الرحمن بالوغول فى أرض (رتبيل) وهدم حصونهم وقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم .

ودعا عبد الرحمن الناس وقال لهم : أيها الناس « إنى لكم ناصح ولصلاحكم محب ولكم فى كل مايحيط بكم نفعه ناظر ، وقد كان رأيى فيما بينى وبين عدوى

---

(١) سجستان : اسم منطقة واسعة بينها وبين (هراة) عشرة أيام أو ثمانون فرسخاً ، وهى جنوبى (هراة) ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٥ - ٢٧) ،وانظر حدودها فى المسالك والممالك للاصطخرى (١٣٨) وفيه : أن (سجستان) بفتح السين ، وانظر : آثار البلاد وأخبار العباد (٢٠١) .

(٢) الطبرى (٦ - ٣٢٢) وابن الأثير (٤ - ٤٥٠) .

(٣) انظر التفاصيل فى الطبرى (٦ - ٣٢٢ - ٣٢٤) وابن الأثير (٤ - ٤٥٠ - ٤٥١) .

(٤) هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس بن معد يكرب الكندى ، انظر جمهرة أنساب العرب (٤٢٥) ، وهو من أبطال العرب وأشرافهم وقادتهم وولاتهم .

(٥) انظر التفاصيل فى الطبرى (٦ - ٣٢٦ - ٣٢٩) وابن الأثير (٤ - ٤٥٤ - ٤٥٦) .

بما رضيه ذوو أحلامكم وأولو التجربة منكم .
وكتبت بذلك إلى أميركم الحجاج ، فأتاني كتابه يعجزني ويضعفني ويأمرني بتعجيل الولوغ بكم إلى أرض العدو ، وهي البلاد التي هلك فيها إخوانكم بالأمس ، وإنما أنا رجل منكم أمضي إذا مضيتم وآبى إذا أبيتم » .

وثار إليه الناس وقالوا : بل نأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع !!

ووثب الناس إلى عبد الرحمن فبايعوه على خلع الحجاج ونفيه من أرض العراق ، وعلى النصرة له ، ولم يذكر عبد الملك .

وعاد عبد الرحمن إلى العراق بمن معه ، فلما بلغ (فارس) (1) اجتمع الناس بعضهم ببعض وقالوا : إذا خلعنا الحجاج عامل عبد الملك ، فقد خلعنا عبد الملك ؛

واجتمعوا إلى عبد الرحمن وخلعوا عبد الملك إلا قليلا منهم ، وبايعوا عبدالرحمن وكانت بيعته : نبايع على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعلى جهاد أهل الضلالة وخلعهم وجهاد المحلين .

ولما بلغ الحجاج خلعه كتب إلى عبدالملك بخبر عبد الرحمن ويسأله أن يعجل بعثة الجنود إليه ، ثم سار الحجاج حتى نزل (البصرة) .

وجهز عبد الملك الجند إلى الحجاج ، فسار الحجاج من (البصرة) إلى تستر (2) وقدم بين يديه مقدمة إلى (دجيل) (3) فلقي عنده خيلا لعبد الرحمن ، فانهزم أصحاب الحجاج بعد قتال شديد ، وكان ذلك يوم الأضحى سنة إحدى وثمانين هجرية (٧٠٠م) .

فلما أتى خبر الهزيمة الحجاج ، رجع إلى (البصرة) ، ثم أقبل حتى نزل (الزاوية) (4) وترك (البصرة) لأهل العراق ، وفرق في الناس مئة وخمسين ألف درهم .

---

(١) فارس : ولاية واسعة وإقليم فسيح ، أول حدودها من جهة العراق (أرجان) ـ من جهة كرمان (السيرجان) ، ومن جهة ساحل بحر الهند (سيراف) ، ومن جهة السند (مكران) وقصبتها (شيراز) ، وفي هذه الولاية من أمهات المدن المشهورة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦ - ٣٢٤) وتقويم البلدان (٣٢١ - ٣٣١) والمسالك والممالك للاصطخري (٦٧ - ٨٤) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (٤١ ، ٤٢) ومختصر كتاب البلدان (١٩٥ - ٢٠٥) والاعلاق النفيسة(١٠٦) وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (٤٢٠ - ٤٥٩) وكتاب صورة الأرض (٢٧٣ - ٣٣٤) .

(٢) تستر : أعظم مدينة بخوزستان ، وهي تعريب شوشتر ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢ - ٣٨٦) المسالك والممالك للاصطخري (٦٤) وآثار البلاد وأخبار العباد (١٧٠) .

(٣) دجيل : نهر بالأهواز ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤ - ٤١ - ٤٢) .

(٤) الزاوية : موضع قرب البصرة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤ - ٣٧١) .

وأقبل عبد الرحمن حتى دخل (البصرة) فبايعه جميع أهلها : قراؤها وكهولها على قتال الحجاج ومن معه من أهل الشام.[1]

وخسر عبد الرحمن معركة (الزاوية) فقصد (الكوفة) ، واستقر بها ، فاجتمع إليه الناس ، وقصده أهل البصرة .

وسار الحجاج من (البصرة) إلى (الكوفة) لقتال عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فنزل (ديرقره) [2] ، وخرج عبد الرحمن من (الكوفة) ،فنزل (دير الجماجم)[3].

وتفاقم أمر عبد الرحمن واستشرى خطره ، فقال عبد الملك بن مروان وأهل (الشام) : إن كان يرضى أهل العراق نزع الحجاج عنهم نزعناه، فإن عزله أيسر من حربهم ، ونحقن بذلك الدماء ، فبعث عبد الملك ابنه عبد الله وأخاه محمد بن مروان بن الحكم ، وكان محمد بأرض (الموصل) ، إلى الحجاج فى جند كثيف ، وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق عزل الحجاج وأن يجريا عليهم أعطياتهم كما تجرى على أهل (الشام) ، وأن ينزل عبد الرحمن بن محمد أى بلد شاء من بلد العراق ، فإذا نزله كان واليا عليه مادام حيا وعبد الملك خليفة ، فإن أجاب أهل العراق إلى ذلك عزلا الحجاج عنها وصار محمد بن مروان أمير العراق ، وإن أبى أهل العراق قبول ذلك ، فالحجاج أمير الجماعة ووالى القتال ، ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك فى طاعته .

وحاول الحجاج أن يعيد عبد الملك ابن مروان النظر فى أمر عزله ، فأبى عبد الملك إلا عرض عزله على أهل العراق .

وخرج عبد الله بن عبد الملك إلى جموع أهل العراق وعلى رأسهم عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث فقال : « ياأهل العراق أنا ابن أمير المؤمنين ، وهو يعطيكم كذا وكذا .. »

وخرج محمد بن مروان فقال : « أنا رسول أمير المؤمنين ، وهو يعرض عليكم كذا وكذا .. »

فقال أهل العراق : نرجع العشية .

واجتمع أهل العراق عند ابن الأشعث فقال لهم : قد أعطيتم أمرا ، انتهازكم اليوم إياه فرصة،وأنكم اليوم على النصف، فإن كانوا اعتدوا عليكم يوم (الزاوية) ، فأنتم تعتدون عليهم بيوم (تستر) ، فاقبلوا

---

(١) انظر التفاصيل فى الطبرى (٦ - ٣٣٤ - ٣٤١) وابن الأثير (٤ - ٤٦١ - ٤٦٦)

(٢) ديرقرة : دير بازاء الجماجم ، وهو ملاصق لطرف البر ، ودير الجماجم مما يلى الكوفة ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٤ - ١٦٢) .

(٣) دير الجماجم : دير بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها ، على طرف البر للسالك إلى البصرة ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٤ - ١٣١ - ١٣٢) .

ما عرضوا عليكم وأنتم أعزاء أقوياء لقوم هم لكم هائبون وأنتم لهم منتقصون فوالله لازلتم عليهم جراء وعندهم أعزاء أبدا ما بقيتم .

ووثب الناس من كل جانب ، فقالوا : إن الله قد أهلكهم فأصبحوا فى الضنك والمجاعة والقلة والذلة ، ونحن ذوو العدد الكثير والسعر الرخيص والمادة القريبة ، لا والله لا نقبل !

وأعاد أهل العراق خلع عبد الملك ثانية فقال عبد الله بن عبد الملك ومحمد بن مروان للحجاج : «شأنك بعسكرك وجندك ، واعمل برأيك ، فإنا قد أمرنا أن نسمع لك ونطيع » فقال : «قد قلت إنه لايراد بهذا الأمر غيركم » فكانا يسلمان عليه بالأمر ويسلم عليهما بالأمرة أيضا .

وجعل كل من الحجاج وابن الأشعث قواته على تعبئة : ميمنة وميسرة ، والخيالة ، والرجالة ، والقلب ، وجعلا على كل تشكيل من تشكيلات القتال قائدا مسئولا ، وجعل ابن الأشعث على القراء – وهم علماء المسلمين وفقهاؤهم ومحدثوهم – قائدا .

وأخذ الطرفان يتزاحفان كل يوم ويقتتلان ، وأهل العراق تأتيهم موادهم التموينية من (الكوفة) وسوادها ، وهم فى خصب ، وأهل الشام فى ضنك شديد قد غلت عليهم الأسعار ، فقد عندهم اللحم كأنهم فى حصار .

وكان أشد الناس ثباتا واستبسالا القراء من أصحاب الأشعث ، وكانوا قد ألفوا كتيبة منهم هى القراء ، فعبأ الحجاج لكتيبة القراء ثلاث كتائب ، فحملوا على القراء ثلاث حملات : كل كتيبة تحمل حملة ، فلم يبرحـوا وصبروا ، وحملوا على كتائب الحجاج حتى أزالوها وفرقوها ، ثم تقدموا حتى واقعوا صفهم فأزالوه .

واستمر الاقتتال بين الإخوة مئة وثلاثة أيام ، فقد كان نزول عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث (دير الجماجم) لثلاث مضين من ربيع الأول ، وكانت الهزيمة لأربع عشرة مضين من جمادى الآخرة ، حيث انتصر الحجاج على ابن الأشعث بعد قتال مرير[1] .

وعاد محمد بن مروان إلى (الموصل) وعاد عبد الله بن عبد الملك إلى (الشام) ورجع الحجاج إلى (الكوفة) :

وأتى عبد الرحمن (البصرة) فاجتمع إليه من المنهزمين جمع كثير ، وبايعه خلق

(١) انظر التفاصيل فى الطبرى (٦ - ٣٤٢ - ٣٥٠) وابن الأثير (٤ - ٤٦٧ - ٤٧٢) ، وانظر ابن خلدون (٣ - ١١٠) والبدء والتاريخ (٦ - ٣٦) والتنبيه والاشراف (٢٧٢) .

كثير على الموت، فاجتمعوا بـ (مسكن) [1] ولكن قواته انهزمت أمام قوات الحجاج [2].

وبدأت مطاردة قوات الحجاج لفلول ابن الأشعث ، فقاتلت قوات ابن الأشعث فى انسحابها بمواضع كثيرة ، حتى وصل ابن الأشعث (رتبيل) [3] : وأخيرا مات أو قتل فى اختلاف كثير بالروايات فانتهت حروب داخلية طاحنة ، تكبد فيها الطرفان خسائر لا تعد ولا تحصى . [4]

وقضى ابن الأشعث نحبه سنة خمس وثمانين هجرية [5] (٧٠٤م) .

وكانت عودة عبد الله بن عبد الملك إلى (الشام) بعد انتصار الحجاج على ابن الأشعث فى معركة (دير الجماجم) الحاسمة سنة ثلاث وثمانين الهجرية (٧٠٢ م) وكان قد قدم إلى العراق سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١ م) .

ولست بصدد البحث عن أسباب ثورة ابن الأشعث ، ولا بصدد الحديث فى أسباب تهافت أهل العراق على الإقبال عليها والمشاركة فيها ، ولا بصدد تعداد نتائجها القريبة والبعيدة وأثرها فى الدولة ، ولابصدد إبراز أسباب انتصار الحجاج على ابن الأشعث ، فكان كل هذه الدراسات والبحوث فى الحديث عن هذا الاقتتال بين الأخوة ، مما أدى إلى تعميق العداوة بين القبائل العربية التى كانت مادة الفتح وأساسه . وعجل فى نهاية بنى أمية وتغلب العنصر الأعجمى على العنصر العربى .

ولكن ما أردته من إبراز أهم معالم هذه الثورة ، هو إظهار أثر عبد الله بن عبد الملك فيها ، وتأثيرها فيه .

وهدفى من تسليط الأضواء على أهم معالم الاقتتال بين الأخوة فى هذه الثورة ، هو إظهار أهمية الواجب الذى حمله عبد الله فى تلك الأيام العصيبة التى كادت تعصف بالدولة عصفا .

إن عبد الله لم يكن قائدا مسئولا فى المعارك التى خاضها الحجاج ، ولكن الحجاج لايغفل عبد الله فى مجال الرأى و سم الخطط ودعم القوات ماديا ومعنويا .

أما الدعم المادى ، فمن الواضح أن عبد الملك حشد طاقاته المادية لاحراز النصر ،

---

(١) مسكن : موضع قريب من (أوانا) على نهر (دجيل) عند دير (الجاثليق) ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٨ - ٥٤) ، وأوانا : بليدة من نواحى (دجيل) بغداد بينها وبين بغداد عشرة فراسخ ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (١ - ٣٦٦) ، أقول : وهى بالقرب من (سميكة) أو (الدجيلة الحالية) ، والمكان معروف .

(٢) انظر التفاصيل فى الطبرى (٦ - ٣٦٦) وابن الأثير (٤ - ٤٨٢ - ٤٨٣) .

(٣) انظر التفاصيل فى الطبرى (٦ - ٣٦٧ - ٣٨٣) وابن الأثير (٤ - ٤٨٤ - ٤٩٤)

(٤) انظر التفاصيل فى الطبرى (٦ - ٣٨٩ - ٣٩٣) وابن الأثير (٤ - ٥٠١ - ٥٠٢) .

(٥) الطبرى (٦ - ٣٨٩) وابن الأثير (٤ - ٥٠١)

وقد كان للمال وهو عصب الحرب أثر حاسم فى هذا النصر ، لأن أكثر المقتتلين من الطرفين كان يهتم بمتطلبات جيبه أكثر من اهتمامه بمتطلبات قلبه .

أما الدعم المعنوى ، فوجود ابن الخليفة بين المقتتلين يؤثر فى المعنويات تأثيرا كبيرا : يرفع معنويات الحجاج وقواته ، ويزعزع معنويات ابن الأشعث ورجاله .

وكما أثر عبد الله فى المعارك ونتائجها ، فقد أثرت فيه شخصيا : أغنت تجاربه فى القيادة وإدارة القتال وفى معرفة الطبيعة البشرية للمقاتلين ومعرفة طاقاتهم وكفاياتهم كما وضعت معلوماته العسكرية فى محك التطبيق العملى ، وجعلته يعيش المعارك بما فيها من صعوبات ومشاق ومآس ، وهو ما نطلق عليه اليوم فى المصطلحات العسكرية الحديثة تطعيم المعركة .

فى ميدان الجهاد

١ – فى سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١م) ، غزا عبد الله بلاد الروم ، ففتح حصن (سنان) من ناحية (المصيصة)(١) .

والظاهر أن عبد الله شهد هذه الغزوة قبل أن يرحل إلى العراق لخوض معركة (دير الجماجم) ، ورحل بعد ذلك إلى الحجاج ابن يوسف الثقفى فى العراق للسفارة بين عبد الملك بن مروان وأهل العراق ، كما ذكرنا ذلك .

٢ – وفى سنة ثلاث وثمانين الهجرية (٧٠٢ م) غزا عبد الله بلاد الروم ، ففتح (طرندة)(٢) .

وقد قاتل عبد الله الروم بـ (سورية)(٣) و (لؤلؤة)(٤) ، فهزمهم (٥) .

والظاهر أن عبد الله غزا الروم بعد عودته من العراق .

وقد أمر عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه بالقفول من (طرندة) سنة مئة الهجرية (٧١٨ م) لأنها واغلة فى البلاد الرومية من (ملطية)(٦) بثلاث مراحل

---

(١) تاريخ ابن خياط (١ - ٢٨٩) وانظر معجم البلدان (٣ - ٢٨٥) و (٥ - ١٤١) .

(٢) ابن الأثير (٥ - ٥٤) وانظر معجم البلدان (٦ - ٤٦) .

(٣) سورية : موضع بالشام بين (خناصرة) و (سلمية) ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٥ - ١٧١) .

(٤) لؤلؤة : قلعة قرب (طرسوس) ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٧ - ٣٤٣) .

(٥) تاريخ ابن خياط (١ - ٢٩٠)

(٦) ملطية : بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة ، تتاخم بلاد الشام ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٨ - ١٥٠) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٦٤) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (٩٧) والبلدان لابن الفقيه (٢٥) وتقويم البلدان (٣٨٤) .

وكان عبد الله قد أسكنها المسلمين بعد أن غزاها سنة ثلاث وثمانين الهجرية (٧٠٢م) (ملطية) يومئذ خراب ، وكان أهل (طرندة) يأتيهم جندمن(الجزيرة) يقيمون عندهم إلى أن ينزل الثلج ويعودون إلى بلادهم فلم يزالوا كذلك إلى أن ولى عمر بن عبد العزيز ، فأمرهم بالعودة إلى (ملطية) وأخلى (طرندة) خوفا على المسلمين من العدو ، وخربوا (طرندة)[١] .

وكان قرار عمر بن عبد العزيز رضى عنه فى انسحاب أهل (طرندة) منها إلى (ملطية) صائبا ، لأن (طرندة) أصبحت معزولة عن القواعد المتقدمة للمسلمين فليس من المستبعد أن يباغتها الروم بالهجوم عليها وإبادة سكانها ، خاصة وأن الروم ارتفعت معنوياتهم بعدانسحاب المسلمين من (القسطنطينية) . كما أصبحت للروم قيادة قوية حازمة بعد تولى (ليوم) عرش الروم[٢] .

٣ - وفى سنة أربع وثمانين الهجرية (٧٠٣) غزا عبد الله بلاد الروم ، ففتح (المصيصة)[٣] فبناها[٤] وبنى حصنها على أساسه القديم ، ووضع بها سكانا من الجند ، فيهم ثلاثمائة رجل انتخبهم من ذوى البأس والنجدة المعروفين ، ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك ، وبنى فيها مسجدا فوق تل الحصن[٥] . ثم سار فى جيشه حتى غزا حصن (سنان) ففتحه ، كما وجه قسما من قواته فأغارت ثم عادت إليه[٦] .

والذى يبدو أن حصن (سنان) الذى فتحه عبد الله سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١ م) انتقض : فأعاد فتحه ثانية .

وهذا يدل على أن الحدود الشمالية الغربية المتاخمة لبلاد الروم لم تكن حدودا آمنة ، وأن الروم كانوا يستعيدون الأماكن المفتوحة إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فحصن (المصيصة) وحشد فيها الجنود واختار الشجعان منهم للدفاع عنها ، لكى تكون قاعدة متقدمة آمنة ، تصد هجمات الروم وتقوى على مصاولتهم ، ولتكون منطلقا قويا وقاعدة رصينة للفاتحين .

وقد دخل عبد الله من درب (أنطاكية)[٧] حتى أتى (المصيصة)[٨] .

---

(١) ابن الأثير (٥ - ٥٤) وانظر معجم البلدان (٦ - ٤٦)

(٢) انظر التفاصيل عن الانسحاب من (القسطنطينية) فى سيرة مسلمة بن عبد الملك بن مروان .

(٣) الطبرى (٦ - ٣٨٥) وابن الأثير (٤ - ٥٠٠) والنجوم الزاهرة (١ - ٢٠٧) والبلاذرى (٢٢٥)

(٤) ابن الأثير (٤ - ٥٠٠) وتاريخ ابن خياط (١ - ٣٩٢) .

(٥) البلاذرى (٢٢٥ - ٢٢٦) وابن الأثير (٤ - ٥٠٠) .

(٦) البلاذرى (٢٢٦) .

(٧) أنطاكية : مدينة عظيمة من أعيان المدن على طرف بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) ولها قلعة عالية جداً تتبين من بعد بعيد ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (١/٣٥٣) وآثار العباد(١٥٠) وتقويم البلدان (٢٥٦ -٢٥٧)

(٨) البلاذرى (٢٢٥) .

٤ — ومن المعلوم أن منطقة (المصيصة) فتحت أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقيادة أبي عبيدة بن الجراح[١] رضى الله عنه، ولكن الفتن الداخلية التي استعرت بعد عمر بن الخطاب، جعل الروم يستعيدونها ولما استقرت الأمور في أيام معاوية بن أبي سفيان أعاد تلك المنطقة إلى المسلمين، ولكن الروم استعادوها ثانية بعد معاوية لانشغال المسلمين بالاقتتال فيما بينهم، حتى تولى عبد الملك بن مروان، فأعادها إلى سيطرة المسلمين على يد ابنه عبدالله وبناها وحصنها، فكان أول من حصن (المصيصة) في الإسلام، وذلك في سنة أربع وثمانين الهجرية (٧٠٣م)، وقد تم بناؤها وشحنها بالرجال وما يحتاجون إليه من قضايا إدارية: تموين، إعاشة، أسلحة، خيل، نقلية، سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤م)، فكانت الطوالع تطلع عليها كل عام من (انطاكية) فتشتوا بها ثم تنصرف بعد خروج الصوائف، وعدة من كان يطلع إليها ألف وخمسمائة إلى الألفين وشخص عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى (المصيصة)، فأراد هدمها وسحب حاميتها منها، كما أراد هدم الحصون بينها وبين (أنطاكية) قائلا: «أكره أن يحاصر الروم أهلها»، فأعلمه الناس أنها إنما عمرت ليدفع من بها الروم عن (انطاكية) فأمسك عن هدمها وبنى لأهلها مسجدا واتخذ فيه صهريجا، وكان اسمه مكتوبا عليه، وهو يدعى: «مسجد الحصن[٢]».

وهكذا أصبحت (المصيصة) القاعدة المتبقية للمسلمين في بلاد الروم، كما أصبحت الخط الدفاعي الأمامي عن (أنطاكية) وكان الفضل في جعل (المصيصة) ذات أهمية خاصة في الدفاع عن حدود الدولة الإسلامية وقاعدة متقدمة للفتح يرجع لعبد الملك بن مروان وابنه عبد الله الذي أعاد فتحها بعد أن استعادها الروم، وكان فاتحها الأول أبوعبيدة بن الجراح رضى الله عنه، ولكنه لم يكن فتحاً مستداما، فجعله عبد الله فتحا مستداما.

وكما كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه قد مهد للعصر الذهبي الأول للفتح الإسلامي الذي جرى في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، كان عبد الملك قد مهد للعصر الذهبي الثاني للفتح الإسلامي في عهد الوليد ابن عبد الملك.

وكان عبد الله من أعوان أبيه في التمهيد لانطلاقة العصر الذهبي الثاني للفتح الإسلامي.

الانسان

تولى عبد الله مدينة (حمص) لأبيه عبد الملك بن مروان[٣]، وقد انفرد ابن

---

(١) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٥٤ / ٨١)

(٢) البلاذري (٢٢٦)

(٣) تاريخ ابن خياط (١ - ٣٠١)

خياط فى تاريخه بذكر هذه التولية ، دون أن يذكر تاريخ تسلمه هذا المنصب، وتاريخ تخليه عنه ، والذى يبدو أنه تولى هذا المنصب سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١ م) وهى السنة التى تولى فيها قيادة جيش من جيوش المسلمين لحرب الروم ، وكان الولاة يتولون الغزو فى مناطقهم أو فى الحملات التى تحمى مناطقهم أو فى غزوات فتح البلاد التى تجاورهم ، وقد كان جند (حمص) من أهم جنود الشام ، فمن المحتمل أنه تولى قيادة جيش (حمص) فى غزواته التى بدأت سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١ م) وانتهت سنة أربع وثمانين الهجرية (٧٠٣ م)، باعتباره واليا على (حمص) .

وفى سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤م) ولاه أبوه عبد الملك بن مروان (مصر[١] على صلاتها وخراجها[٢]) ، فدخلها يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤م) وقيل : من سنة ست وثمانين الهجرية[٣] (٧٠٥ م) وأرجح أنه دخل (مصر) فى جمادى الآخرة سنة خمس وثمانين الهجرية ، لأن أمير (مصر) السابق عبد العزيز بن مروان أتوفى فى جمادى الأولى سنة خمس وثمانين الهجرية ، وليس من المعقول أن يتأخر وصول عبد الله إلى (مصر) سنة وشهرا ، إذ لامسوغ لهذا التأخير وبخاصةوأن عبدالملك لم يكن مرتاحا من حكم أخيه عبد العزيز لمصر ، وكان يحاول خلعه من ولاية العهد ويبايع ابنه الوليد بن عبد الملك ، ولكن المنية عاجلت أخاه قبل أن يمضى قدما فى تنفيذ خطة خلعه[٤] .

وكان عبد الملك قد أمر ابنه عبد الله أن يعفى آثار سلفه عبد العزيز بن مروان ، فاستبدل عبد الله عمالا من الأصحاب بعمال عبد العزيز ، واستبدل قضاة جددا بقضاة عبد العزيز ومنع من لبس البرانس[٥] ، وكانت فيه شدة وبأس[٦] .

---

(١) الطبرى (٦ / ٤٣٠) والنجوم الزاهرة (١ / ٢١٠) وابن خلدون (٣/ ٢٩٢) وانظر تاريخ ابن خياط (١/ ٣٠٠) .

(٢) الولاة والقضاة (٥٨) .

(٣) النجوم الزاهرة (١ / ٢١٠) ، أما فى الولاة والقضاة ، فذكر أنه دخل مصر فى جمادى الآخرة سنة خمس وثمانين الهجرية انظر الولاة والقضاة (٥٨) .

(٤) الطبرى (٦ / ٤١٣) وابن الأثير (٤/ ٥١٣) والبداية والنهاية (٩/ ٥٧) وابن خلدون (٣ / ١٢٦) والنجوم الزاهرة (١ / ١٧٣) .

(٥) البرانس : ج برنس : قلنسوة طويلة ، كان النساك يلبسونها فى صدر الإسلام ، والقلنسوة تلبس فى الرأس انظر الافصاح (١ / ٣٧٦) وانظر معجم متن اللغة (١ / ٢٨٤) والوسيط (١/ ٥٢) .

(٦) النجوم الزاهرة (١ / ٢١٠) وانظر الولاة والقضاة (٥٨) .

وتوفى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يوم الخميس لأربع عشرة ليلة خلت من شوال سنة ست وثمانين الهجرية[1] (٧٠٥ م) ، وبويع ابنه الوليد بن عبد الملك ، فأقر أخاه عبد الله على صلاة مصر وخراجها ، وأمر عبد الله بالدواوين ، فنسخت بالعربية ، وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية ، وصرف عن الديوان صاحبه القبطى وولاه عربيا من أهل (حمص) وذلك سنة سبع وثمانين الهجرية (٧٠٦ م) ، وابتنى عبد الله المسجد المعروف بمسجد عبد الله[2] وكان موضع هذا المسجد يجلس فيه أهل المدينة يتحدثون فيه ، فمر بهم يوما عبد الله وهو أميرهم بمصر ، فسألوه أن يبنى لهم فيه مسجدا ، وشكوا إليه ما يلقون من الشمس ، فبناه لهم ، فكانوا يجتمعون فيه . وجعلت له حوانيت غلة له ، وكتب القاضى وثيقة بنائه وهى : « بسم الله الرحمن الرحيم » هذا كتاب أمر به القاضى عبد الرحمن بن عبد الله[3] وهو يومئذ (مسجد عبد الله) الذى بالظاهر : قبليه الطريق الأعظم إلى المسجد الجامع ، وبحريه الطريق الذى تسلك إلى سوق بربر ، وشرقيه السويقة التى يقال لها سويقة (مسجد عبد الله) على طريق (الموقف) ، وغربيه الطريق الذى يسلك منه على الحب الذى يقال له : (جب عبد الله) . . .[4] ، وذكرت تفاصيل وثيقة هذا المسجد للدلالة عن موقعه بدقة فى مدينة (القاهرة) .

كما أمر عبد الله بسقف المسجد الجامع أن يرفع سمكه ، وكان سقفه مطأطئا وذلك سنة تسع وثمانين الهجرية[5] (٧٠٧ م) .

ووقعت سنة سبع وثمانين الهجرية (٧٠٥ م) بمصر (الشراقى)[6] ، فغلت الأسعار بها إلى الغاية ، حتى قيل : أن أهل (مصر) لم يروا فى عمرهم مثل تلك الأيام ، وقاست أهل (مصر) شدائد بسبب الغلاء ، فاستشأم الناس بكعبه ، وزعموا أنه جائر وأنه ارتشى[7] .

---

(١) الولاة والقضاة وانظر العبر (١ - ١٠٢) والبداية والنهاية (٩ / ٦١) وشذرات الذهب (١ / ٩٧)

(٢) الولاة والقضاة (٥٨ - ٥٩) .

(٣) انظر سيرته فى الولاة والقضاة (٤٠٦ / ٤١١) .

(٤) انظر التفاصيل فى : الولاة والقضاة (٧٠٢ / ٧١٠) ، ويراجع كتاب : الانتصار لواسطة عقد الأمصار حول المسجد الجامع (٥٩ / ٧١) ، وسوق بربر (٣٢) ، الموقف (٣٤)

(٥) انظر التفاصيل فى : الولاة والقضاة (٥٨ / ٦٠) ، وانظر ما جاء عن تعمير المسجد الجامع فى : الانتصار لواسطة عقد الأمصار (٦٣)

(٦) الشراقى : (فى كلام أهل مصر) : الأرض التى لم يصلها ماء النيل ، فإذا رويت جادت ، وسميت : رى الشراقى ، انظر معجم الوسيط (١/٤٨٠)

(٧) النجوم الزاهرة (١ / ٢١١) والولاة والقضاة (٥٨ / ٥٩) .

ولما شاع ذلك عنه ، طلبه أخوه الوليد ابن عبد الملك من مصر ، فخرج عبد الله واستخلف على عمله ، وكان أهل (مصر) فى شدة عظيمة من عظم الغلاء ، فأقام عند الوليد مدة يسيرة ثم عاد إلى مصر[1] .

ومن الواضح أن الوليد جابه أخاه عبد الله على ما أشيع عنه الظلم ، والرشوة ، ويبدو أنه خرج بريئا ، ناصع الجبين من ذلك الحساب ، فأعاده الوليد إلى عمله ثانية .

والمعروف عن المصريين منذ القدم حتى اليوم ، أنهم قد يصبرون على كل شىء إلا الغلاء ، وهم يغضبون إذا اجتاحهم الغلاء ، ويتصدون لمن يظنون أنه سببه بكل قوة وشجاعة ، وهذا يفسر لنا أسباب تذمرهم من عبد الله حين ارتفعت أسعار المواد الغذائية ولم يكن لعبد الله ذنب مباشر أو غير مباشر فى الغلاء ، إذ لاحيلة له فى قلة مياه نهر النيل ، ولايستطيع أن يفعل شيئا فى زيادة تدفق المياه أو نقصها ، ولا يستطيع غيره أن يفعل شيئا .

كما أن المعروف عن المصريين قديما وحديثا ، أنهم يرمون كل حاكم من حكامهم بالظلم إذا اتسم بالشدة والبأس فى تصريف أمورهم وقد كان عبد الله : فيه شدة وبأس[2] .

أما اتهامه بالرشوة ، فيبدو أنها تهمة تبعية لاتهامه بالظلم ، إذ أن أبناء الخلفاء وإخوتهم لايحاسبون على الخراج من الخلفاء ، فلم يحاسب عبد العزيز بن مروان على خراج مصر ، ولم يحاسب مسلمة بن عبد الملك على الخراج ، فإذا كان خراج مصر كله بسيطرة عبد الله ، وهو خراج ضخم بدون شك ، فلماذا يلجأ عبد الله إلى تقاضى الرشوة ؟

إن اتهام عبد الله بالرشوة تشنيع من المصريين الذين اجتاحهم الغلاء ، وعوملوا بشدة وبأس ، فنفسوا عن أنفسهم بالتشنيعات والهجاء[3] والافتراء ، وبالنكت القاسية قبل كل ذلك وبعده أيضا .

ولايمكن أن يرتشى من بيده خراج مصر ، يتصرف به كيف يشاء .

ولكن الوليد بن عبد الملك عزل أخاه عبد الله سنة تسعين الهجرية (٧٠٨ م) عن مصر[4] لاعن ريبة ولكنه أراد أن يولى من يستطيع السيطرة عليه بسهولة ويسر .

والظاهر أن عبد الله سيطر على الخراج سيطرة كاملة ، وحجب تدفقه إلى بيت

(١) النجوم الزاهرة (١ / ٢١١) وانظر الولاة والقضاة (٥٩)
(٢) النجوم الزاهرة (١ / ٢١٠) .
(٣) انظر هجاءه شعراً فى : الولاة والقضاة (٥٩ / ٦٠) .
(٤) ابن الأثير (٤ / ٥٤٧) والنجوم الزاهرة (١ / ٢١١) والولاة والقضاة (٦٤)

المال فى العاصمة (دمشق) ، لذلك عزله الوليد بعد أن نفذ صبره، وأوصى خالف عبد الله على (مصر) أن يختم على الدواوين وبيت المال [1] ، الحسابات ومقارنة الواردات بالنفقات ، لمعرفة مايمكن أن يكون احتجزه عبد الله من المال لنفسه .

ويبدو أن تدقيق الحسابات ، أثبت أن عبد الله استأثر بقسم من المال لنفسه ، فلما عاد من (مصر) إلى أخيه الوليد فى (دمشق) بعد أن استصحب جميع أمواله أحيط به فى (الأردن) فى طريق عودته وأخذت جميع أمواله ، وحمل عبد الله إلى أخيه الوليد فى (دمشق)[2] .

ولاندرى هل استعاد عبد الله أمواله ، أم ضمت إلى بيت المال فى (دمشق) فقد سكت المؤرخون عن ذلك .

وقد كان خراج (مصر) الغنية هو المعين الوحيد لعمليات فتح شمالى (أفريقية) ، كما كانت (مصر) هى القاعدة الأمامية لفتح شمالى (أفريقية) وتوطيد أركان الفتح فيها ، واستكمال فتحها لتكون المنطلق لفتح الأندلس وأوربا ، فلا بد من سيطرة الخليفة على خراج (مصر) بالذات ثانيا ، ليتصرف الخليفة بالخراج ليكون عصب الفتح ، ولايتم ذلك إلا بفرض سيطرته الكاملة على الخراج ، ولابد له من السيطرة الكاملة على (مصر) ، لتسخير كل طاقتها المالية والبشرية للفتح ، وهذه السيطرة على الخراج وعلى البلاد لاتتم كما ينبغى بوجود أمير عليها يعتبر نفسه ندا للخليفة وصنوا له .

وقد كان على (أفريقية) موسى بن نصير اللخمى[3] لعبد الملك بن مروان من سنة تسع الهجرية[4] (٦٩٨ م) ، وكان على علاقة وثيقة بعبد العزيز بن مروان سلف عبد الله ابن عبد الملك ، ولكنه لم يكن كذلك مع عبد الله الذى خلف على (مصر) عمه عبد العزيز ابن مروان ، فقد كان موسى بن نصير يكاتب عبد العزيز بن مروان ، فلما توفاه الله ولى عبد الملك ابنه عبد الله على (مصر) ، فلم يكاتبه موسى وكاتب عبد الملك مباشرة فكتب إليه عبد الله : « أما بعد . فإنك كنت من عبد العزيز وبشر[5] مهادين[6] تعلو عن الحضيض مهودهما[7] ويدفئك دثارهما ، حتى عفا[8] مخبرك وسمت بك نفسك ، فلاتحسبنى كمن كنت تخلبه وأعداء بيته وتقول : أكفانى

(١) الولاة والقضاة (٦٢)
(٢) انظر سيرته المفصلة فى كتابنا : قادة فتح المغرب العربى (١ / ٢٢١ - ٣٠٩)
(٣) تاريخ ابن خياط (١ / ٣٠٠) .
(٤) الولاة والقضاة (٢٠)
(٥) بشر بن مروان ابن الحكم .
(٦) المهاد : الفراش . ومهاد الأرض : المستوية .
(٧) المهود : ج مهد : الأرض المستوية السهلة .
(٨) عفا الأرض : كثر نباتها فغطاها . وعفا الشىء : خفى وعفا الماء : لم يخالطه شىء يكدره .

أكفكما ، ولا كأضبع[1] كنت يمينه بكهانتك ! وأيم الله ! لأضعن منك مارفعا ، ولأقلن منك ما كثرا . رويدا فكأن قد أصبحت سادما[2] تعض أناملك نادما ، والسلام[3] » .

وكان جواب موسى لعبد الله : « أما بعد . فقد قرأت كتابك وفهمت ماوصفت فيه من إركانى إلى أبويك وعمك ، ولعمرى أنى كنت لذلك أهلا ! ولو خبرت منى ماخبرا لما صغرت منى ما عظما ، ولما جهلت من أمرنا ماعلما ، فكيف أتاه الله لك ! ! فأما انتقاصك لهما ، منهما لك وأنت منهما ولهما منك ناصر ، لو قال وجد عليك مقالا ، وكفاك جزاء العاق[4] . فأما تهددك إياى بأنك واضع منى ماوقعا ، فليس ذلك بيدك ولا إليك فأرعد وأبرق لغيرى . وأما ماذكرت مما كنت آتى به عمك عبد العزيز ، فلعمرى أنى مما نسبتنى إليه من الكهانة لبعيد ، وأنى من غيرها من العلم لقريب ، فعلى رسلك ، فإنك قد أظلك البدر الطالع والسيف القاطع والشهاب الساطع ، فقد تم لها وتمت له ، ثم بعث إليك الأعرابى الجلف الجافى فلم تشعر به حتى يحل بعضوتك[5] فيسلبك سلطانك فلا يعود إليك ولاتعود إليه ، فيومئذ تعلم أكاهن أم عالم ، وتوقن أينا النادم السادم ، والسلام » .

وقرأ عبد الله كتاب موسى ، فكتب إلى أبيه عبدالملك كتابا وأدرج كتاب موسى فيه ، فلم يصل الكتاب إلى عبد الملك حتى قبض ، ووقع الكتاب فى يد الوليد بن عبد الملك بعد أن عزل عبد الله عن (مصر) ، فلما قرأه استضحك ثم قال : « لله دره — يقصد موسى — إن كان عنده أثرة[6] من علم ، ولقد كان عبد الله غنيا أن يتعرضه »[7] .

فإذا صح صدور هذا الكتاب عن عبد الله ، فهو يدل على تمكنه من ناصية اللغة العربية ، وبلاغته وبيانه الرفيع ، كما يدل على حبه للسيطرة واهتمامه بالضبط والنظام فهو لايرضى أن يتخطا موسى إلى الخليفة ، لأنه يعتبر نفسه المرجع المباشر لموسى .

---

(١) أضبع : ج ضبع ، وهو جنس من السباع من الفصيلة الضبعية ورتبة اللواحم ، أكبر من الكلب وأقوى وهى كبيرة الرأس قوية الفكين ، وهذه تعرف بالسذاجة والغفلة .

(٢) السادم : المصاب بالهم أو الغيظ مع حزن .

(٣) الولاة والقضاة (٦٠ — ٦١) .

(٤) أضاف موسى بعد العاق : أما ما نلت من عرضى ، فذلك موجب لحق أمير المؤمنين لا لك » .

(٥) العقوة : الموضع المتسع أمام الدار أو الحلة أو حولها .

(٦) الأثرة : المنزلة . وأثرة العلم : بقية منه تؤثر

(٧) الولاة والقضاة (٦١ — ٦٢) .

والمهم أن عبد الله لم يكن على علاقة حسنة بموسى بن نصير ، مما يؤدى إلى عرقلة استكمال فتح (أفريقيا) وتوطيد فتحها لتكون القاعدة الأمامية لفتح الأندلس وأوربا ، كما تشل هذه العلاقة السيئة بين عبد الله وموسى بن نصير التعاون الوثيق بين القائدين وتلحق بالفتح أفدح الأضرار .

ولا يمكن أن يبقى قائدان فى منطقتين متجاورتين تؤثر إحداهما فى الأخرى تأثيرا سوقيا إلا إذا كانا متعاونين أشد التعاون ، يتبادلان ثقة بثقة وحبا بحب وإخلاصا بإخلاص .

ويبدو أن صغر سن عبد الله وعنجهيته ، هى التى جعلت موسى بن نصير — وهو القائد الألمعى والحصيف لا يتعاون مع عبد الله تعاونا وثيقا كما كان يتعاون مع عبد العزيز بن مروان وغيره من أمراء (مصر) .

كما يبدو أن موسى استشف أخبار العلاقة غير الوطيدة بين الأخوين : الوليد وعبد الله ، وأن مكانته عند الوليد أقوى من مكانة عبد الله ، وأن الوليد لا محالة سيعزل عبد الله عن (مصر) اليوم أو غدا ، لذلك لم يكترث بعبد الله ولم يوله العناية الكافية .

وقد كانت ولاية عبد الله على (مصر) ثلاث سنين وعشرة أشهر[1] .

وإخوة عبد الله بن عبد الملك : الوليد ، وسليمان ومروان الأكبر مات صغيرا ، وعائشة ، أمهم ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث ابن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس بن بغيض .

ويزيد ، ومعاوية مات صغيرا ، وأم كلثوم ، وأمهم عاتكة بنت يزيد بن أبى سيفان .

وهشام ، وأمه أم هشام بنت هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومى . واسم أم هشام : عائشة بنت هشام المخزومية

وأبو بكر واسمه بكار ، أمه عائشة بنت موسى بن طلحة بن عبيد الله .

والحكم مات صغيرا ، وأمه أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان .

وفاطمة بنت عبد الملك ، وأمها أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة .

وعبد الله ومسلمة والمنذر وعنبسة ومحمد وسعيد الخير ، لأمهات أولاد[3] .

ولا ذكر لأولاده ، وورد ذكر قسم من أولاد عبد الملك بن مروان ، ولم يذكر قسم آخر منهم ، إذ ليس فى أعقاب سائر ولد عبد الملك من اشتهر فيذكر .

(١) النجوم الزاهرة (١ - ٢١١) ، وفى الولاة والقضاة (٦٣) : أن ولايته كانت عشرة أشهر ، وهذا بدون شك خطأ مطبعى أو خطأ من ناسخ الكتاب ، وكان على مهذبه ومصححه (رفن كست) ألا يغفل عن مثل هذا الخطأ ، والكتاب بعد ذلك يعج بالأخطاء بشتى أنواعها ومختلف أشكالها مما يدعو إلى الأسف الشديد .

(٢) الطبرى (٦ / ٣١٩ - ٤٢٠) وانظر جمهرة أنساب العرب (٨٩) والنجوم الزاهرة (١ - ٢١١)

(٣) جمهرة أنساب العرب (١٠٤) .

وقد تولى عبد الله (مصر) سنة خمس وثمانين (٧٠٤م) كما ذكرنا ، وكان عمره حينذاك سبعا وعشرين سنة[١]، ومعنى ذلك أنه ولد سنة ثمان وخمسين الهجرية (٦٧٧م) ، وقتل سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية[٢] (٧٤٩م) ، أى أنه عاش أربعا وسبعين سنة قمرية واثنين وسبعين سنة شمسية .

القائد

كان فى عبد الله شدة وبأس كما وصفه المؤرخون ، وهذا يدل على قوة شخصيته والتحلى بالضبط المتين .

والشخصية القوية من سمات القائد المتميز كما أن الضبط المتين من مزايا الجندى والقائد المتميزين ، إذ لا جيش يعتمد عليه وقوة يعتد بها إذا لم تتسم بالضبط المتين .

والفرق الرئيسى بين العسكريين والمدنيين ، هو تمتع الأولين بالضبط المتين ، وعدم تمتع الآخرين بهذا الضبط .

فإذا كان القائد منضبطا ، سرت هذه السجية إلى رجاله ، وبذلك يحقق القائد لجيشه أول أسباب النصر .

ويبدو أن سفارة عبد الله إلى العراق لكبح جماح ثورة ابن الأشعث أو لإقرار الصلح بين رجاله ورجال الحجاج ، وتصرفه فى قيامه بواجبه فى السفارة أولا وتعاونه مع الحجاج فى معركة (دير الجماجم) مما أدى إلى إحراز النصر ثانيا ، قيادته الواعية فى غزواته المتعاقبة بأرض الروم ثالثا ، ومحاولته ترسيخ أقدام الفاتحين فى المناطق التى فتحها ليصبح الفتح مستداما ولا يبقى فتحا مؤقتا أخيرا ، هو الذى لفت إليه نظر أبيه عبد الملك بن مروان ، فولاه (مصر) وأوكل إليه أمر إدارتها بأسلوب جديد غير الذى كان يتبعه فى إدارتها عبد العزيز بن مروان .

وأهمية (مصر) فى فتح المغرب وأفريقية ، كأهمية (العراق) فى فتح المشرق ، واعتماد فتح المغرب على خراج (مصر) ، كاعتماد فتح المشرق على خراج (العراق) ، لذلك كان اهتمام الخلفاء باختيار ولاة (مصر) و (العراق) فائقا جدا ، لأن (مصر) القاعدة الأمامية الرئيسة فى فتح المغرب ، وشأنها فى ذلك شأن (العراق) ، ولا فتح بدون قاعدة رصينة وهذا يحتاج إلى ولاة قادرين من ذوى الكفايات العالية والإدارة الحازمة .

إن اختيار عبد الله من بين إخوته لولاية (مصر) ، دليل على نجاحه فى المهام الإدارية والقيادية التى ألقيت على عاتقه قبل أن يتولى هذا المنصب الحيوى الرفيع ، وهى

---

(١) النجوم الزاهرة (١ / ٢١٠)

(٢) تاريخ ابن خياط (٢ - ٤٣٥) .

التى رشحته لتولى هذه المهمة الجديدة الصعبة ، ورشحته لاقتلاع آثار سياسة عبد العزيز بن مروان فى (مصر) من جذورها ، تلك الجذور التى تغلغلت إلى الأعماق ، لأن عبد العزيز حكم (مصر) عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوما[1] امتدت من سنة خمس وستين الهجرية[2] (٦٨٤م) حتى خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤م) ، فأمر عبد الملك ابنه عبد الله أن يعفى أثر عبد العزيز فى[4] (مصر) ، وهذه مهمة صعبة جداً ، ولا يستطيع تنفيذها غير الرجال القادرين .

وإذا علمنا أن عبدالله تولى (مصر) وعمره سبع وعشرون سنة ، وأنه بدأ حياته العملية قائداً وسفيراً سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١م) ، وكان عمره يومئذ أربعا وعشرين سنة ، فمعنى ذلك أنه أظهر كفاية متميزة فى سن مبكرة ، ثم قضى ثلاث سنوات لوضع كفايته فى محك التجربة العملية ، فنجح فى إحراز ثقة أبيه فولاه أكبر منصب مرموق بعد منصب الخليفة ، وهو ولاية (مصر) ، مما يدل على تمتعه بالطبع الموهوب الذى أثبت نجاحه فى ميدان التطبيق العملى .

ولا شك فى أن عمله المكتسب كان له نصيب كبير فى صقل طبعه الموهوب ، وفى تجربته العملية قائداً وسفيراً وإداريا ، وبذلك اجتمعت لعبد الله الصفات الثلاث للقائد والسياسى والإدارى : الطبع الموهوب ، والعلم المكتسب والتجربة العملية .

ولا يستطيع متتبع سيرته قائدا ، إلا أن يتوقف أمام ميزة بارزة لقيادة عبد الله وهى محاولته جعل الفتح مستداما ، ورفضه الاكتفاء بالفتح الموقت الذى هو أشبه بالمعارك السيارة والغازات منه بالفتح المستدام .

لقد فتح المسلمون (المصيصة) بقيادة أبى عبيدة بن الجراح فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، ولكن الروم استعادوها مرات ، وأعاد المسلمون فتحها مرات لذلك قرر عبد الملك بن مروان أن يحرم الروم من استعادتها ، لاهمية موقعها السوقى ، حيث تعتبر الخط الدفاعى الأمامى عن (أنطاكية) أهم الثغور الشامية ، فإذا استعادها الروم أصبحت (أنطاكية)

---

(١) النجوم الزاهرة (١ - ١٧٤) والولاة والقضاة (٥٥) .
(٢) العبر (١ / ٧١) وشذرات الذهب (١ / ٧٣)
(٣) العبر (١ - ٩٩) وشذرات الذهب (١ - ٩٥) .
(٤) النجوم الزاهرة (١ - ٢١٠) والولاة والقضاة (٥٨) .
(٥) النجوم الزاهرة (١ - ٢١٠) .
(٦) تاريخ ابن خياط (١ - ٢٨٩) ومعجم البلدان (٣ - ٢٨٥) .

مكشوفة تحت رحمة الروم فيستعيدها الروم بيسر وسهولة .

وأمر عبد الملك ابنه عبد الله أن يعيد بناء (المصيصة) ويعمر قلعتها ويحشد الجنود فيها ، فينهض عبد الله بهذا الواجب على أحسن وجه ، واختار من رجاله الشجعان وجعلهم حامية ثابتة لهذا الثغر المتقدم الذى : يحمى (أنطاكية) بخاصة ، والحدود الشمالية الغربية للدولة بعامة[1] .

وذهب عبد الله إلى مدى أبعد من ذلك ، فتغلغل شمالا إلى (طرندة) لتكون خطاً دفاعياً أمامياً للدفاع عن (المصيصة) ، وبذلك أصبح خطان دفاعيان أماميان للدفاع عن (أنطاكية) وعن حدود الدولة ، يصعب على الروم اختراقهما للوصول إلى (أنطاكية) وحدود الدولة الشمالية الغربية ، بهذا حمى البلاد الإسلامية حماية مثالية من الروم كما أمن قواعد متقدمة للفتح فى بلاد الروم .

وقد ارتكز مسلمة بن عبد الملك على (المصيصة) فى انطلاقه شمالا لحصار (القسطنطينية) ، وكانت هذه المدينة من أهم قواعده المتقدمة التى ارتكز عليها لتحقيق أهدافه فى الفتح .

وأخفقت حملة (القسطنطينية) وبدأ المسلمون بالانسحاب منها ، فكانت (المصيصة) أرصن قواعد المسلمين المتقدمة فى حماية الانسحاب .

ومات عبد الله ومات مسلمة بن عبد الملك ، وانتهت أيام الدولة الأموية فى الشام ، وبدأت أيام الدولة العباسية فى (بغداد) ، وذكر (المصيصة) يتردد فى الصراع بين المسلمين والروم ، وبقيت صخرة صلدة بوجه الروم ، فلم يستطيعوا استعادتها إلى حكمهم كما لم يستطيعوا أن يقللوا من أهميتها الحيوية فى الدفاع عن (أنطاكية) وحماية الحدود الشمالية الغربية من هجمات الروم وغاراتهم .

والفضل فى ذلك يعود إلى عبد الملك ابن مروان صاحب فكرة تحصينها وحشد المقاتلين فيها ، وإلى ابنه عبد الله الذى وضع تلك الفكرة فى حيز التنفيذ .

كما أن الفضل فى جعل فتح هذا الثغر فتحاً مستداماً ، يعود إلى عبد الله دون مراء .

إن عبد الله فى فتحه ، يفكر فى الحاضر وفى المستقبل ولا يكتفى بالتفكير فى الحاضر فقط ، وهذه صفة من صفات القائد الذى يتسم ببعد النظر .

---

(١) انظر التفاصيل فى البلاذرى (٢٢٥) .
(٢) انظر التفاصيل فى البلاذرى (٢٢٣ – ٢٣٠) .

وقد كان عبدالله قائداً تعرضياً، يطبق الحرب السيارة، ويدافع عن الحدود والثغور بالتعرض لا بالدفاع المستكن، ويرى بحق أن الهجوم أفضل أساليب الدفاع .

وبالأسلوب التعرضى ، حمى عبد الله الحدود والثغور ، ونقل القتال من مواضع المسلمين إلى مواضع الروم ، وجنب بلاد المسلمين خسائر الحرب ، وأوقع تلك الخسائر فى بلاد الروم ، وفتح مناطق من أرض الروم ، جعلت أرض المسلمين بعيدة عن أسلحة الروم ورجالهم .

وكان يطبق مبدأ (التحشد) فى غزواته فيحشد القوة المناسبة للعمل المناسب ، كما يحشد القوات المناسبة فى الثغور ، للدفاع عنها فى حالة تعرضها لهجوم مضاد .

وكان يطبق مبدأ (الأمن) فى مسير الاقتراب، وفى صفحة الاشتباك بالعدو، كما يضع للحاميات فى الثغور ، لكى لا يباغتها العدو فى هجـــوم غير متـــوقع ، وبهذه التدابير الأمنية صان رجاله من مباغتة العدو لهم فى مختلف صفحات القتال التى خاضها .

وكان يطبق مبدأ (القضايا الإدارية) تطبيقا مثاليا فى غزواته ، ابتداء من تقدمه لمجابهة العدو ، إلى عودته إلى قواعد المسلمين ، فلا نعلم أن قواته احتاجت إلى أى نوع من أنواع القضايا الإدارية تموينا، وسلاحا ، ونقلية ، وطبابة ، ومرتبات .

وكان يدعم معنويات رجاله العالية ، بالنصر ، والأمن ، والحماية ، وحرمان العدو من الحصول على المعلومات عن قواته ، وبالحاميات القوية القادرة ، وبالتعرض والقتال السيار ، ونقل المعركة إلى أرض العدو ، وبالاستعدادات المتكاملة .

وكان يثق برجاله ويثقون به ، ويحبهم ويحبونه ، ويعتمد عليهم ويعتمدون عليه .

والذى يبدو أن أهم مزاياه العسكرية فى القيادة هى بعد نظره الذى جعله ينفذ الخطط الضرورية التى أدت إلى ترسيخ ما فتحه من بلاد الروم ، فأصبح فتحاً مستداماً ولم يبق فتحاً مؤقتاً .

كما أنه كان ذا شخصية نافذة مسيطرة تفرض نفسها بقوة وصرامة على رجاله وعلى أسلوب عملهم فى القتال والإدارة على حد سواء .

كما أنه كان يتحلى بالضبط المتين ، فلا يغض الطرف عن مخالفات رجاله ولا يرضى منهم بغير الالتزام الصارم بمتطلبات الضبط المتين .

تلك مزايا ثلاث بارزة فى عبد الله ، لفتت إليه نظر أبيه عبد الملك ، فولاه مصر ليعيدها إلى سيطرة أبيه الكاملة ، فخسرته القيادة ولم تربحه الإدارة .

عبد الله فى التاريخ

يذكر التاريخ لعبد الله أنه فتح منطقة حيوية من بلاد الروم بقيت ردحاً من الزمن تنتقل من أيدى الروم إلى أيدى المسلمين ، ومن أيدى المسلمين إلى أيدى الروم ، حتى استقرت أخيراً بأيدى المسلمين بفضل عبد الله ، وأصبح فتحها فتحاً مستداماً .

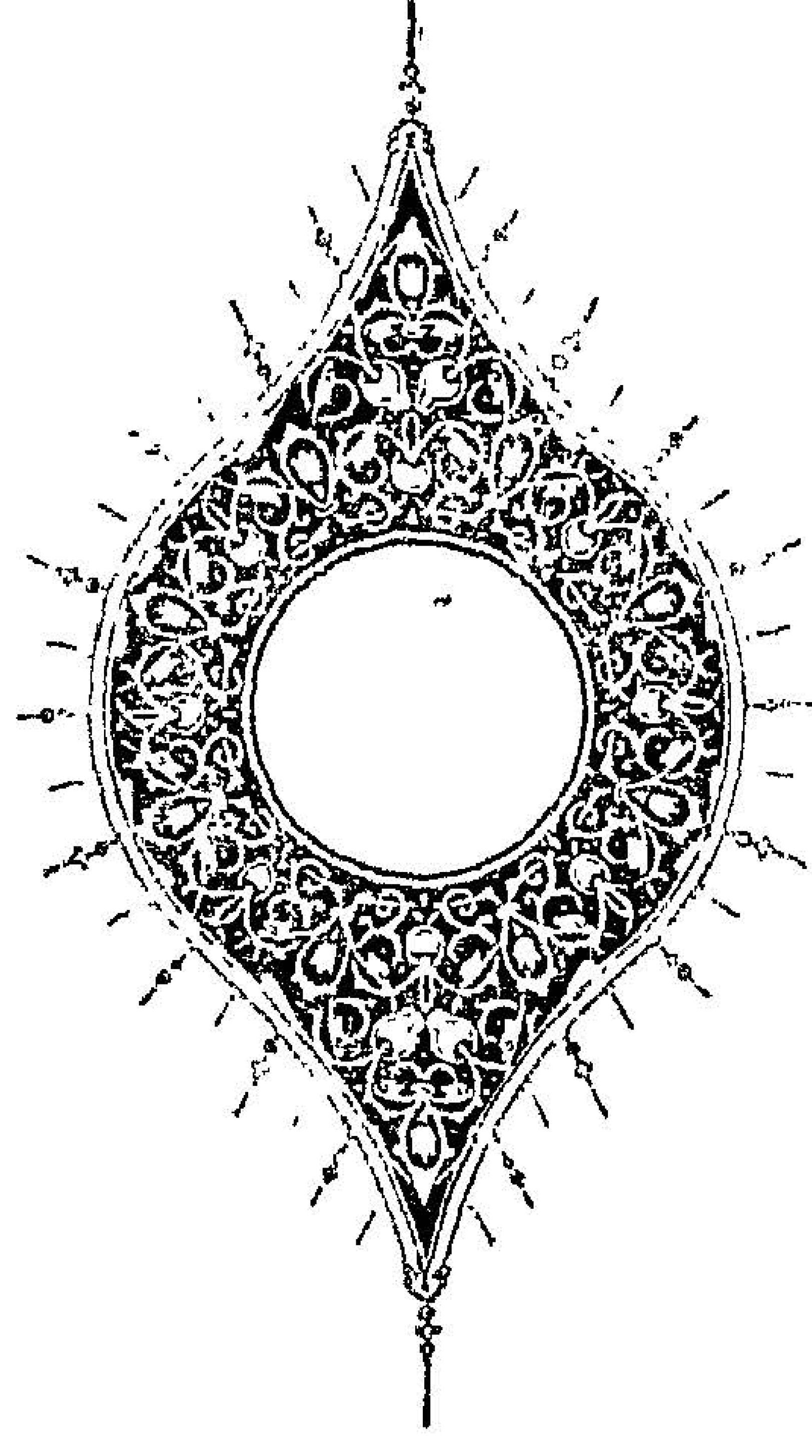
ويذكر له أنه حمى بفتحه المستدام منطقة (أنطاكية) ، وهى من أهم الثغور الشامية التى تحرس الحدود الشمالية الغربية للدولة الإسلامية .

ويذكر أنه تولى (مصر) فأعادها إلى سيطرة أبيه الكاملة ، بعد أن كانت شبه مستقلة فى أيام عبد العزيز بن مروان .

ويذكر أنه نجح نجاحاً باهراً فى قيادته ونجح نجاحاً محدوداً فى إدارته . فكان قائداً متميزا ، ولم يكن إدارياً متميزاً .

يرحمه الله جزاء ما قدم من جهد فى قيادته وإدارته .

محمود شيت خطاب
عضو المجمع المراسل من العراق



المعادن عند العرب

للدكتور على على السكرى

يطلق المعدن لغوياً على مكان كل شيء فيه أصله ومركزه ، والمعدن موضع استخراج الجوهر من ذهب ونحوه : ذكر الكندى (المتوفى سنه ٢٤٦ هـ[1]) أن المعدن من عدن وهو الإقامة فكان المطلوب منه ما أقام فيه دهوراً أو أن مستنبطيه يقيمون على استخراجه فلا يسأمون من حفر الغيران إليه .

فى كتاب الإفصاح فى فقه اللغة(١٣٨٧هـ — ١٩٦٧م) : المعدن منبت الجوهر من الذهب والفضة والحديد وغير ذلك من فلز الأرض : ومعدن كل شيء أصله ومبدؤه لأن أهله يقيمون فيه صيفا وشتاء ويقال : عدن بالمكان يعدن عدنا وعدونا إذا أقام به. والمعدّن (بكسر الدال مع التشديد) مخرج الصخر من المعدن يبتغى فيه الذهب ونحوه . وفى نفس الكتاب عن مصطلح الجوهر أنه كل حجر يستخرج منه شيء ينتفع به . وفيه أيضاً أن الفلز الحجارة ، وقيل جميع جواهر الأرض من الذهب والفضة والنحاس وأشباهها : وقيل نحاس أبيض تجعل منه القدور العظام المفرغة والهاوونات .أو هو خبث الذهب والفضة والحديد ،أو هو ما ينفيه الكير من كل ما يذاب من جواهر الأرض . أما الركاز فى المرجع المذكور فهو قطع من الذهب والفضة تخرج من المعدن . وقيل ماركزه الله تعالى فى الأرض من المعادن فى حالتها الطبيعية . وقيل هو الكنز . ركز الله المعادن فى الأرض يركزها ركزاً أوجدها فى باطنها وأركز الرجل أى أصاب الركاز .وتبين هذه التعريفات الفروق اللغوية لأربع كلمات متقاربة فى المعنى هن : المعدن، الجوهر، الفلز وأخيراً الركاز .

فى رسائل إخوان الصفا (منتصف الرابع الهجرى) استعملوا كلمة الجواهر المعدنية فنراهم يقولون فى الرسالة الخامسة من الجسمانيات الطبيعيات وهى فى بيان تكوين المعادن : «ثم اعلم يا أخى أن استحالة الكائنات الفاسدات التى تحت فلك القمر هى

(١) سنة ١ هـ = ٦٢٣ م .

خمسة أنواع ، فمنها استحالة الأركان الأربعة[1] بعضها إلى بعض كما بينا طرفا من كيفية ذلك فى رسالة الكون والفساد ، ومنها حوادث الجو وتغييرات الهواء كما بينا طرفا منها فى رسالة الآثار العلوية ، ومنها استحالة الكائنات الفاسدات التى تتكون وتنعقد فى باطن الأرض وعمق البحار وجوف الجبال وهى الجواهر المعدنية كما سنبين طرفا من كيفيتها فى هذه الرسالة .

وفى موسوعة الشفاء لابن سينا (المتوفى سنة ٤٢٨هـ) تحدث هذا العالم العربى الكبير عن الأجسام المعدنية والجواهر المعدنية قائلا : إن الأجســـام المعدنية تكاد أن تكون أقسامها أربعة : الأحجار والذائبات والكباريت والأملاح » . ثم يقول فى موضع آخر : وأما الحجريات من الجواهر المعدنية الجبلية فمادتها أيضاً مائية ولكن ليس جمودها بالبرد وحده بل جمودها باليبس المحيل للمائية إلى الأرضية » .

عرف القزوينى (المتوفى سنه ٦٨٢ هـ) المعدنيات فى كتابه « عجائب المخلوقات » بأنها أجسام متولدة من الأبخرة والأدخنة تحت الأرض إذا اختلطت على ضروب من الاختلاطات مختلفة فى الكم والكيف . وأضاف يقول «وهى إما قوية التركيب أو ضعيفة التركيب ، وقوية التركيب إما أن تكون متطرقة أو لم تكن متطرقة ، وهى الأجسام السبعة أعنى الذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد والأسرب[2] والخارصين . والتى لاتكون متطرقة فقد تكون فى غاية اللين كالزئبق ، وقد تكون فى غاية الصلابة كالياقوت» . ثم يضيف القزوينى : « وأما الأجسام الصلبة الشفافة فتتولد من مياه عذبة وقعت فى معادنها بين الحجارة الصلدة زمانا طويلا حتى غلظ وصفا وأنضجته حرارة المعدن بطول وقوفها . و أما غير الشفافة فمن امتزاج الماء بالطين إذا كانت فيه لزوجة وأثرت فيه حرارة الشمس مدة طويلة » .

عن المعدنيات والمعادن ، تكلم الدمشقى (المتوفى سنه ٧٢٧ هـ) فى كتابه «نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر» فقال : قال أهل العلم بذلك المعدنيات والمعادن إحدى المتولدات الثلاث ولا تكاد تحصى كثرة ولكن فيه ما يعرفه الناس وهو نحو من سبع مائه نوع كلها مختلفة الألوان والطعوم والصفات والخواص وذلك إنما هو بحسب المواد التى تتكون عنها سواء كانت حجرا أو ترابا أو ماء ، والمعادن أول متولد تميزت جوهريته عن التراب فهى مما له التراكم شيء على شيء دون النمو والربو فى الأقطار المختص بالنبـــات والحيوان المغتذيات

(١) الأركان الأربعة هى : الأرض ، والماء ، والهواء ، والنار .

(٢) الاسرب ويسمى الرصاص الأسود وقيل إنه الرصاص الأبيض ، ولعله يشير إلى فلز القصدير .

النامیات فإن الأجسام من حیث هی أجسام إما أن تكون نامیة أولا فإن لم تكن نامیة فهی المعدن وإن تكن نامیة فهی النبات والحیوان، والنامیة إما أن تكون بها قوة الحس والحركة فهی الحیوان أو لم فهی النبات »٢.

وهكذا یتبین أن العرب أعطوا اهتماماً خاصاً بتعریف مصطلح المعدن كما أن المعادن المختلفة والمتعددة كانت محل دراسة وفحص من جانب كبار علمائهم وخبرائهم (شكل ١) وذلك فی وقت مبكر من تاریخ الحضارة الإسلامیة یمتد إلى القرن الثانی الهجری . وقام بعض المتخصصین منهم بتألیف كتب قائمة بذاتها فی دراسة المعادن والأحجار وبالأخص الأحجار الكریمة ونذكر من هذه الكتب على سبیل المثال : كتاب «الجماهر فی معرفة الجواهر» للبیرونی كتبه حوالی ٤٤٠هـ وكتاب «أزهار الأفكار فی جواهر الأحجار» للتیفاشی الذی وضعه حوالی سنة ٦٤١هـ (شكل ٢). وأفرد بعض علمائهم فصولا فی كتبهم الضخمة أو أبواباً فی موسوعاتهم للكلام عن المعادن والأحجار الكریمة وأنواعها وخصائصها مثل : مقالتی ابن سینا فی المعادن والآثار العلویة اللذین ضمنتهما موسوعته المسماه « الشفاء » ٣.

وأقدم نص تحت أیدینا یثبت بطریقة واضحة أنه كان عند العرب علم مستقل یختص بدراسة المعادن والأحجار هو ذلك النص الوارد فی رسائل إخوان الصفا : « أن الجواهر المعدنیة كثیرة الأنواع لا یحصی عددها إلا الله تعالى، ولكن منها مایعرفه الناس ومنها مالایعرفه، وقد ذكر بعض الحكماء ممن كانت له عنایة بالنظر فی هذا العلم والبحث عن هذه الأشیاء أنه قد عرف وعد منها نحو تسعمائة نوع كلها مختلفة الطباع والشكل واللون والطعم والرائحة والثقل والخفة والمضرة والنفع » ٤.

ومن الطریف حقا أن یذكر إخوان الصفا عن بعض الحكماء أن عدد الجواهر المعدنیة نحو تسعمائة ، وهذا الرقم لایبتعد كثیراً عن الحقیقة . فحتى عهد قریب، وقبل الاكتشافات الحدیثة ، كان عدد المعادن المعروفة یزاید قلیلا على الألف ومن هنا یتضح أن الإحصاء العربی لعدد المعادن كان دقیقاً إلى حد كبیر فی ذلك الوقت المبكر من الزمن. كما أشاروا إلى تباین هذه المعادن فی خصائصها (شكل ٣) وذلك فی قولهم: «كلها مختلفة الطباع والشكل واللون والطعم والرائحة والثقل والخفة والمضرة والنفع» . وهذا یدل على أنه كانت لهم دراسات متنوعة فی خصائص هذه المعادن بل إن النص صریح فی دلالته على وجود علم خاص بالمعادن فی هذا الوقت المبكر وذلك حینما یقول: « وقد ذكر بعض الحكماء ممن كانت له عنایة بالنظر فی هذا العلم والبحث عن هذه الأشیاء » ٥. ویؤكد هذا

الاتجاه ماذكره الدمشقى فى مرجعه المشار إليه آنفاً : « قال أهل العلم بذلك : المعدنيات والمعادن إحدى المتولدات الثلاث ولاتكاد تحصى كثرة » ، ومرة أخرى فإن النص واضح الإشارة إلى وجود علم وعلماء للمعادن .

ومع تقدم الدراسات العربية عن المعادن اكتشف علماء العرب أن الجواهر المعدنية عبارة عن مركبات . وهاهم إخوان الصفا فى معرض حديثهم عن الجواهر المعدنية يتطرقون لأوجه الاختلاف بينها إلا أنها جميعاً مركبات مؤلفة بنسب مخصوصة من العناصر الأربعة وهى : التراب ، الماء ، الهواء ، والنار ، يقول الأخوان فى ذلك : « فقدتبين بما ذكرنا أن الجواهر المعدنية كلها مع اختلاف أنواعها وطبائعها وألوانها وطعومها وروائحها وثقلها وخفتها وصلابتها ورخاوتها ولينها وخشونتها وخواصها ، ومنافعها ومضارها مركبة كلها ومؤلفة من أجزاء ترابية صلبة ثقيلة مظلمة مشفة ومن أجزاء مائية رطبة سيالة صافية بين الثقل والخفة ومن أجزاء هوائية خفيفة لينة دهنية صافيةنيرةومن حرارة قوية أوضعيفة منضجة أو مقصرة ومن تأليف على نسبة فاضلة أو دون ذلك من المناسبات التأليفية » .

وما يعنينا من النص السابق هو قولهم : « ومن تأليف على نسبة فاضلة أو دون ذلك من المناسبات التأليفية » . ترى هل إدراك إخوان الصفا أن المعادن تتركب من عناصر معينة يختلف مدلولها حسب العصر والأوان ويكون هذا التركيب بنسبة ثابتة ومحدودة ؟ إذا كان الأمر كذلك فيكون إخوان الصفا أول من وضع فكرة قانونى التركيب الكيميائى الثابت والأوزان المتحدة المشهورين فى علم الكيمياء .

وفى تعريف القزوينى للمعدنيات يظهر بوادر التعريف الحديث لهذه المواد العجيبة فهو يقول : « إنها أجسام متولدة من الأبخرة والأدخنة تحت الأرض إذا اختلطت على ضروب من الاختلاطات مختلفة فى الكم والكيف » . فهو يشير إلى أن المعادن إنما تتكون فى الطبيعة وبالطرق الطبيعية التى لادخل لإنسان فيها كما إن لها تركيباً محدداً . وحينما يقول الدمشقى أن : « المعادن أول متولد تميزت جوهريته عن التراب فهى مما له التراكم شيء على شيء ، فكأن جملة التراكم شيءعلى شيءتوحى بنمو البلورات المعدنية الصلبة من نفس المادة تدريجياً الى أن يكتمل نموها ، وفى هذا إشارة إلى تجانس الأجسام المعدنية .

القلب المكانى فى اللغة العربية

للدكتور حسين محمد شرف

حفلت اللغة العربية بكثير من الظواهر اللغوية التى ظفرت باهتمام علماء اللغة ورجالها فى القديم والحديث .

ومن هذه الظواهر : المشترك ، والأضداد ، والمترادف ، والإتباع ، والإبدال ، والقلب ، والنحت .

وفيها صنّف متقدمو أهل اللغة كتباً ورسائل كثيرة ، وأفرد لها بعضهم أبواباً فى كتبهم إلى جانب ماجاء منها متناثراً فى بقية الأبواب :

وقد عقد «جلال الدين عبدالرحمن السيوطى» (٩١١هـ) فى كتابه «المزهر فى اللغة» لكل ظاهرة من هذه الظواهر بابا جمع فيه قدراً كبيراً من مادة الظاهرة التى يعالجها الباب ، وحدد المصادر التى نقل عنها، وأشار إلى من ألف فى الظاهرة اللغوية مؤيداً ومعارضاً .

ولقد ألجأ العرب إلى ذلك ضروب من التوسع فى اللغة ، والتخفيف ، والاختصار . واختلاف اللغات لايستوجب إهمالها ، ولا يغض من شأنها ، وإنما ينبغى القول بصحتها ، والأخذ بها مع التفاوت فى الأخذ والترجيح .

وأحب أن أضع بين يدى القارئ هنا تصوراً عاماً لموقف ثلاثة من علماء العربية بالنسبة لهذه الظواهر وغيرها :

(أ) يقول العلامة «أحمد بن فارس» (٣٩٥هـ) :

«اختلاف لغات العرب من وجوه :

ــ أحدها : الاختلاف فى الحركات «كقولنا : «نَستعين ونِستعين» بفتح النون وكسرها»

قال «الفراء يحيى بن زياد» (٢٠٧هـ) : هى مفتوحة فى لغة « قريش » ، وأسد وغيرهم يقولونها بكسر النون .

ــ والوجه الآخر : الاختلاف فى الحركة والسكون ، مثل قوله : «معَكم ومعْكم» بفتح العين وسكونها .

ــ ووجه آخر ، وهو الاختلاف فى إبدال الحروف .

ــ ومنه الاختلاف فى التقديم والتأخير نحو : «صاعقة وصاقعة»

ــ ومنه الاختلاف فى الإعراب ، نحو : « مازيدٌ قائما ، ومازيدٌ قائمٌ »

– ومن الاختلاف اختلاف : الأضداد ، وذلك قول «حمير» للقائم «ثب» أى اقعد .

وكل هذه «اللغات مسماة منسوبة إلى أصحابها وهى وإن كانت لقوم دون قوم ، فإنها لما انتشرت تعاورها كل»(١).

(ب) ويقول الإمام أبو الفتح «عثمان بن جنى»(٣٩٢هـ) فى باب اللغات وكلها حجة من كتابه «الخصائص» ، مبيناً صحة هذه اللغات والوجوه ، وموضحاً بعض وجوه التمايز والتفضيل : «اعلم أن سعة القياس تتيح لهم ذلك ، ولا تحظره عليهم ، ألا ترى أن لغة «التميميين» فى ترك إعمال «ما» يقبلها القياس ولغة الحجازيين فى إعمالها كذلك ؛ لأن لكل واحد من القومين ضرباً من القياس يؤخذ به ويخلد إلى مثله ، وليس لك أن ترد إحدى اللغتين بصاحبتها؛ لأنها ليست أحق بذلك من رسيلتها ، لكن غاية مالك فى ذلك أن تتميز إحداهما ، فتقويها على أختها ، وتعتقد أن أقوى القياسين أقبل لها ، وأشد أنسابها ، فأما رد إحداهما بالأخرى فلا .

أو لا ترى إلى قول النبى – صلى الله عليه وسلم – نزل القرآن بسبع لغات كلها كاف شاف»(٢).

هـذا حكم اللغتين إذا كانتا فى الاستعمال والقياس متدانيتين مترا سلتين أو كالمترا سلتين ، فأما أن تقل إحداهما جدا ، وتكثر الأخرى جدا ، فإنك تأخذ بأوسعهما رواية وأقواهما قياساً(٣).

(جـ) ويبين الإمام «أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه»(٣٤٧هـ) موقفه من المشترك ، والتضاد ، والحركات فيقول :

– «وأما قوله فى رعد وبرق فى باب فعلت إنه يقال فيه أيضا أرعد وأبرق فإن لكل واحد من هذين معنى يخصه ولا يكون فعل وأفعل بمعنى واحد كما لم يكونا على بناء واحد إلا أن يجىء ذلك فى لغتين مختلفتين ، فأما من لغة واحدة فمحال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد ، كما يظن كثير من النحويين واللغويين ، وإنما سمعوا العرب تتكلم بذلك على طباعها ، وما فى نفوسها من معانيها المختلفة ، وعلى ما جرت به عاداتها وتعارفها ، ولم يعرف السامعون تلك العلة فيه والفروق ، فظنوا أنهما بمعنى واحد ، وتأولوا على العرب هذا التأويل من ذات أنفسهم ، فإن كانوا قد صدقوا فى رواية ذلك عن العرب فقد أخطؤوا عليهم فى تأويلهم مالا يجوز فى الحكمة ، وليس يجىء شىء من هذا الباب إلا على

---

(١) بتصرف من الصاحبى فى فقه اللغة لابن فارس السلفية ١٩ ومابعدها ١٩١٠ م .

(٢) انظر البخارى بشرح الكرمانى جـ ١٩ ص ١١ المطبعة البهية : ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م .

(٣) الخصائص ٢ – ١٠ دار الكتب المصرية ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م

لغتين متباينتين كما بينا ، أو يكون على معنيين مختلفين، أو تشبيه شيء بشيء على ما شرحناه فى كتابنا الذى ألفناه فى افتراق معنى فعل وأفعل ومن هنا يجب أن يتعرف ذلك[1] » .

— ويقول :

«وقد قيل للجارية الممتلئة اللحيمة إذا نهضت : قد ناءت . وللدابة : قد ناء بحمله: أى نهض ، ومنه قول الله — عز وجل —« مَا إنَّ مفاتحه لتنوءُ بالعصبة أولى القوة »[2] .

وقدزعم قوم من اللغويين أن النوء السقوط أيضاً ، وأنه من الأضداد وقد أوضحنا الحجة عليهم فى ذلك فى كتابنا فى إبطال الأضداد وليس هذا موضع ذكره »[3] .

— ويقول :

«اعلم أنه ليست كل كلمة تأتى بحركتين مختلفتين إلا لاختلاف معنييهما ، ولا يجوز أن تختلف الحركتان ، والمعنى فيهما واحد؛ لأن كل حركة موضوعة لمعنى ، كما أن كل حرف لمعنى .

وإن كان كثير من اللغويين يتوهمون أن الكلمة قد تفتح وتضم بمعنى واحد لخفاء الفرق بينهما عليهم ، واشتباه المعنيين عندهم وهذا الباب كثير جدا نحو: الجَهد والجُهد بفتح الجيم وضمها والضَّعف والضُّعف بفتح الضاد مشددة وضمها بذلك . . . والجَناح والجُناح ، وما أشبه ذلك[4] » .

ولابن درستويه موقف من ظاهرة القلب سوف أذكره عند دراسة تلك الظاهرة موضوع البحث .

بعد هذا التمهيد الذى وجدته ضروريا بين يدى ظاهرة القلب إحدى الظواهر التى أشار إليها التمهيد ، ومهد لها أجد أن الوقت قد حان لأنتقل إلى دراسة ظاهرة القلب المكانى فى العربية بعامة وفى أفعالها بخاصة وسوف أتناول بعون الله فى هذه الدراسة ما يأتى :

— القلب المكانى : طبيعته والدافع إليه .

— القلب المكانى عند القدامى والمحدثين وجهودهم فيه .

— القلب المكانى بين القياس والسماع .

---

(١) شرح فصيح ثعلب الورقة ٢٠ ب ، ٢١ أ .

(٢) الآية ٧٦ من سورة القصص .

(٣) شرح فصيح ثعلب الورقة ٨٤ — ب .

(٤) المصدر السابق الورقة ١٧٢ — ب

— دراسة تحليلية لهذه الظاهرة على ما جمعته من أفعال «أبي عثمان السرقسطي[1]» ونتائج هذه الدراسة .

(1) القلب المكاني طبيعته والدافع اليه :

القلب الذي أعنيه في هذه الدراسة هو القلب المكاني بمعنى تقديم بعض حروف الكلمة على بعض ، وهو أحد نوعين من القلب عقد لهما «ابن فارس» في كتابه «فقه اللغة» بابا جاء فيه :

«ومن سنن العرب القلب ، وذلك يكون في الكلمة ، ويكون في القصة .

فأما الكلمة ، فقولهم : «جذب وجبذ» و«بكل ولبك» وهو كثير ، وقد صنفه علماء اللغة .

وليس من هذا — فيما أظن — من كتاب الله — جل ثناؤه — شيء .

وأما الذي في غير الكلمات فقولهم :

— كما عصيب العلباء بالعود . .

و : . . . . كما

* كان الزناء فريضة الرجم[2] *

و :

* وكأن لون أرضه سماؤه[3] *

— كأن الصفا أوراكها

إنما أراد كأن أوراكها الصفا .

ويقولون :

— أدخلت الخاتم في إصبعي

و : . . . .

* تشقى الرماح بالضياطرة الحمر[4] *

و : . . . .

* كما بطنت بالفدن السياعا[5] *

— حسرت كفي عن السربال .

وإنما حسر السربال عن كفه .

ومثله في كتاب الله — جل ثناؤه

«خلق الإنسان من عجل»[6]

ومنه قوله — جل ثناؤه — :

«وحرمنا عليه المراضع من قبل»[7]

---

(1) أفعال أبي عثمان السرقسطي تهذيب وبسط لأفعال ابن القوطية ، وأفعال ابن القوطية مصدر أفعال ابن القطاع ، وعلى هذا تكون هذه المادة ممثلة لأكثر ماجاء من صور القلب في كتب الأفعال .

(2) الشاهد جزء من بيت للنابغة الجعدي ، والبيت بتمامه كما في شعر الجعدي ٢٣٥ دمشق ١٣٨٤ ه

كانت فريضة ما أتيت كما كان الزناء فريضة الرجم

(3) الشاهد لرؤبة كما في ديوانه ٣ .

(4) الشاهد عجز بيت لخداش بن زهير وصدره كما في اللسان ضطر :

« وتركب خيل لا هوادة فيها . . »

(5) الشاهد عجز بيت للقطامي وصدره كما في الديوان ٤٠ بيروت ١٩٦٠ :

« فلما أن جرى سمن عليها »

والفدن : القصر . والسياعا : الطين يطلى به .

(6) الآية ٣٧ من سورة الأنبياء .

(7) الآية ١٢ من سورة القصص .

ومعلوم أن التحريم لا يقع إلا على من يلزمه الأمر والنهى . وإذا كان كذلك فالمعنى وحرمنا على المراضع أن يرضعنه، ووجه تحريم إرضاعه عليهن ألا يقبل إرضاعهن حتى يرد إلى أمه[1] .

وقد آثرت ذكر أكثر ماأورده « ابن فارس » من صور القلب فى القصة ؛ لأن الإشارة إلى مثله قليلة فى كتب اللغة .

ويعرف العلامة المحقق رضى الدين الاستراباذى (٦٨٨ ه) القلب المكانى فى الكلمة ويقول :

أقول يعنى « ابن الحاجب عثمان بن عمر »(٦٤٦ه) بالقلب تقديم بعض حروف الكلمة على بعض .

– وأكثر ما يتفق القلب فى المعتل والمهموز وقد جاء فى غيرهما قليلا : نحو : «اضمحل واكرهف» فى «امضحل واكفهر » .

– وأكثر ما يكون بتقديم الآخر على متلوه : كناءٍ فى نأى ينأى وراءٍ فى رأى ولاعٍ وهاعٍ وشواعٍ فى لائع وهائع وشوائع ونحو جاء عند الخليل .

– وقد يقدم متلو الآخر على العين نحو طأمن ، وأصله طمأن[2] .

– وقد تقدم العين على الفاء كما فى أيس وجاه ،وأنيق ، والآراء . والآبار والآدر .

– وقد تقدم اللام على الفاء كما فى أشياء على الأصح[3] .

– وقد تؤخر الفاء على اللام كما فى الحادى وأصله الواحد[4] .

ويرى علماء اللغة القدامى أن القلب بهذا المفهوم قد كثر فى الكلام العربى وعرف ، يقول «ابن جنى » : «ألا ترى أن القلب قد كثر فى كلامهم حتى أن «ابن السكيت يعقوب بن إسحاق (٢٤٤ه) قد صنف فيه كتاباً وقوى جانب القول بالقلب المكانى عند القدماء عوامل منها :

– ما وجدوه من ألفاظ لم تعل فيها أحرف العلة مع وجود مقتضى الإعلال ، ومن ذلك صحة ياء أيس مع تحركها وانفتاح ما قبلها ، والقياس يقتضى أن يقال فيها : إست آئس ، كما يقال : هبت أهاب ، فعدم الإعلال مع موجبه دليل على أن أيس مقلوب عن يئس ، وأنهم راعوا «فى أيس المقلوب» من كسر الياء كسرة

---

(١) فقه اللغة لابن فارس ١٧٢ – ١٧٣ .

(٢) الرضى يقول فى طأمن بقول أبى عمرو بن العلاء .

(٣) القول بالقلب فى أشياء رأى الخليل . انظر سيبويه ٤ – ٣٨٠ .

(٤) شرح الرضى على الشافية ١ – ٢١ – ٢٢ مطبعة حجازى القاهرة .

(٥) المنصف ٢ – ٩٥ .

عين الأصل يئس ، وكان ذلك دليل القلب ومقويه[1] .

– ما وجدوه من عدم صرف ألفاظ لا مبرر لعدم صرفها أفضل من القول بالقلب ، ومن ذلك «أشياء» إذ جاء غير مصروف فى قول الله – عز وجل – «لا تسألوا عن أشياء إن تُبد لكم تَسُؤكُم .»[2] فأصله عند الخليل وسيبويه «شيئاء» ثم حدث فيه قلب مكانى ، فقدمت اللام على الفاء وصار وزنه «لفعاء» ولهذا لم ينصرف ، ولو كان أصله أشياء على وزن أفعال لانصرف كما ينصرف أحياء وأصحاب وما أشبه ذلك[3] .

– القلب يخلص من ثقل تتحاشاه اللغة وتفر منه .

● ومن ذلك «أشياء» القول بوقوع القلب فيها وقع ؛ ليخفف أصل الكلمة «شيئاء» من ثقل اجتماع همزتين بينهما ألف وهى حاجز غير حصين[4] .

● ومن ذلك «قِسِيّ» مقلوب من قووس ، والقلب يخلص من ثقل واوين وضمتين فى الأصل قووس[5] .

● ومن ذلك جاءٍ وشاءٍ وساءٍ . اسم فاعل من جاء ، وشاء ، وساء ، فى قول «الخليل» ، إذ يقول بتقديم الهمزة التى هى لام الفعل على العين ، والقول بالقلب يخلص من اجتماع همزتين ثقيلتين فى الطرف عند صوغ اسم الفاعل ووزن اسم الفاعل على رأيه فالٍ لحذف العين المؤخرة من قلب .

والقلب المكانى فى الفعل الثلاثى الأجوف مهموز اللام يراه الخليل مطردا مع اسم الفاعل[6] . ويجيزه كل من سيبويه ، والمازنى والمبرد . على ما سيتضح لنا بعد .

(ب) القلب المكانى فى كتب القدامى والمحدثين :

سلم أكثر العلماء على وجود ظاهرة القلب المكانى فى الكلمة العربية «الفعل والاسم» ودعاهم إلى القول به ماسبقت الإشارة إليه » والذى بين أيدينا من هذه الظاهرة فى مؤلفات القدامى :

١ – كلمات فى كتب النحو والصرف ، وقف عندها العلماء ، وبينوا ما فيها من القلب أو عدمه معللين لذلك ، ومنها ما جاء فى الكتاب لسيبويه ،

---

(١) انظر المنصف ٢ – ١٠٦ .
(٢) الآية ١٠٢ من سورة المائدة .
(٣) انظر المقتضب ١ – ٢٠ .
(٤) انظر شرح الراضى على الشافية ١ – ٢٩ .
(٥) انظر سيبويه ٤ – ٣٨١ .
(٦) انظر المقتضب ١ – ١١٥ – ١١٦ .

والمقتضب للمبرد ، والخصائص لابن جنى ، وغيرهم .

– يقول سيبويه : (١٨٠ هـ) «ومثل هذا – أى أشياء وغيره – فى القلب طأمن، واطمأن، فإنما حمل هذه الأشياء على القلب حيث كان معناها معنى ما لا يطرد ذلك فيه، وكان اللفظ فيه إذا أنت قلبته ذلك اللفظ ، فصار هذا بمنزلة ما يكون فيه الحرف من حروف الزوائد ، ثم يشتق فى معناه ما يذهب فيه الحرف الزائد ، وأما جذبت وجبذت، ونحوه، فليس فيه قلب ، وكل واحد منهما على حدته؛ لأن ذلك يطرد فيهما فى كل معنى ، ويتصرف الفعل فيه، وليس هذا بمنزلة ما لا يطرد مما إذا قلبت حروفه عما تكلموا به وجدت لفظه لفظ ما هو فى معناه من فعل أو واحد هو الأصل الذى ينبغى أن يكون ذلك داخلا عليه كدخول الزوائد»[1] :

وهنا يوضح سيبويه سبب القلب بين طأمن ، واطمأن ، وهو أن كل واحد منهما لا يصح أن يقوم أصلا بنفسه ، ويقول مخالفا «أبا عمرو بن العلاء» إن طأمن أصل ، واطمأن مقلوب منه ؛ لأن اطمأن مزيد ، والزيادة مدخل للتغيير وتغيير الزيادة يستدعى تغيير القلب على ما سيوضحه ابن جنى فى النص الذى سوف أنقله عنه .

ويبين أن كل من جذب وجبذ أصل قائم بنفسه لصلاحية كل منهما للتصرف التام تقول : جذب يجذب جذبا ، فهو جاذب.

وجبذ يجبذ جبذا ، فهو جابذ .

– ويقول أبو العباس «محمد بن يزيد المبرد» (٢٨٥هـ) :

« ومن المقلوب قولهم : أينق فى جمع ناقة ، وكان أصل هذه أنوق ، والعلة فيه كالعلة فيما وصفنا[2] » .

يعنى ما ذكره من استثقال الضمة على الواو :

– ويأخذ العلامة «ابن جنى» ما جاء فى كتاب سيبويه وغيره من كتب المتقدمين ، فيعرضه فى عبارة واضحة بعد أن يضع دليلا واضحا يبنى عليه القول بالقلب وعدمه فى كل لفظين وجد فيهما تقديم وتأخير فيقول :

«اعلم أن كل لفظين وجد فيهما تقديم وتأخير ، فأمكن أن يكونا جميعا أصلين

---

(١) الكتاب ٤ – ٣٨١ وسوف يوضح النص المنقول عن ابن جنى الغموض الذى يحيط بعبارة سيبويه ع

(٢) المقتضب ١ – ٣٠ .

ليس أحدهما مقلوبا عن صاحبه ، فهو القياس الذى لايجوز غيره ،وإن لم يكن ذلك حكمت بأن أحدهما مقلوب عن صاحبه،ثم رأيت أيهما الأصل ، وأيهما الفرع ، وسنذكر وجوه ذلك .

● فمما تركيباه أصلان لا قلب فيهما قولهم : جذب وجبذ ، ليس أحدهما مقلوبا عن صاحبه ، وذلك أنهما جميعا يتصرفان تصرفا واحدا ، نحو : جذب يجذب جذبا ، فهو جاذب ، والمفعول مجذوب . وجبذ يجبذ جبذا فهو جابذ ، والمفعول مجبوذ .

فإن جعلت مع هذا أحدهما أصلا لصاحبه فسد ذلك ؛ لأنك لو فعلته لم يكن أحدهما أسعد بهذه الحال من الآخر ، فإذا وقفت الحال بينهما ، ولم يؤثر بالمزية أحدهما وجب أن يتوازيا وأن يمثلا بصفتيهما معا ، وكذلك كل ما هذه سبيله .

فإن قصر أحدهما عن تصرف صاحبه ، ولم يساوه فيه كان أوسعهما تصرفا أصلا لصاحبه، وذلك قولهم : أنى الشيء يأنى ، وآن يئين ، فآن مقلوب عن أنى .

والدليل على ذلك وجودك مصدر أنى يأنى وهو الإنى ، ولا نجد لآن مصدرا كذا قال الأصمعى «عبد الملك ابن قريب ٢١٦ ﻫ) . . . . . .

فلما عدم من آن المصدر الذى هو أصل للفعل علم أنه مقلوب من أنى يأنى إنى[1] .

ويقول فى موضع آخر :

ومن ذلك – أى من المقلوب – قولهم اطمأن . ذهب سيبويه إلى أنه مقلوب ،وأن أصله من طأمن ،رخالفه «أبو عمرو» فرأى ضد ذلك . وحجة « سيبويه » فيه أن طأمن غير ذى زيادة ، واطمأن ذو زيادة والزيادة إذا لحقت الكلمة لحقها ضرب من الوهن لذلك . . . . وإذا كان فى الزيادة طرف من الإعلال للأصل كان أن يكون القلب مع الزيادة أولى ، وذلك أن الكلمة إذا لحقها ضرب من الضعف أسرع إليها ضعف آخر[2] .

٢ – كلمات جاءت فى مواطنها من معاجم العربية ، وأشار أصحاب هذه المعاجم إلى ما فيها من قلب ، ومن نماذج ذلك :

جاء فى تهذيب اللغة : «قال بعضهم : جعفه وجفعه : إذا صرعه وهذا مقلوب كما قالوا : جذب وجبذ . . .

وقد أهمل «الليث» جفع ، ولم يصح لى فيه شيء »[3].

(١) الخصائص ٢ – ٦٩ – ٧٠ .
(٢) الخصائص ٢ – ٧٤ – ٧٥ .
(٣) تهذيب اللغة ١ – ٣٨٥ .

وجاء فيه كذلك :

«وقال «شمر» جهجهت بالسبع ، وهجهجت بمعنى واحد »(١).

وجاء فيه :

« أبو عبيد عن «أبي عمرو» : أنبضت القوس ، وأنضبتها : إذا جذبت وترها لتصوت .

قلت وهذا من المقلوب »(٢).

ونقل صاحب المزهر عن الصحاح :

«وفى الصحاح : اللجز مقلوب اللزج قاله ابن السكيت فى كتاب القلب ، والحمشة مقلوب الحشمة ، وهى الغضب وكلام حوشى ووحشى ، والأوباش من الناس الأخلاط مثل الأوشاب وهو مقلوب »(٣) .

٣ ـ الأبواب التى عقدها بعض العلماء لهذه الظاهرة وجمعوا فيها ما وقفوا عليه ، ومنها :

ـ الباب الذى عقده « ابن السكيت » فى كتاب القلب والإبدال ، وهذا الباب لم أقف عليه ، وقد أشار إليه ، ونقل عنه «ابن جنى» فى الخصائص ، والمنصف(٤). وأشار إليه كذلك السيوطى فى المزهر ، وذكر أن صاحب الصحاح ينقل عنه .(٥)

ـ الباب الذى عقده أبو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤ هـ تقريبا) فى كتاب الغريب المصنف ، وأشار إليه «السيوطى» فى المزهر

وقال أبو عبيد فى الغريب المصنف باب المقلوب فمما ذكر فيه : أحجمت عن الأمر وأجحمت ، وامضحل الشىء ، واضمحل : إذا ذهب ، وشنفت إلى الشىء ، وشفنت : إذا نظرت إليه (٦).

وقد حقق الغريب المصنف الأستاذ الفاضل الدكتور رمضان عبد التواب والأمل كبير فى نشر هذا الكتاب .

ـ الباب الذى عقده أبو بكر محمد بن الحسن الأزدى (ابن دريد ـ ٣٢١هـ) فى كتاب الجمهرة بعنوان باب الحروف التى قلبت ، وزعم قوم من النحويين أنها لغات ، ومنه :

«وهذا القول خلاف على أهل اللغة والمعرفة يقال : جبذ وجذب ، وما أطيبه وأيطبه ، وربض ورضب ، وأنبض فى القوس وأنضب »(٧).

ـ الباب الذى عقده من المحدثين العالم «أحمد فارس الشدياق» فى كتابه « الجاسوس على القاموس »وجمع فيه ما أمكنه الوقوف عليه من ألفاظ القلب ، ومنه :

أكر ـ ركا : أى حفر .

ناء ـ نأى ، واستناء ـ استنأى .

شآه ـ شاءه كما فى الصحاح .

أيس يئس .

أمق العين ـ مأقها ، وفيه لغات .

---

(١) المصدر السابق ٥ ـ ٣٤٥ .
(٢) نفس المصدر ١٢ ـ ٤٧ .
(٣) المزهر ١ ـ ٢٨٥ .
(٤) الخصائص ٢ ـ ٨٨ ، والمنصف ٢ ـ ٩٥ .
(٥) المزهر ١ ـ ٢٨٢ .
(٦) المزهر ١ ـ ٢٨٤ .
(٧) الجمهرة ٣ ـ ٤٣١ .

جأف وجفأ : أصرع ، ومثله جعف وجفع.[1]

(ج) القلب المكانى قياسى أو سماعى :

اتفق كل من قال بالقلب المكانى على أن طريقه السماع لا القياس إلا ما قال به «الخليل بن أحمد» من جواز القلب فى اسم الفاعل من الفعل الثلاثى الأجوف المهموز اللام مثل : جاءٍ وشاءٍ وساءٍ ، فقد قال فيه باطراد القلب ، ووزن جاء – شاء – ساء عنده فالٍ بعد حذف العين التى قدمت عليها اللام .

وكثير من النحويين يقول فى هذه الأفعال بعدم القلب ، ووزن اسم الفاعل عندهم فى جاء – شاء – ساء – فاعٍ .

ووقف كل من سيبويه ، والمازنى والمبرد من الرأيين موقف المجيز المستحسن . وتعليق الثلاثة على الرأيين بعد عرضهما بصور متفاوته :

يقول سيبويه والمازنى : «وكلا القولين حسن جميل» [2] .

ويقول المبرد : وكلا القولين حسن [3] .

وفيما عـــدا ما قال الخليـــل باطراده ، لاتجد من قال بغير السماع .

يقول الأزهرى «أبو محمد منصور بن أحمد» (٣٧٠ ﻫ) :

«والمقلوبات فى كلام العـــرب كثيرة ، ونحن ننتهى إلى ماثبت لنا عندهم . ولا نحدث فى كلامهم ما لم ينطقوا به ، ولا نقيس على كلمة نادرة جاءت مقلوبة» [4] .

ويقول أبو الفتح عثمان بن جنى :

أما ما طريقه الإقدام من غير صنعة فنحو ما قدمنا ه آنفا من قولهم :

ما أطيبه وأيطبه ، و «أشياء» فى قول الخليل ، و «قسى» ، وقوله :

* أخـــو اليـــوم اليمى *

فهذا ونحوه طريقه الاتساع فى اللغة من غير تأت ، ولا صنعة ، ومثله موقوف على السماع ، وليس لنا الإقدام عليه من طريق القياس[5] .

ولايفوتنى قبل أن أنتقل إلى دراسة الظاهرة من وجهة نظر حديثة أن أقف عند رأى الإمام «ابن درستويه» الذى أنكر ظاهرة القلب فى اللغة ، هذا الرأى الجرىء ، فى عصره المبكر ، فابن درستويه لايوافق على القلب ، وإنما يرى أن ماجاء منه لغات ، لقوم متباينين ، ومن الجائز أن يتم تعاورها بعد الذيوع والانتشار إن كتب للكلمة المقلوبة ذيوع ، ويؤلف كتابا فى إبطال القلب يشير إليه فى شرحه على فصيح ثعلب ومما جاء فيه :

«وأما البِطِّيخ فغاكهة معروفة ، وهى بكسر الأول وتشديد الثانى على بناء فِعِّيل ، وهى عربية محضة ، وفيها لغة أخرى وهى

(١) الجاسوس على القاموس ١٧٤ وما بعدها .
(٢) الكتاب ٤ – ٣٧٨ – المنصف ٢ – ٥٣ .
(٣) المقتضب ١ – ١١٦ .
(٤) تهذيب اللغة
(٥) الخصائص ٢ – ٨٨ .

الطبيخ بتقديم الطاء ، وليست عندنا على القلب كما يزعم اللغويون ، وقد بينا الحجة فى ذلك فى إبطال القلب .

وفى الحديث كان النبى – صلى الله عليه وسلم – يأكل الطّبيخ بالرطب ، كأنه مشتق من الطبخ ، والبطيخ من معنى آخر ، وذلك أنه يقال لمكانه الذى يزرع فيه المبطخة وجمعها المباطخ مثل المقاثى ، والمقثاة»(1).

(د) الدراسة التحليلية لظاهرة القلب المكانى فى أفعال العربية :

مادة الأفعال التى تعرضت لهذه الظاهرة واتخذتها ميدانا لدراستها هى الأفعال التى جمعتها من كتاب أفعال أبى عثمان سعيد ابن محمد المعافرى السرقسطى (حوالى ٤٠٠ هـ).

وبعضها جاء فى كتاب أفعال شيخه أبى بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية (٣٦٧ هـ) .

وقد تحريت الدقة التامة فى جمع هذه الصور ، ولم يفتنى منها إلا ماغاب عن الجهد .

وانتهيت إلى جمع اثنتين وأربعين صورة من الصور التى يمكن أن تخضع لدراسة هذه الظاهرة :

وقبل عرض هذه الصور ودراستها ، والخروج بنتيجة الدراسة والتحليل أحب أن أضع بين يدى القارئ خلاصة ما يأتى :

أولا : رأى العلماء القدامى والمحدثين فى ظاهرة القلب المكانى .

ثانيا : التصور العام لهذه الظاهرة عند من يقول بها .

وبالقلب المكانى ، قال كثير من علماء اللغة والنحو على مر العصور قال به الخليل ، وسيبويه ، والمازنى ، والمبرد ، والأزهرى ، وابن دريد ، وابن جنى . وفى الدراسة السابقة ما يشير إلى ذلك ، وضوعف عدد القائلين به على مر العصور حتى ظهرت الدراسات اللغوية الحديثة ، فأوجدت الضوابط التقريبية لذلك .

وقال به مع استغرابه من المحدثين الأستاذ المرحوم أحمد فارس الشدياق الذى جمع منه قدرا صالحا عرضه فى الصفحات ١٧٤ : ١٨١ من كتابه «الجاسوس على القاموس» إلا أنه عده غريبا حين قال :

«وفى الحقيقة فإن اللثغة والقلب والإبدال فى العربية غريب جدا لا يعرف فى غيرها من اللغات»(2) .

وكذلك قال بوجوده أستاذنا المرحوم الدكتور إبراهيم أنيس (١٣٩٨ هـ) حين أشار إلى الترادف الذى يشهد به الواقع اللغوى ، وشرح العلاقة الصوتية بين المقلوب والمقلوب منه(3) .

---

(1) شرح فصيح ثعلب ١٣٤ – ب .

(2) الجاسوس على القاموس ١٣٦ الجوائب ١٢٩٩ هـ .

(3) اللهجات العربية : ١٨٤ – ١٩٢ الطبعة الرابعة .

وإلى جانب هؤلاء العلماء الذين قالوا بالقلب ووجوده فى لغتنا العربية نجد من قال بأنه لغات ، كابن فارس ، ونجد من أبطله كابن درستويه ، وإلى هذا سبقت الإشارة فى البحث . أما عن تصور القائلين بالقلب لهذه الظاهرة فقد قالوا :

- بضرورة اتفاق المعنى بين الأصل والفرع .
- عدم وجود مصدر لكل من الأصل والفرع .
- ترداد استعمال اللفظة المقلوبة اطمئنانا لعدم سبق اللسان .

وقد أكدوا على ضرورة كون المقلوب لا مصدر له ؛ لأن وجود مصدر للمقلوب ومصدر للمقلوب منه يبطل القلب ، ويشير إلى ذلك ما يأتى من نقول :

« وأما جذبت وجبذت ونحوه فليس فيه قلب ، وكل واحد منها على حدته ؛ لأن ذلك يطرد فى كل معنى ، ويتصرف الفعل فيه » (١) .

« فأما جذب وجبذ ، فأصلان ، لأن كل واحد منهما متصرف وذو مصدر ، فإذا تصرفا هكذا لم يكن أحدهما بأن يكون أصلا لصاحبه أولى من أن يكون صاحبه أصلا له » (٢) .

« زمج قربته وسقاءه زمجا : إذا ملأهما لغة فى جزمهما .

قال ابن سيده ، وزعم يعقوب أنه مقلوب والمصدر يأبى ذلك » (٣) .

« ابن سيده أما يئس وأيس فالأخيرة مقلوبة ؛ لأنه لا مصدر لأيس » (٤) .

ومع هذا فإن ما أتوا به لم يسلم لهم جميعه ، فقد قالوا بالقلب فى أفعال لها مصادر ، ومن ذلك :

« المحكم : الجذب : المد ، جذب الشيء يجذبه جذبا ، وجبذه على القلب » (٥) .

وقد تبين لنا أن لكل من جذب وجبذ مصدرا قائما بنفسه .

« جخف الرجل يجخف بالكسر جخفا وجخافا وجخيفا : تكبر . . . . ورجل جخاف مثل جفاخ «صاحب فخر وتكبر ، وغلام جخاف كذلك عن يعقوب حكاه فى القلب » (٦) .

ولجخف مصدر كما جاء فى نص عبارة اللسان .

---

(١) سيبويه ٤ — ٣٨١ .
(٢) الخصائص ٢ — ٤٣٩ .
(٣) اللسان — زمج .
(٤) اللسان — يئس .
(٥) المحكم ٧ / ٥٦ .
(٦) اللسان — جخف .

صور الظاهرة كما جاءت فى كتاب أفعال السرقسطى الذى هذب وبسط فيه كتاب ابن القوطية :

م	مادة القلب	الجزء والصفحة
	الهمزة	
١	أيس من الشيء مثل يئس .	١ / ١١٤
	الباء	
٢	وبسبس بوله بسبسة ، وسبسبه سبسبة : إذا أرسله .	٤ /١٣٢
٣	الفراء ، يقال : بخبخوا عنكم من الظهيرة ، وخبخبوا : أى أبردوا .	١ / ٥٠٩
	الثاء	
٤	وثتنت لثته ثَتْناً وشتَناً : تغيرت ريحها . ويقال أيضاً ثَـنِتَ بتقديم النون بمعناه .	٣ / ٦٢٩
٥	وقال الآخر : (رؤبة الديوان ١٥٠) : ﴿ يكاد شفاف الرياح يثرمه ﴾ ويروى يرثمه ، يقال هو الأرثم والأثرم ، وقوله شفاف أى أدنى هبوب . يرثمه : يكسره .	٣ / ٦٢٦
٦	وثفوت الشيء ثفوا : كنت معه فى إثره ، كأنه مقلوب عن أثفت الشيء : تبعته .	٣ / ٦٢٠
	الجيم	
٧	قال أبو عثمان : وجحا بالمكان يجحو مثل حجا كأنه مقلوب : إذا لزمه .	٢ / ٣١١
٨	وجذبت الشيء جذباً ، وجبذته جبذاً : مددته إلى نفسى . . . وجذبت . . . نفس الإنسان وطباعه وعادته إلى كذا : مثله ، وجذبت الدابة وجبذته : فطمته عن الرضاع .	٢ / ٢٩٠

م	مادة القلب	الجزء والصفحة
٩	قال أبو عثمان : قال الأصمعى : جفخ وجخف : تكبر ، وبه جفاخ وجخاف أى كبر	٢ / ٢٩٦
١٠	وجلفت الطين عن الأرض : قشرته ، وجلفت اللحم عن العظم : كشطته وجلفت الشحم عن الجلد : مثله ... ... ويقال فى جميع ذلك : جنل جفلا .	٢ / ٢٨٩
١١	ويقال : جهجهت بالأسد وهجهجت به مقلوب : إذا صحت	٢ / ٣١٦
	الحاء	
١٢	وقال الأصمعى : حجحج عن الأمر وجحجح : إذا كف ... ... وقال العجاج ، (الديوان ٣٨٩) : « حتى رأى رائيهم فحجحجا »	١ / ٤٢٧
	الخاء	
١٣	الفراء : خجخجت ، وجخجخت : إذا لم تبد ما فى نفسك	١ / ٥٠٩
	الذال	
١٤	ويقال : اذمقر اللبن مقلوب عن امذقر : إذا انقطع من الحموضة ، فتصير خثارته كالخيوط فى مائه	٣ / ٦١١
	الراء	
١٥	رأيت الشيء رؤية ، ورأيا ، ومرآة ، ... ... قال أبو عثمان : ويقال : راء مقلوب بمعنى رأى ، قال قيس ابن الخطيم (الديوان ٤٧) : فليت سويدا راء من فر منهم ... ومن خرّ إذ يحدونهم بالكتائب	٣ / ٤٩
١٦	ويقال : اردعفت الإبل ، وادرعفت : إذا مضت على وجوهها ...	٣ / ١١٣
	الزاى	
١٧	تقول : زجمت القربة مثل جزمتها : إذا ملأتها	٣ / ٤٦٦

م	مادة القلب	الجزء والصفحة
	السين	
١٨	سئفت اليد سأفا : تشقق ما حول الأظفار ... ... قال أبو عثمان : وزاد أبو زيد ، وسأفت أيضاً بفتح الهمزة وسفيت أيضاً مقلوب غير مهموز .	٣ / ٥٥٩
١٩	وسبسب بوله ، وبسبسه : إذا أرسله	٣ / ٥٧٣
٢٠	وسمحت الإبل سمحاً ، وسمست الإبل سمحاً وسحوماً : سارت سيراً شديداً	٣ / ٤٠
	الشين	
٢١	وشآك الشيء أيضاً : أحزنك ... ... قال أبو عثمان : وشاءك أيضاً أحزنك ، وأنشد للحارث بن خالد المخزومي : مر الحمول فما شأونك نقرة ولقد أراك تشاء بالأظعان فجاء باللغتين .	٢ / ٣٥٥
٢٢	وشنئت الشيء شنفاً مثل شنفت : نظرت إليه ، وأنشد أبو عثمان للعجاج (الديوان ٤٩١) : * أزمان غراء تروق الشنفا * تروق الشنفا : تعجب من نظر إليها . قال أبو عثمان : وقال أبو زيد : شنف له ، وشفن له : إذا نظر إليه نظر البغضة .	
	الصاد	
٢٣	وصقعت الصاقعة : أصابت مقلوب عن صعقت الصاعقة	٣ / ٤١٥
	الضاد	
٢٤	وضفع الرجل ضفعاً : سلح ، وفضع أيضاً مقلوب بمعناه	٢ / ٢٣١
٢٥	قال أبو عثمان : يقال اضمحل الباطل اضمحلالا : ذهب ... ... وقال يعقوب : اضمحل الشيء وامضحل مقلوب : ذهب .	٢ / ٢٤٣

م	مادة القلب	الجزء والصفحة
	الطاء	
٢٦	طأمن الرجل ظهره ورأسه ، وطمأن مقلوب	٢ / ٢٨٤
٢٧	وطخم الرجل طخماً : تكبر ... ... وطمخ طمخاً : مثله .	٢ / ٢٦٩
	العين	
٢٨	قال : وإذا عنت العظم المجبور قيل : أتعب وأعتب . قال ذو الرمة (الديوان ٦٢٩) : إذا نال منها نظرة هيض قلبه بها كانهياض المتعب المتتمم	٣ / ٣٥٨
٢٩	وعثا عثواً ، وعثى عثيّ : أفسد ، مقلوبن عن عاث ... ... قال أبو عثمان : وهما أفصح من عاث .	١ / ٣١٤
٣٠	وعادك الشيء : صرفك مقلوب عن عداك	١ / ٢٤٢
٣١	قال أبو عثمان : وعق الماء فهو عقاق مقلوب من قعاع : إذا اشتدت مرارته ، قال الراجز الجعدي : * بحرك عذب المــاء ما أعقه *	١ / ٢٠٧
٣٢	قال أبو عثمان ، قال ابن الأعرابي (محمد بن زياد ٢٣١ هـ تقريباً) : يقال : عفقس الرجل خلقه عفقسة ، وعقفسه عقفسة : إذا أساءه بعدما كان حسن الخلق .	١/٣١٧
٣٣	وقال بعضهم : هذيل تقول : غذ مرتك الشيء وغذر متكه مقلوب : أي بعتكه جزافاً من غير كيل ولا وزن ، قال (أبو جندب) الهذلي (الديوان ٨٣) : فأهف ابنـة المجنون ألا أصيبه فأوفيـه بالصاع كيلا غذارما	٢ / ٤٥
	القاف	
٣٤	قال أبو عثمان : وقال أبو بكر : قحخا بطنه قحخوا : فسد مثل قاخ .	٢ / ١٢٨
٣٥	قال : وقال أبو عبيد قلقلت الشيء ولقلقته مقلوب : إذا حركته ، وتقاقل هو وتاقلق : إذا اضطرب ... ... ويقال للفرس الجواد السريع يتقلقل ويتلقلق . لغتان .	٢ / ١٣٤

م	مادة القلب	الجزء والصفحة
٣٦	وشقع الرجل فى الإناء يشقع شقعا : إذا شرب مثل كرع ، ومثله قبع وقمع ومقع .	٢ /٣٧٨
	الكاف	
٣٧	ويقال كمخه باللجام ، وكخمه مقلوب : إذا ضربه به . وأكمخ بأنفه إذا تكبر ، وأكخم الرجل أيضاً مقلوب : إذا رفع رأسه تكبراً وعظمة . ومنه الكيخم مقلوب كيمخ ، وهو الملك العريض والسلطان العظيم .	٢ / ١٥٣
	الميم	
٣٨	ومحثت الشيء أمحثه محثاً : دلكته دلكاً شديداً . ويقال أيضاً حثمته أحثمه حثماً بمعناه .	٤ / ١٨٩
٣٩	قال أبو عثمان : يقال امذقر اللبن إذا تقطع من الحموضة حتى ينفصل ، فتصير خثارته كالخيوط فى مائه . ويقال أيضاً اذمقر مقلوب ، وقد يكون ذلك أيضاً فى الدم .	٤ / ٢١٨
	النون	
٤٠	نأى الشيء نأيا : بعد . . . . قال أبو عثمان : ويقال : ناء بمعنى نأى مقلوب : إذا بعد ، قال طفيل الغنوى (الديوان ١٨ برواية بانت) : وكنت إذا ناءت به غربة النـوى شديد القوى لم تدر ماقول مشغب	٣ / ٢٣٥
٤١	ونخج الرجل المرأة : جامعها . قال أبو عثمان : ونخجها ، ونحجها أيضاً مثله . . . . قال : ونجخ السقاء : وضعه على ركبتيه بمخضه . ويقال أيضاً نخج فى السقاء .	٣ / ٢١٥
٤٢	ونزغ الشيطان بينهم نزغاً : أفسد . قال أبو عثمان : ونزغت أنا بينهم أيضاً . قال أبو الحسن بن كيسان (محمد بن أحمد بن إبراهيم ٣٢٠ هـ تقريباً) النزع : الكلام الذى يغرى بين الناس . قال ويقال : نغز بمعنى نزغ ، يقال : أخرجوا النغاز من بينكم والنزاغ أيضاً .	٣ / ٢٠٢

إذا رجعنا إلى الصور السابقة ، والتى سمع فيها القلب المكانى وعددها اثنتان وأربعون[1] وجدنا أن «أبا عثمان» قد ذكر مصدرا لكل من اللفظتين فى سبع منها وهى الصور المميزة بالأرقام : ٢ — ٨ — ١٩ — ٢٠ — ٢٧ — ٣٢ — ٣٨ ووجدنا أن لسان العرب — وقد آثرته فى الدراسة ؛ لأن اللسان كما يقول مؤلفه فى مقدمته يقوم على تهذيب الأزهرى ، ومحكم ابن سيده ، وصحاح الجوهرى، وأمالى العلامة محمد ابن برى، وكتاب النهاية لابن الأثير وهى من أمهات الكتب — قد ذكر مصدر الكل من اللفظتين فى ثلاث عشرة صورة وهى المميزة بالأرقام ٥ — ٩ — ١٠ — ١١ — ١٢ — ١٧ — ٢٢ — ٢٤ — ٢٦ — ٢٩ — ٣٣ — ٣٤ — ٣٦ .

أى أن عشرين صورة من صور ماقيل فيها بالقلب تخرج من إطار الظاهرة ؛ لأن كلا من اللفظتين أصل قائم بنفسه ، وليس أحدهما بأولى من الآخر بالأصالة.

ووجدنا أن سبع صور منها من العلماء من قال إنها لغات، ومنهم من قال بالقلب والصور هى :

١ — (أيس — يئس) جاء فى اللسان — أيس :

« الجوهرى : أيست منه آيس يأسا لغة فى يئست منه أيأس يأسا ومصدرهما واحد .

ابن سيده : أيست من الشىء مقلوب عن يئست ، وليس بلغة فيه » .

٢١ — (شأى / شاء) جاء فى اللسان شأى :

«وشآنى الشىء شأوا : أعجبنى ، وقيل : حزننى .

الأصمعى شآنى الأمر مثل شعانى ، وشاءنى مثل شاعنى : إذا حزنك ، وقد جاء «الحارث بن خالد المخزومى» فى بيته :

مر الحمول فما شأونك نقرة

ولقد أراك تشاء بالأظعان

باللغتين جميعا .

٢٣ — (صعق — صقع) جاء فى اللسان / صقع :

« ويقال صقعته الصاعقة ، قال الفراء : تميم تقول : صاقعة فى صاعقة . . .

« وصقع الرجل كصعق ، والصاقعة كالصاعقة حكاه يعقوب » .

وجاء فيه صعق كذلك :

صعق صعقا وصعقاً : أصابته الصاعقة ، وفيها ثلاث لغات صاعقة ، وصعقة ، وصاقعة » .

٢٥ — (اضمحل — امضحل) ، جاء فى اللسان / اضمحل :

« اضمحل الشىء واضمحن على البدل عن يعقوب ، وامضحل على القلب » . .

والدليل على القلب أن المصدر إنما هو على اضمحل دون امضحل وهو الاضمحلال ، ولايقولون امضحلال »

(١) فى صورتين من هذه الصور تكرار ، وهذا يدل على أن أبا عثمان جعل كلا منهما أصلا مستقلا .

وجاء فى اللسان / ضحل : « وفى لغة الكلابيين « امضحل » » بتقديم الميم حكاها أبوزيد » .

٣٥ — (قاقل — لقلق) جاء فى اللسان—قاقل :

« قلقل الشيءقلقلة وقلقالا أى حركه ، والقلقلة شدة اضطراب الشيءوتحركه ،وهو يقاقل ويلقلق .

أبو عبيد قلقلت الشيء ولقلقته بمعنى واحد ، وقيل إنهما لغتان » .

٣٧ — (كمخ — كخم) ذكر صاحب اللسان مصدرا لكل من أكخم وأكمخ وذكر مصدراً للفعل كخم الثلاثى ، فقال :

« والكخم : المنع والدفع ، تقول : كخمته كخما إذا دفعته » .

وعلى هذا ينحصر القلب بين كخم وكمخ ، والمصدر لكخم دون كمخ .وجاء فيه مايشير إلى أن الإكخام ، لغة فى الإكماخ ، ونص عبارته الإكخام لغة فى الإكماخ .

أى أن عندنا ست صور تضاف إلىماذكر له مصدران على القول بأنها لغات واذارجعنا إلى الصورة ٣١ نجد فيها خلافا كذلك بين من يقول بالقلب ومن يقول بأن كلا من الصورتين أصل والصورة :

(عق — قع) جاء فى اللسان — عق :

وأعقت الأرض الماء : أمرته ، قال الجعدى :

* بحرك بحر الجود ما أعقه *

وأما «ابن الأعرابى» . فقال : أراد مأأقعه من الماء القع . وهو المر أو الملح فقلب . وأراه لم يعرف ماء عقا ؛ لأنه لو عرفه لحمل الفعل عليه ، ولم يحتج إلى القلب» .

يتبقى لنا من الصور التى أمكن جمعها خمس عشرة صورة ،منها ست صور أفعالها غير ثلاثية وهى :

٣ — « خبخب — بخبخ » لم تورد كتب اللغة التى وقفت عليها مصدرا لأى من الفعلين .

١٣ — « خجخج — جخجخ » ذكر اللسان مصدرا للفعل خجخج .

١٤ — « اذمقر — امذقر » ذكر مصدرا للفعل امذقر .

١٦ — « ادرعف — اردعف» لم تورد كتب اللغة التى وقفت عليها مصدرًا لأى من الفعلين.

٢٨ — « أتعب أعتب » لم تورد كتب اللغة التى وقفت عليها مصدراً لأى من الفعلين.

٣٩ — « مكرر ١٤ » ذكر اللسان مصدرا للفعل امذقر كما تقدم .

وهذه الصور تمثل أفعالا غير ثلاثية ، وإذا قسناها بقياس كون مصادر الأفعال الزائدة على ثلاثة غير سماعى ، تركت هذه النظرة ظلا من التحفظ أمام هذه الصور .

وعلى هذا يكون مابقى فى أيدينا من الصور التى خلصت لظاهرة القلب تسع صور هى :

٤—٦ — ٧ — ١٥ — ١٨ — ٣٠ — ٤٠ ٤١ — ٤٢ .

نتائج الدراســة

بعد هذه الدراسة المتواضعة أستطيع أن أسجل النتائج التى وصلت بنا إليها الدراسة على الوجه الآتى :

ـ إذا سلمنا بأن ظاهرة القلب المكانى فى الكلمة ظاهرة يسلم بها الواقع اللغوى، وأبعدنا احتمالات خطأ عيوب السمع واللسان والتصحيف فإن وجود تسعة أفعال أو أكثر تمثل ظاهرة القلب بصدق فى كتاب الأفعال للسرقسطى الذى يضم مايقرب من خمسة آلاف فعل يعتبر قطرة من بحر .

ـ هذه الألفاظ التى قيل فيها بالقلب يلتقى فيها الأصل والفرع فى معنى واحد من المعانى الكثيرة التى يعبر عنها الأصل فى استعمالاته اللغوية المختلفة ، ومن ذلك :

« وصقعت الصاقعة أصابت، مقلوب من صعقت الصاعقة » .

وقد يلتقى الأصل والفرع فى أكثر من معنى إلا أنها محدودة على كل حال، ومن ذلك :

وجلفت الطين عن الأرض قشرته ، وجلفت اللحم عن العظم كشطته ، وجلفت اللحم عن الجلد مثله ، ويقال فى جميع ذلك جَنَل جفلا .

ـ العقل يميل إلى ماقال به « ابن درستويه » من وجود فروق دقيقة بين الأصل والفرع ؛ لأننا إذا رجعنا إلى المادة الواحدة فى كتب اللغة وجدنا أن منها مايشغل الصفحات باستعمالاته المتفاوتة ، وإذا تفاوت معنى اللفظ الواحد من تركيب إلى تركيب، فإن التفاوت بين الأصل والمقلوب منه من باب أولى .

ـ المنطق يستبعد على البيئة الواحدة فى زمن واحد استخدام الأصل والفرع للمعنى الواحد وإنما يرجح أن يكون استعمال الأصل فى بيئة والفرع فى بيئة أخرى . أو لبيئة واحدة فى زمنين مختلفين نتيجة تطور لغوى، ويرجح ذلك ماجاء فى أمالى القالى :

«أتقول مثل حلك الغراب أو حنكه؟ فقال : لا أقول مثل حلكه[1]. والقلب صنو الإبدال ».

ولا يتأتى استعمال البيئة الواحدة للأصل والفرع فى وقت واحد إلا إذا قلنا : إن أحد اللفظين لها والآخر مستعار من لغة أخرى .

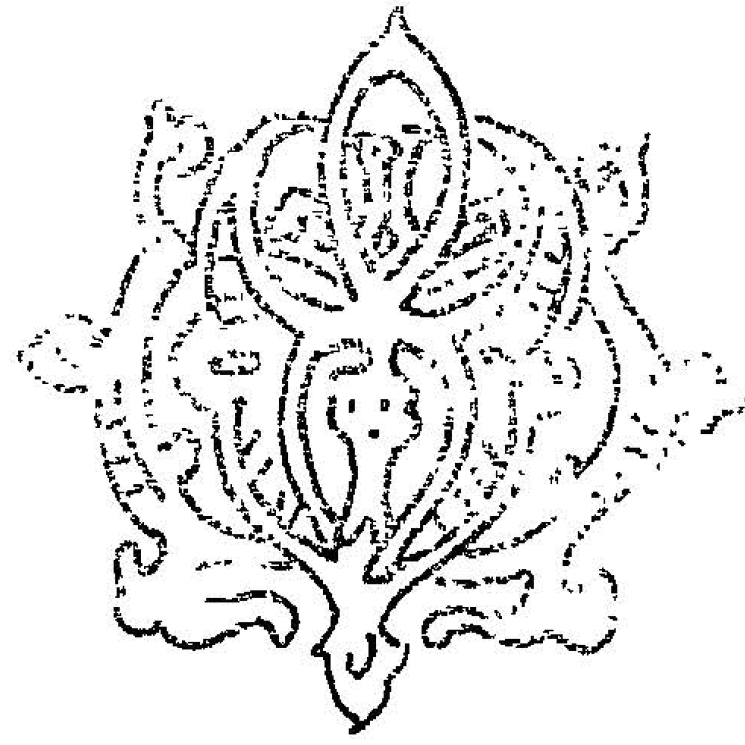
ـ يقول البعض إن أكثره يقع فى المهموز والمعتل ، والواقع الذى تشير إليه الدراسة تجعله قسمة عادلة بين الصحيح والمعتل والمهموز .

(١) أمالى القالى ٢ / ٤٤ .

- يجب حمل الكلمة على أصلها الأول، ولا يقال بالقلب إذا أمكن القول بأصالة اللفظتين، ولا نقول كذلك بالقلب إلا إذا ثبت ورود الأصل والفرع فى رواية صحيحة، فيكون التسليم به ضرورة من الضرورات[1].

وبعد فهذه دراسة متواضعة لدراسة القلب المكانى إن كنت قد حققت فيها بعض الصواب فمن الله التوفيق والسداد، وإن كانت الأخرى فلله وحده الكمال والجلال.

حسين محمد شرف



(١) الخصائص ٢ / ٨٢ - ٨٨.

المُرَكَّبُ الاسْمِىّ

للدكتور محمود عبد السلام شرف الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وسيد المرسلين سيدنا محمد النبي الأمين .

وبعـــد :

فهذا بحث جديد وليس بجديد : أما الأخيرة فإن المعلومات النحوية التى تحويها هذه الورقات قد قالها النحويون القدماء — جازاهم الله خير الجزاء :

وأما الأولى فإن هذه المحاولة من أولى المحاولات التى تجمع أطراف هذا الموضوع فى معالجة خاصة ، فالمعلومات التى فى ثنايا هذا البحث متفرقة فى المراجع النحوية .

كما أن هذا البحث يصدر عن رؤية معينة تذهب إلى أن من الممكن تقديم نحو اللغة العربية من خلال تبويب جديد يأخذ فى اعتباره طبيعة اللغة فى التركيب .

لهذا كانت هذه الورقات عما أسماه القدماء بالمركب ، وعنوا به ما ليس بمفرد ولا جملة ، فهو بين بين ، ولكن حديثهم عنه جاء متفرقا مبثوثا ، وهدفى من الكتابة فى هذا الموضوع بهذه الطريقة :

١ — الانعتاق من ربقة التبويب النحوى الذى لجأ إليه النحاة التعليميون .

٢ — تقديم نحو العربية من وجهة نظر تركيبية ترى للغة وحدات تركيبية يوظف بعضها داخل بعض ، فالمفرد عنصر فى المركب ، والمركب يوظف داخل الجملة الصغرى وهكذا .

٣ — تجميع أقوال النحويين القدماء ، لأنهم تنبهوا إلى هذا التلاحم السابق وإن اتخذ تبويبهم لمسائل النحو شكلا آخر :

هذا ، وهناك بعض المراجع التى أفدت منها أيما إفادة فى النظرة العامة إلى هذا الموضوع بل إن بعضها هو ما دفعنى إلى إفراد هذا الموضوع بحديث خاص أذكر منها :

— الكتاب لسيبويه .

— شرح المفصل لابن يعيش .

— شرح الكافية للرضى أكتوبر ١٩٧٩

(وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) :

مداخل

معنى النحو :

النحو هو العلم الذى بأصوله وقواعده نعرف أحوال الكلمات حال تركيبها ، أو هو البحث عن علاقة الكلمة بما قبلها وما بعدها وما يستتبعه هذا من الوقوف على أحكام إعرابها وبنائها :

قال تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس ». (١)

هذا الجزء من الآية الكريمة عبارة عن تركيب تجاورت كلماته وتداخلت ورتبت على نسق معين ، فلكل كلمة فيه علاقة بما قبلها وما بعدها . واعراب الجملة السابقة يثبت المقولة السابقة بوضوح ، فكلمة «خير» مثلا — خبر كان قبلها ، ومضاف إلى «أمة» بعدها ، و أمة مضاف إليه بالنسبة إلى خير قبلها ، وموصوف بالنسبة إلى مابعدها .

حضر رجال العلم :

تعتبر كلمة رجال ، فى المثال السابق فاعلا من حيث علاقتها بالفعل حضر قبلها ، ومضافا من حيث علاقتها « بالعلم » بعدها ولا تعارض بين الاعتبارين السابقين ، لأن الاعتبار الأول ينظر فيه إلى وظيفة الكلمة فى الجملة ، والاعتبار الثانى ينظر فيه إلى أنها عنصر فى مجموعة كلامية وهى مركب (المضاف والمضاف إليه)(٢) .

مصطلحات النحو وشجرة التحليل :

النحو أصل من أصول العلوم العربية ومن أسبقها إلى الوجود ومنه استمدت علوم عربية بعض أصولها ، وقد حظى النحو العربى بمصطلحات وفيرة اتفق عليها المشتغلون بصناعة النحو والقائمون على امر سلامة اللغة العربية ، فهناك مصطلحات الإعراب والبناء والعدد ، والنوع ، والتعريف والتنكير ، كما ان هناك مصطلحات خاصة بالمواقع النحوية للكلمات .

وقد اعتاد اجدادنا النحويون أن يقدموا وصفا دقيقا لما عليه الكلمات فى التراكيب وهم يعربون . ففى قوله تعالى — مثلا :

«يمحق الله الربا ويربى الصدقات»(٣) .

نراهم يعربون كلمتى «الربا» و«الصدقات» مثلا على النحو التالى :

«الربا» مفعول به ، منصوب بفتحة مقدرة على آخره ، منع من ظهورها التعذر .

«الصدقات» مفعول به ، منصوب بالكسرة ، لأنه جمع مؤنث سالم .

---

(١) آل عمران — ١١٠ (٢) يمكننا مقارنة جملنا بـ «دراما» صغيرة تلعب فيها الكلمات والعناصر اللغوية الأخرى دور الممثلين ، فربما يلعب الممثل الواحد أكثر من دور فى الجملة الواحدة .

Alexander, Hulert G; meaning in languag; pp. 70,71·u.s.a· 1969.

(٣) البقرة — ٢٧٦ .

وهذا الإعراب الذى قد يرميه بعض قاصرى النظر من أعداء الفكر الإسلامى عامة والفكر النحوى خاصة بالإطالة أو باللغو . أقول هذا الإعراب يكشف عن منهج فكرى منظم يهدف إلى تبين ما يلى :

أولا : موقع الكلمة أو وظيفتها فى التركيب ، فى هذا كشف علاقتها بما يجاورها .

ثانيا : الحالة الإعرابية التى تلتبس بها الكلمة وهى تؤدى هذه الوظيفة .

ثالثا : علامة الإعراب أى شكل آخر الكلمة ، فالحالة الإعرابية قد يكون لها أكثر من علامة .

رابعا : سبب تقدير الحركة ، إذا كانت غير ظاهرة ، وسبب الإعراب الفرعى إن وجد وسوف أقدم إعرابى للأمثلة على شكل ما يسمى بشجرة التحليل Tree Diagram التى يظهر عليها المثال المحلل متدرجا تدرجا تنازليا حتى تنتهى الشجرة بأفرع للعناصر المفردة إذا ما اتجهنا منها إلى أعلى نتدرج تدرجاً تصاعديا . وهدفى من وراء اللجوء إلى هذه الطريقة تعليمى بحت ، وسوف أراعى فى رسم شجرة التحليل ما يلى :

أولا : تفريع الشجرة إلى فرعين : فرع للمسند إليه ، وآخر للمسند — كما يردان فى المثال وفرع ثالث للمكمل ، وهو ماسوى المسند والمسند إليه فمستوى التحليل فى هذه المرحلة يرتكن إلى المعنى ومفهوم المثال .

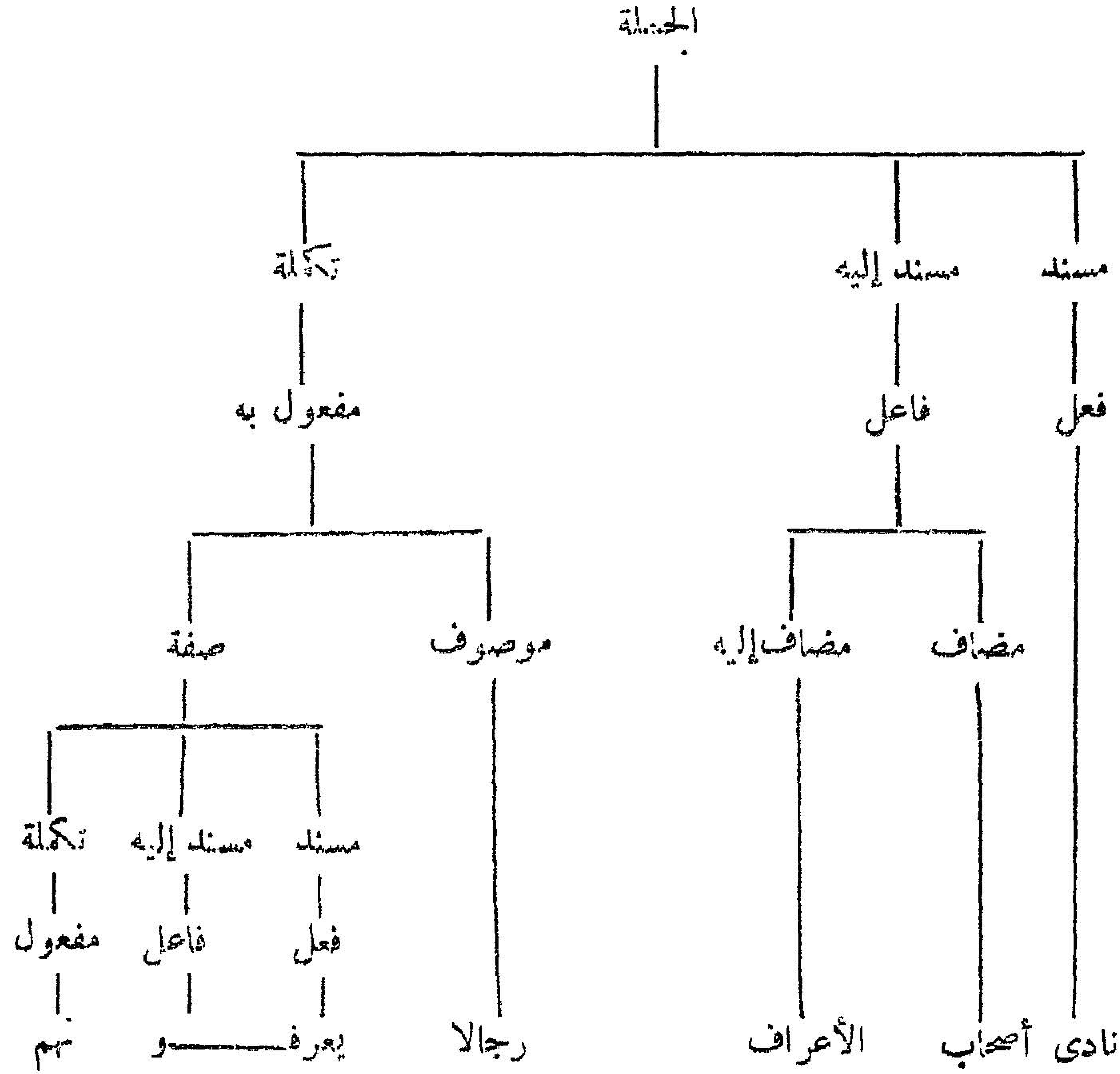
ثانيا : مد الأفرع السابقة لتصبح أفرعا للوظائف النحوية التى تقوم بها الكلمات فمستوى التحليل فى هذه المرحلة يستند إلى الوظيفة .

ثالثا : قد يتوقف تفريع الشجرة عند المستوى السابق ، إذا كانت العناصر التى شغلت المواقع النحوية مفردة أو مركبة تركيبا مزجيا ، لكننا سنستمر فى تفريع الشجرة إذا كان فى المثال عنصر غير ماسبق أى غير المفرد والمركب المزجى ، ومستوى التحليل فى هذه المرحلة عماده التركيب أى تركب العنصر من أكثر من كلمة .

رابعا : رسم خطوط مستقيمة تبدأ من نهاية كل فرع فى الشجرة وتنتهى جميعا على خط مستقيم ، ونكتب تحت كل خط مستقيم العنصر أو الكلمة التى تمثله .

وهاك تحليلا لبعض الأمثلة :

قال تعالى : ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم .



تعليقات على الشجرة :

هذه الطريقة تعليمية ، وينصح بتقديمها إلى المتخصصين الذين تمكنهم معلوماتهم فى النحو العربى من إكمال أوجه النقص التى تمنى بها هذه الطريقة ومن هذه الأوجه[1] :

(أ) الإغفال عن ذكر الحالة الإعرابية

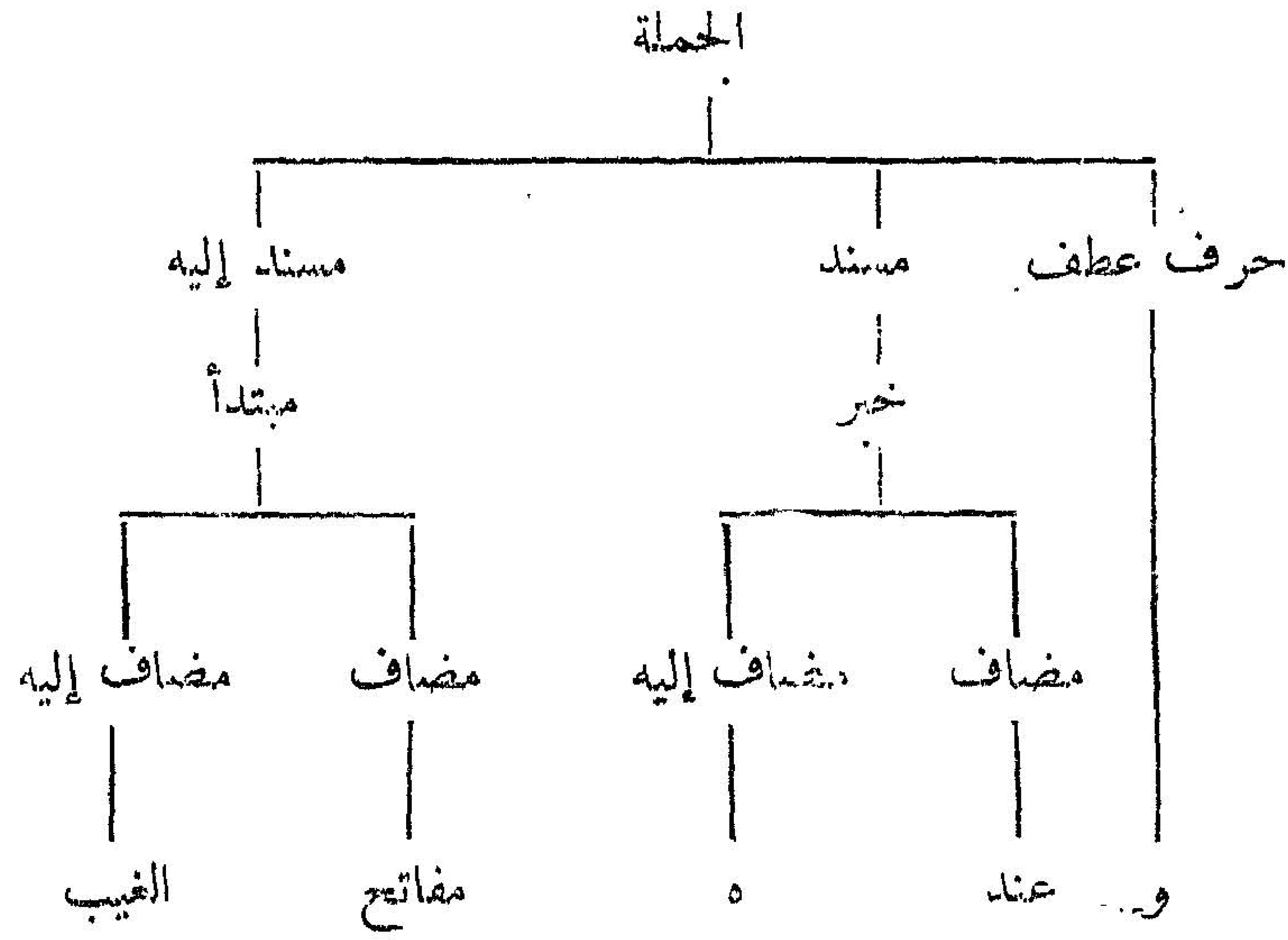
(ب) الإغفال عن ذكر العلامة الإعرابية : ظاهرة أو مقدرة ، بله سبب التقدير .

(ج) الإغفال عن تحديد الجمل التى لها محل من الإعراب . والتى ليس لها محل من الإعراب . فلم يظهر على الشجرة السابقة — مثلا — أن جملة « يعرفونهم » فى محل نصب

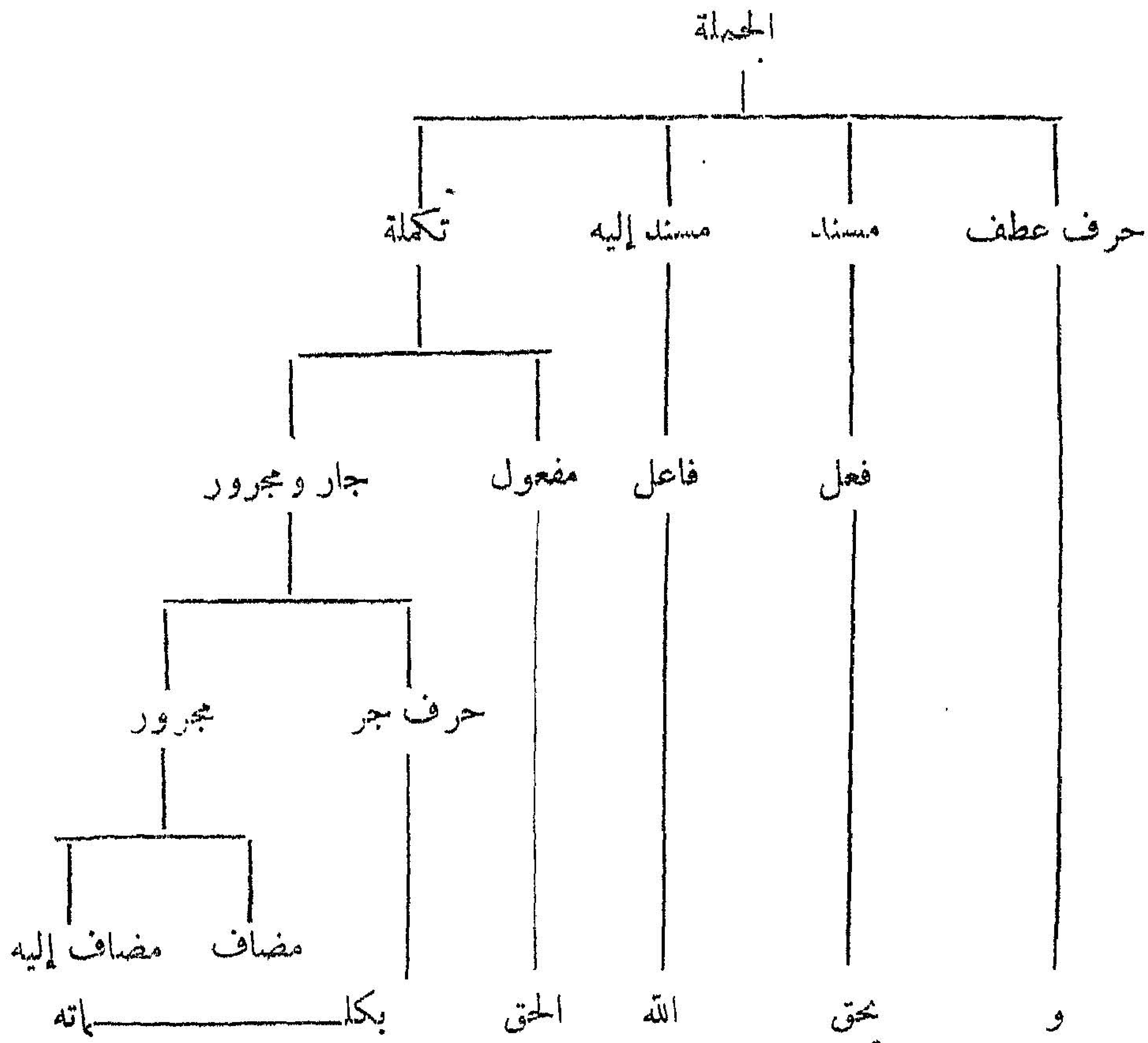
---

(١) انظر نقدا تفصيليا لتحليل الجمل بطريق شجرة التحليل فى « كم الجملة العربية » للمؤلف ، حلقة البحث اللغوى ، كلية دار العلوم ، مارس ١٩٧٧ .

قال تعالى : « وعنده مفاتح الغيب »[1] :



قال تعالى : « ويحق الله الحق بكلماته »[2] :



---

(١) الأنعام : ٥٩ .   (٢) يونس : ٨٢ .

الكم والكيف :

المقصود « بالكم » عدد العناصر التي يتكون منها التركيب . وهذا إطلاق قد يرادف « حجم » التركيب ، والعناصر التي تكوّن الجملة قد تكون ضرورية لتكوين ما أسميه التركيب الأساسي ، ثم قد تزاد هذه العناصر عناصر أخرى ، أو تنقص بعض العناصر فتنتج الزيادة ماأسميه بالتركيب الممتد ، وينتج النقص ماأسميه التركيب المجتزأ .

والمراد بـ«كيف» الجملة الطريقة التي توصف بها هذه العناصر . فهذا اعتبار يشار به إلى ترتيب الكلمات في الجملة ؛ كما يقصد به الكيفيات المختلفة التي تطرأ على التركيب من حيث كونه مثبتاً أو منفياً ؛ تقريرياً أو مؤكداً دالا على زمن ما من الأزمنة وقد يقصد بالكيف أيضاً ماقد يتحقق في التراكيب من مطابقة بين العناصر المفردة وكذا الحركة الإعرابية التي يستحقها العنصر الاسمى في الموقع النحوى المعين .

وهاك جـــدولا لبعض الجمل

رقم	الجملة	الكم	الكيف	عناصر الكيفية
١	حضر رجل	بسيطة تركيبها أساسي	فعلية مثبتة فاعلها مرفوع	
٢	ماحضر رجل	» » »	» منفية » »	ما
٣	ماحضر من رجل	» » »	» » مؤكدة فاعلها مجرور	مامن النكرة

يلاحظ في الجدول السابق أن هناك عناصر كلامية إيجابية عبرت عن الكيفية التي أريد للجملة أن تكون عليها : و «ما» في (٢) وظفت للنفى ، و« ما » و« من » وتنكير الأسم في (٣) وظفت في النفى والتأكيد والجر .

كما قد يدل على الكيفية المعينة عدم وجود عنصر كلامى أوما يسمى بالعنصر الصفرى ، أو العلامة الصفرية Zero - market فالإثبات في (١) دليلة عدم وجود علامة له .

وأخيراً يلاحظ أن عناصر الكيفيات لاتسبب تضخما في المواقع النحوية أو تغيراً في كمها . وقد يستثنى من هذا الكلمات الدالة على الشرط ، فالكلام ينعقد معها ويصبح أكبر مما كان قبل دخولها (١) . وأحياناً يحدث تلازم بين «كم» الجملة ، وكيفية معينة ، ويتحقق هذا مثلا في الحال والمفعول المطلق

---

(١) السيوطى ، جلال الدين ، الأشباه والنظائر جـ ٢ – ٥٤ ، الكليات الأزهرية ، القاهرة ١٩٧٥ .

الموكدين لعاملهما فى نحو قوله تعالى :

« فتبسم ضاحكاً » (١)

«وكلم الله موسى تكليما » (٢)

وكم التركيب يزداد بوسيلة من الوسائل التالية :

١ ـ اندراج الكلمة عنصراً فى مجموعة كلامية متلازمة متشابكة تصير وزنها بدلا ، أو نعتاً مثلا .

٢ ـ كون الكلمة من الكلمات المبهمة التى تحتاج إلى كلام بعدها لتوضيح المراد منها .

٣ ـ تعدد فى المواقع النحوية للجملة ، وغالباً مايكون الفعل مركز الدائرة لهذه المواقع .

فكم الجملة يزيد إما عن طريق تضخم الموقع (٢،١)، أو عن طريق كثرة المواقع (٢)، والحديث عن «المركب الإسمى» هو حديث عن زيادة كم التركيب عن طريق تضخم الموقع أو الزيادة فى عدد العناصر المفردة .

الوحدات النحوية :

أجمع النحويون العرب على أن أجزاء الكلام هى : الاسم والفعل والحرف . وهذا فى الواقع تقسيم للكلام حسب أنواعه . وقد فرق النحويون بين هذه الأنواع الثلاثة تفريقا بنى على المعنى حينا ، واستند إلى « الشكل » حينا آخر ، ثم إلى « الوظيفة » فى بعض الأحيان :

نوع الكلمة	الشكل	المعنى	الوظيفة
اسم	من علاماته : الجر والتنوين وأل	له معنى فى نفسه وليس الزمن جزء منه	يقع مسنداإليه ومسندا
فعل	من علاماته : تافعلت ، يا افعلى نون التوكيد ،	له معنى فى نفسه والزمن جزء منه	يقع مسندا فقط
حرف	لاعلامة له	ليس له معنى فى نفسه وله معنى فى غيره	لا يقع مسندا إليه ولا مسندا .

ومع هــذا التقسيم نجد النحويين يقسمون وحدات الكلام تقسيما يأخذ فى اعتباره حجم العنصر وكمــه وإمكانية تقسيمه إلى عناصر أبسط ، فقد ذهبوا إلى أن هناك فرقا بين المفرد والمركب (٣) فالمفرد ما لا يدل جزؤه على جزء معناه ، والمركب ما يدل جزؤه على جزء معناه (٤)

(١) النمل ـ ١٩

(٢) النساء ـ ١٦٤ .

(٣) محمد بن حسن الرضى ، شرح الكافية « ٢ حيدر اباد »

(٤) أمين السيد . فى علم النحو حـ ١ ـ ٧ دار المعارف ، القاهرة ط ١ ، ١٩٧٢ ، أنظر أيضا ، السيوطى ، همع الهوامع جـ ١ ـ ٣ ، مصر ١٣٢٧ هـ .

ثم قسم النحويون المركب إلى :

١ ـ المركب الإضافى مثل :

كتاب محمد

شجرة الورد

٢ ـ المركب المزجى : وهو كل كلمتين جعلتا كلمة واحدة ، ونزلت الكلمة الثانية من الأولى منزلة تاء التأنيث فى ظهور الإعراب عليها مثل :

بعلبك ، حضرموت ، سيبويه أحد عشر ، بين بين .

٣ ـ المركب الاسنادى : وهو كل كلمة أو ما يجرى مجراها ضمت إلى كلمة أخرى أو لما يجرى مجراها ، بحيث يفيد التركيب أن مفهوم إحداهما ثابت لمدلول الأخرى مثل :

قال تعالى : والآخرة خير وأبقى » (١)

قال تعالى « وحال بينهما الموج » (٢)

قال تعالى « وأن يستعففن خير لهن» (٣)

قال تعالى « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم » (٤) ، أن ومابعدهافى الآيتين الأخيرتين تجرى مجرى الكلمة الواحدة ، لأنها وما بعدها فى تأويل مصدر « مبتدأ » ، « فاعل » .

ومن المركب الإسنادى ما هو جملة فى أصل الاستعمال ، لكنه ينقل إلى الإسمية فيعامل معاملة المفرد ، ويعرب على الحكاية وذلك مثل :

جاد المولى

برق نحره

تأبط شرا

ولهذا معالجة خاصة .

وقدقسم اللغويون المحدثون وحدات الكلام تقسيما يقترب من تقسيم النحويين القدماء إياها إلى مفرد ومركب . فقالوا إن الوحدات التى تدخل فى نسيج الجملة هى :

١ ـ الوحدة الصرفية :

وهى الوحدة التى لا يمكن أن تقسم إلى وحدات أصغر منها كتاء الفاعل فى نحو : نجحت .

٢ ـ الكلمة :

وهى أصغر صيغة حرة مثل :

كتاب .

٣ ـ التعبير :

وهو ما يتألف من عدد من الكلمات بينها ترابط سياقى يجعل منها وحدة متماسكة يمكن أن تستبدل بها كلمة واحدة مثل :

كتاب الصديق .

---

(١) الأعلى ـ ١٧

(٢) هود ـ ٤٣

(٣) النور ـ ٦٠

(٤) الحديد ـ ١٦

٤ – الجملة الصغرى :

وهى مجموعة من الكلمات تشكل فى صورة مسند ومسند إليه أثناء جملة كبرى مثل :

محمد كتابه جديد .

ويمكن أن يعتبر (١ ، ٢) فى تقسيم المعاصرين مقابلا لما أسماه القدماء بالمفرد والوحدة الثالثة (التعبير) تقابل المركب الإضافى والمركب المزجى والمركب الإسنادى (المحكى) فى التقسيم القديم ، أماالوحدة الرابعة (الجملة الصغرى) فهى ما أسماه الأقدمون بالمركب الإسنادى .

وهاك تخطيطا للتقسيمين :

تقسيم القدماء
- مفرد
- مركب
  - إضافى
  - مزجى
  - إسنادى

تقسيم المعاصرين
- وحدة صرفية
- كلمة
- تعبير
- جملة

وأقدم الآن تقسيما آخر للوحدات النحوية :

الوحدة
- مفرد
- مركب
  - مزجى
  - غير مزجى
    - غير إسنادى
      - المتضايفان
      - المتبوع والتابع
      - المميز والتمييز
    - حيادى
    - إسنادى
      - محكى
      - غير محكى

فلسفة هذا التقسيم

يقوم هذا التقسيم على الاعتبارات التالية :

١ – المركب المزجى وسط بين المفرد والمركب غير المزجى ، وليس بمفرد لتركبه من أكثر من كلمة ، لكن عنصريه ازداد تداخلهما فاعتبرا معا كلمة واحدة ، ففارق بهذا المركب غير المزجى ، ومثله فى هذا المركب الإسنادى المحكى .

٢ – توسع فى المركب غير المزجى غير الإسنادى ليشمل أى مركب من اسمين بينهما نسبة معينة الإضافة . التبعية ، التمييز .

٣ – المراد بالمركب غير المزجى الحيادى ذلك المكون من اسم من الأسماء التى تعمل عمل الفعل ومعمول ذلك الاسم فظاهر هذا المركب الإضافة ، وحقيقته وعمقه الإسناد . فهو – إذن – وسط بين المركب غير الإسنادى والمركب الإسنادى وأيا كان التقسيم المقدم للوحدات النحوية فهى جميعا تتفق على مايلى :

أولا : أبسط عناصر التركيب هو المفرد سواء كان حرا مستقلا (كلمة) أو غير مستقل كالوحدة الصرفية الضميرية والمركب المزجى والإسنادى المحكى يعاملان معاملة المفرد .

ثانيا : يلى ما سبق المركب غير المزجى غير الإسنادى ، فهو وإن كان أكبر من المفرد لا ينعقد به كلام تام .

ثالثا : يأتى فى قمة الوحدات المركب الإسنادى أو الجملة التى بين طرفيها علاقة إسنادية ينعقد بها الكلام ، أى يفيد فائدة يحسن السكوت عليها .

العلاقة بين هذه الوحدات تركيبا ووظيفة :

معنى تركيب الجملة من الوحدات السابقة أن اللغة عبارة عن مركب تشكل الوحدات الأكبر حجما فيه من وحدات أبسط منها أو أصغر . فالكلمة مكونة من أصوات ووحدات صرفية والمركب مكون من كلمات ، والجملة الصغرى من مركبات ، ففى الحديث عن تركيب الوحدة نتدرج من الأعلى إلى ما هو أسفل منه . لكننا لكى نتعرف على وظيفة الوحدة النحوية نقوم بحركة صاعدة ، إذ الوحدات توظف فيما هو أعلى منها ، فالوحدة الصرفية توظف فى الكلمة . والكلمة فى المركب ، والمركب فى الجملة الصغرى ، وهذه فى الجملة الكبرى[1] .

التركيب	الوحدات	الوظيفة
↓	الجملة	↑
↓	المركب	↑
↓	الكلمة	↑
↓	الوحدة الصرفية	↑

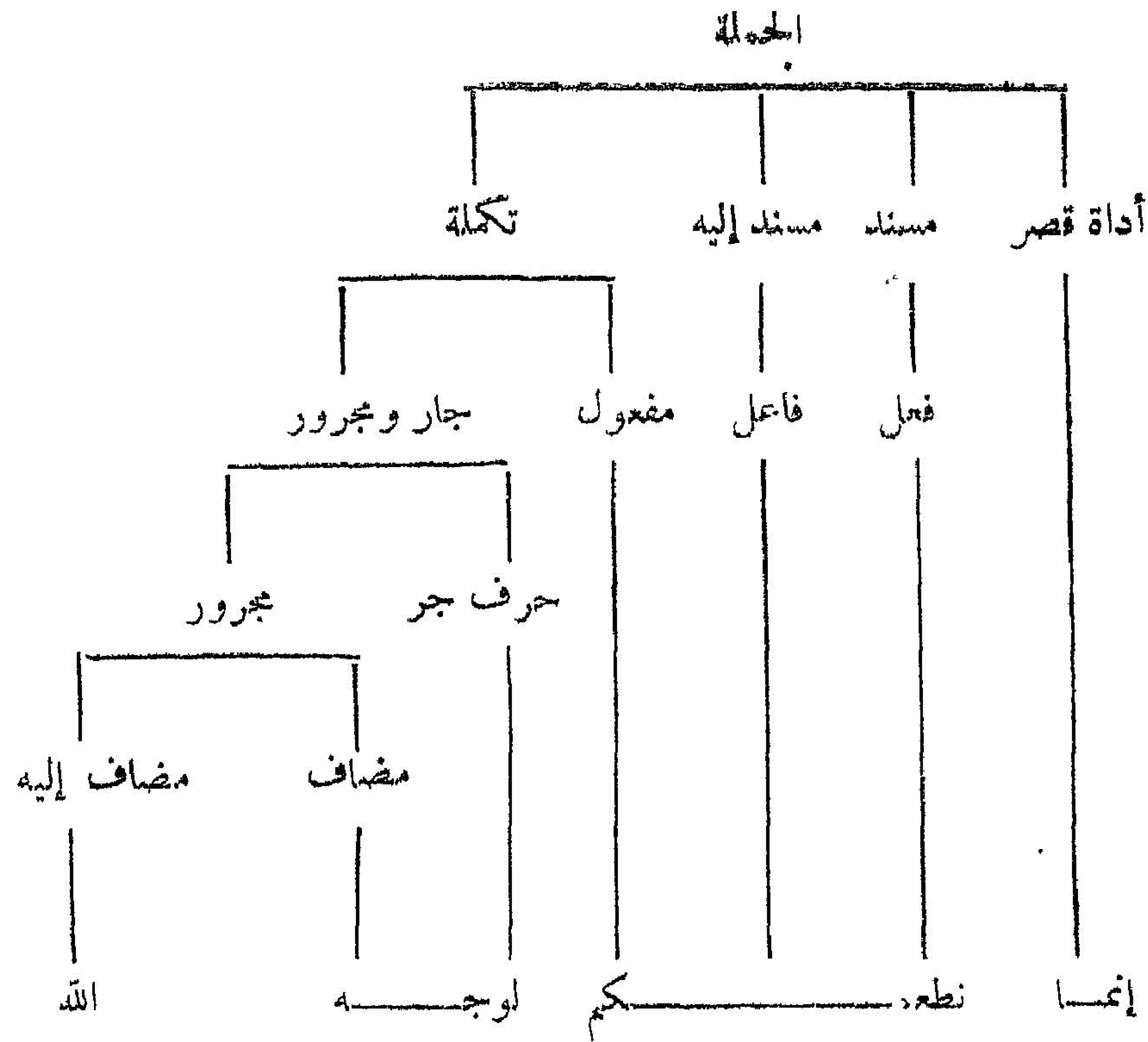
(١) وهذه الصفحات عن « المركب الاسمى » أى تلك الوحدة التى بين الكلمة والجملة .

مكانة المركب وأين يوظف :

يتضح من التقسيم السابق أن المركب يقع بين الكلمة والجملة الصغرى ، وهو يؤدى وظيفته إما داخل الجملة الصغرى فى حال وجود الإسناد المركب — أو داخل الجملة قال تعالى : « إنما نطعمكم لوجه الله »[1].

قال تعالى : « فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها »[2] .

الجملة الأولى بسيطة أى ذات إسناد واحد ، والمركب الاسمى الموظف فيها هو المضاف والمضاف إليه « وجه الله » وهاك تحليلا لها :

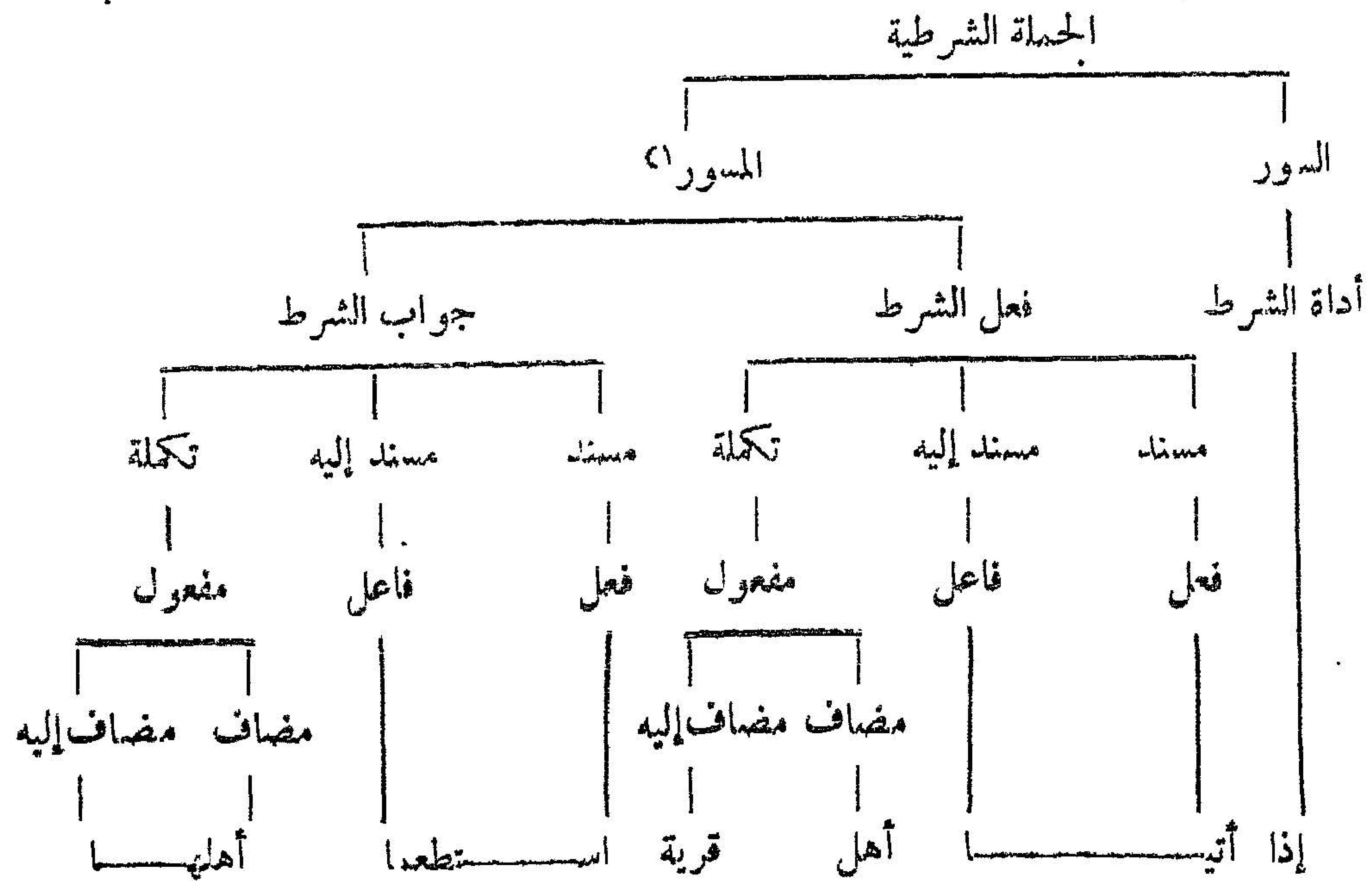


وجملة (إذا أتيا أهل . . . .) فى الآية الثانية مركبة ، إذ فيها إسناد مندمج فى إسناد آخر ، فهى جملة شرطية لها شرط وجواب ، والمركب الإسمى الموظف فى

---

(١) الإنسان : ٩ (٢) الكهف : ٧٧ .

كلتا الجملتين هو المضاف والمضاف إليه «أهل قرية» «وأهلها» وهاك تحليلا لهذا الجزء :

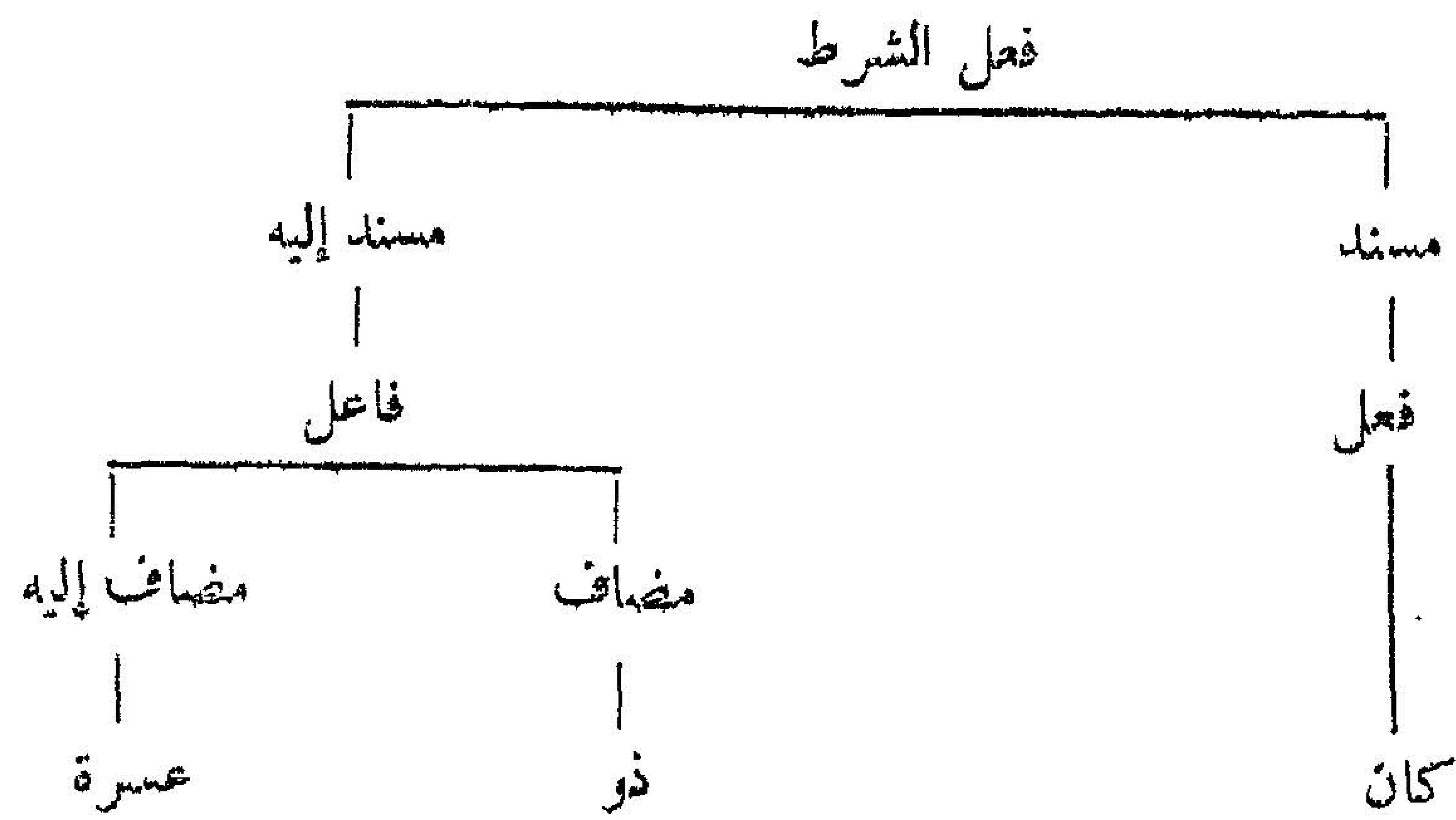


والمركب الإسمى فى الآيتين السابقتين وقع مجرورا بحرف الجر «لوجه الله» كما وقع مفعولا «أهل قرية» ، «أهلها» .

وهاك آية وقع فيهـا المركب الاسمى فاعلا فى جملة صغرى .

قال تعالى : «وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة»(٢) .

وهاك تحليلا للجزء الأول من الجملة المركبة :



فالمركب الإسمى — إذن — هو الوحدة النحوية التى ترد فى مركز المفرد الاسم فيؤدى الوظيفة النحوية التى يؤديها من كونه فاعلا، مفعولا به، مجرورا بالحرف أو بالإضافة مثلا .

(١) أداة الشرط من أدوات الصدارة لا يتقدم ما بعدها عليها ولا يعمل ما بعدها فيما قبلها فهى — إذن — بمثابة السور وما بعدها «مسور» .

(٢) البقرة : ٢٨٠ ، وكان فى الآية الكريمة تامة بمعنى وجد .

مركبات فى قوة المفرد

نجيح محمد

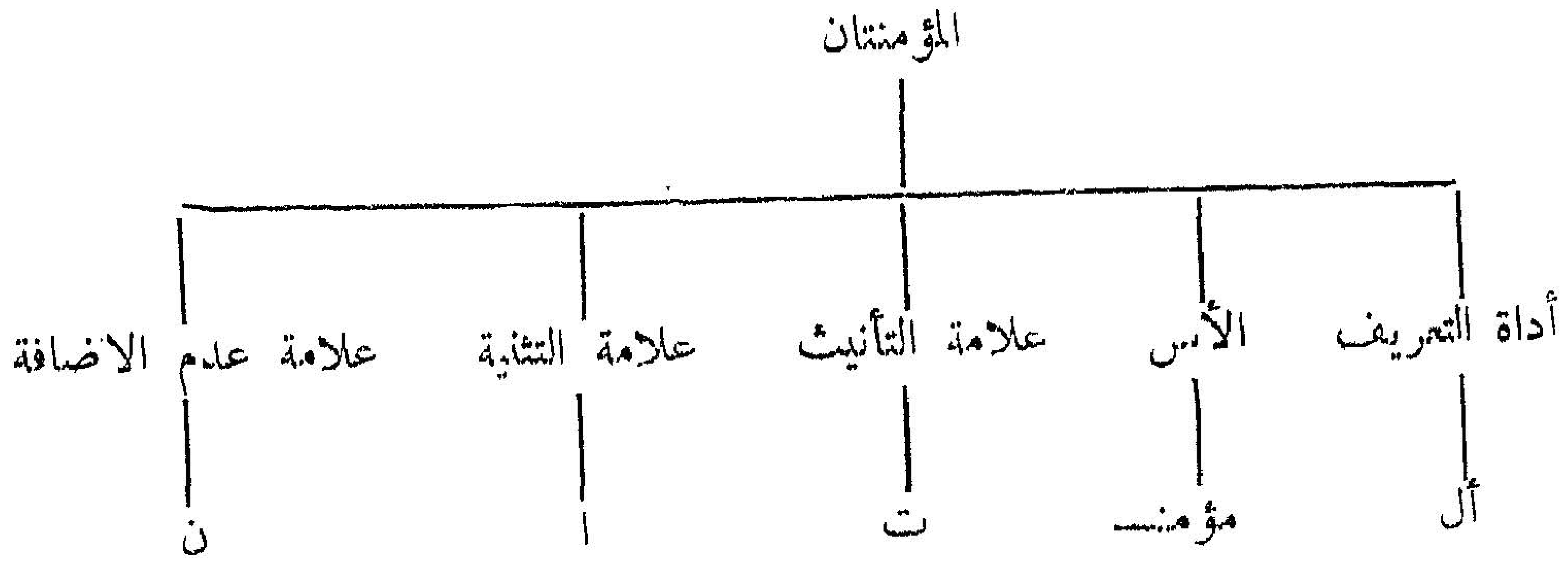
١ — المفرد
٢ — المركب المزجى
٣ — المركب الاسنادى

المفرد :

إذا كان حرا مستقلا فهو الكلمة نحو : رجل وكتاب ، وهذا ونحوه ما قال عنه النحويون إن جزءه لا يدل على جزء معناه وإن لم يكن حرا مستقلا فهو الوحدة الصرفية الضميرية فى نحو : نجحت ، زرتم فاللواحق الضميرية تعد أيضا مفردات على الرغم من أنها لا تكتب منفصلة ، إذ من الممكن إحلال كلمة حرة مستقلة محلها كأن يقال :

والمفرد قد يكون عاريا عن أية إلصاقات نحو : رجل ، بنت ، كما يكون متصلا بعلامات التعريف ، والعدد ، والنوع والحالة الإعرابية . وهذه العلامات غالبا ماتكون ملصقة بأصل الاسم[1] . فهذه أربعة مناح تؤخذ فى الحسبان حين الحديث عن الإسم وهى على التفصيل عشرة ، للتعريف اثنتان ، وللعدد ثلاثة ، وللنوع ثلاثة ، والنوع اثنتان ، وللحالة الإعرابية ثلاثة .

وهاك توزيعا للعناصر التى تتألف منها كلمة « المؤمنتان » مثلا :



وألف التثنية هى علامة العدد أى لكون الاسم مثنى ، وعلامة للرفع ، ولذا نراها تصبح ياء مفتوح ما قبلها مكسور ما بعدها فى حالتى النصب والجر ، ومثلها فى ذلك

---

(١) يستثنى من هذا المعارف بذاتها ، والأسماء المؤنثة بذاتها .

(٢) فى اللغة مفردات تكون للمذكر والمؤنث ، والواحد والجمع تقول : هذا بشر هذه بشر ، هذان بشر ، هؤلاء بشر ، ومثله « الطاغوت ». أنظر الزبيدى . أبو بكر محمد بن الحسن الواضح فى علم العربية ، ٢٤٦ القاهرة ١٩٧٥ .

الواو فى جمع المذكر السالم فى نحو « المؤمنون» ما بعدها فى حالتى النصب والجر .
فهذه تصبح ياء مكسور ما قبلها مفتوح

وكلمة : مؤمن عبارة عن :

الأس + التنوين

أما : المؤمن فعبارة عن :

+ أداة التعريف الأس — التنوين

وقد ارتأيت أن أثبت « التنوين» على الشجرة السابقة مسبوقا بهذه العلامة (—) لأن زيادة أداة التعريف (+) فى بداية الاسم يصحبه الاستغناء عن التنوين من آخره .

وبعض الزيادات تنقل المفرد من الاسمية إلى الوصفية . ومن هذا ياء النسب التى تلتحق بآخر الأسماء كما فى نحو : مصر — مصرى التى بمعنى : المنسوب إلى مصر .
والزيادات التى فى أسماء الإشارة من نحو ذاك ، ذلك — مثلا — فائدتها تحديد درجة المشار إليه .

وبعض المفردات جامدة تقال لكل فرد مفردا أو غيره ، مذكرا أو غيره .
ومن هذا أسماء الموصول المشترك نحو :

من ، ما ، أى ، أل

وأسماء الاستفهام .

وبعض المفردات تتغير صيغتها بتغير النوع والعدد كأسماء الإشارة والضمائر وأسماء الموصول المختص .

والإعراب والبناء قاسم مشترك بين المفردات والمبنى مالا يتغير آخره بتغير موقعه فى الجملة . والأسماء المبنية هى :

الضمائر بأنواعها ، أسماء الشرط ، أسماء الاستفهام ، اسماء الإشارة ما عدا المثنى أسماء الموصول العام والمختص ما عدا المثنى ، إذ ، وإذا وحيث من الظروف . وما سوى هذا من المفردات فمعرب .

١ — المركب المزجى :

كلمتان تداخلتا أى تجاورتا تجاورا شديدا واعتبرتا معا كلمة واحدة ، بحيث أننا نصورها على شجرة التحليل بفرع واحد

لايتفرع . وينقسم المركب المزجي إلى قسمين :

١ ـ ألفاظ كان أصلها أن تستعمل مفردة معطوفا بعضها على بعض بحرف العطف ثم استغنى العرب عن حرف العطف والتنوين وركبوا الاسمين معا وبنوهما على الفتح ومن هذا :

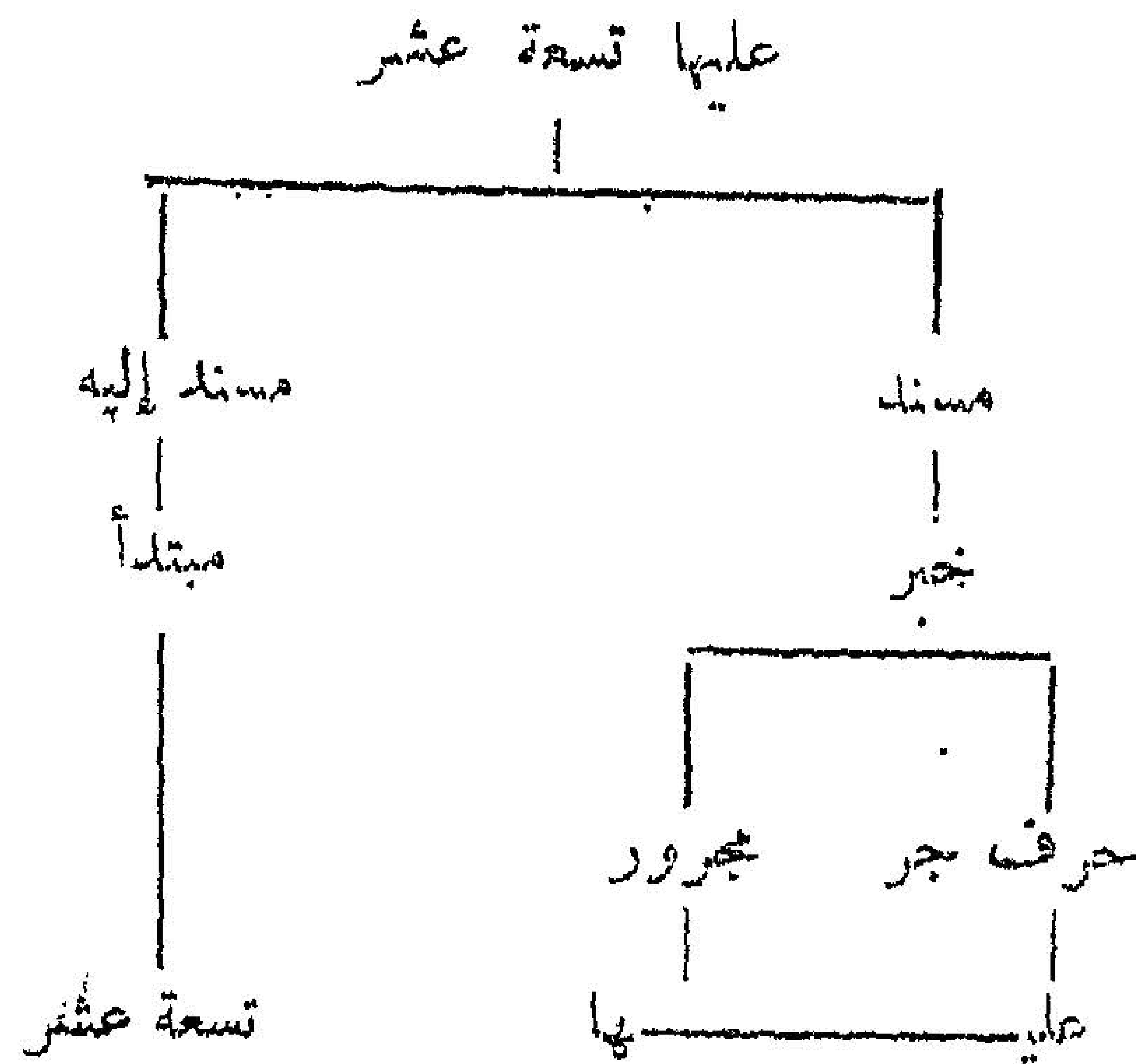
(أ) ماركب من الأعداد وهو الأحد عشر والإحدى عشرة إلى التسعة عشر والتسع عشرة ، باستثناء اثنى عشر واثنتى عشرة ، فان الجزء الأول منهما يعرب إعراب المثنى : بالألف رفعا وبالياء جرا ونصبا[١].

يقول « الزبيدى » : « إذا جاوزت العشرة جمعت العددين وحذفت واو العطف التى كانت بينهما وجعلتهما بمنزلة اسم واحد وبنيتهما على الفتح ، وأما اثناعشر فان الرفع فيها بالألف التى هى ألف التثنية والنصب والخفض بالياء ، وتبقى « عشر » مفتوحة[٢] . . . .

والتركيب هنا لفظى فقط لأن كلا عنصرى المركب لايزال ذا معنى يقول ابن يعيش : « والأول من الاسمين نزل من الثانى منزلة صدر الكلمة من عجزها وكل واحد من الاسمين منفرد بشىء من المعنى ، وهما كالاسم الواحد الذى على مسمى واحد ليجرى مجرى الأعداد المفردة[٣] » .

وهاك تحليلا لبعض الأمثلة :

قال تعالى : « إنى رأيت أحد عشر كوكبا »[٤] « عليها تسعة عشر »[٥]

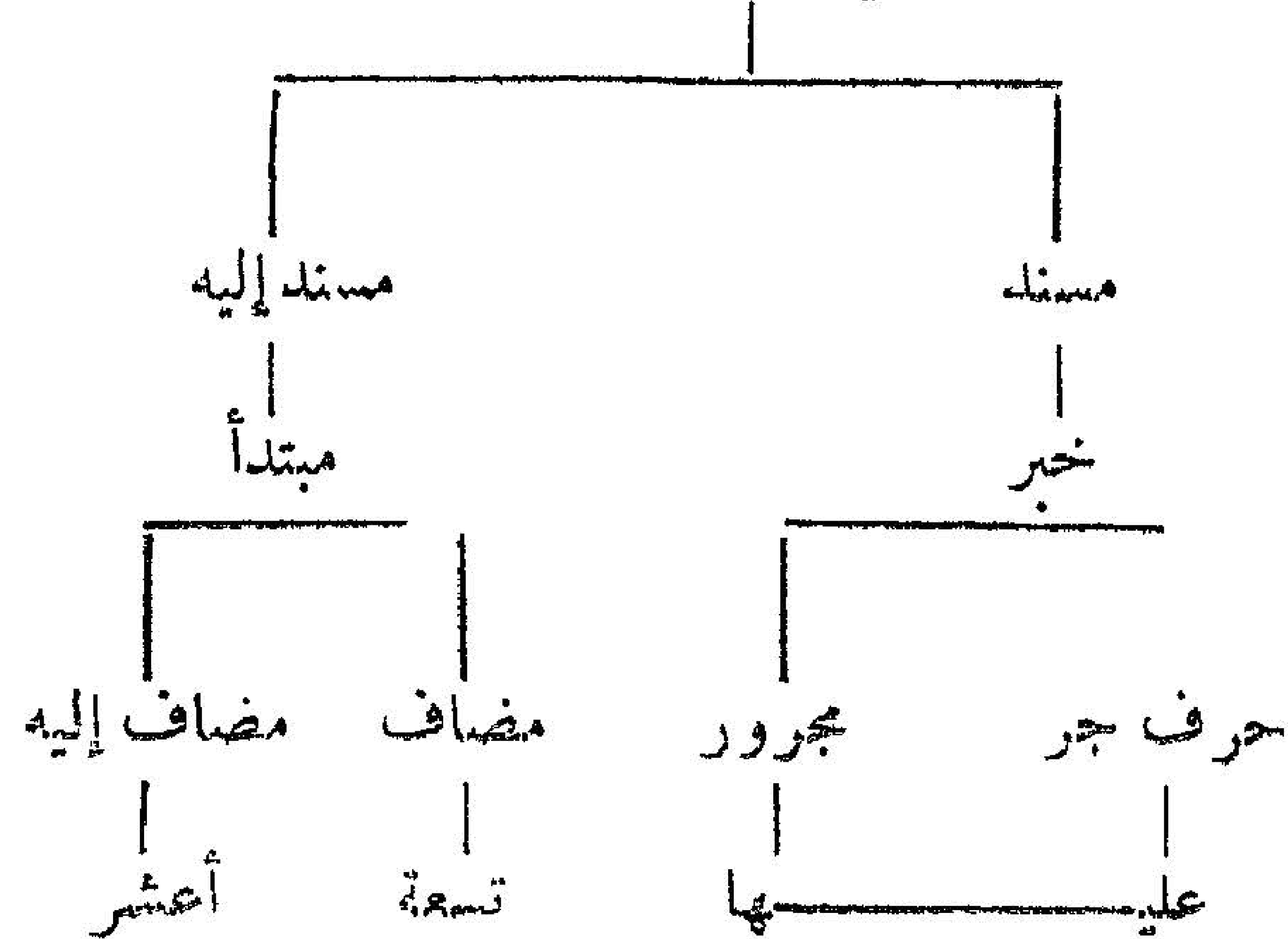


(١) الكتاب جـ ٣ ـ ٣٠٧ ابن يعيش ، شرح المفصل جـ ٤ ـ ١١٢
(٢) الواضح فى علم العربية ٨٨ ، ٨٩
(٣) شرح المفصل جـ ٣ ـ ١١٢ انظر ايضا شرح شذور الذهب ـ ٧٢ ، قطر الندى وبل الصدى ـ ١٩ ، شرح الكافية جـ ٢ ـ ٨٤ ـ ٨٧ ، سيبويه ، الكتاب جـ ٣ ـ ٥٥٧ ، ٢٩٧ .
(٤) يوسف : ٤ (٥) المدثر : ٣٠

وواضح من الشجرة السابقة أننا لم نفرع فرع المبتدأ إلى أفرع أخرى ، وماذلك إلا لأن الكلمتين «تسعة عشر» كلمة واحدة.

وكى أوضح الفرق بين المركب المزجى والمركب غير المزجى الذى سأتحدث عنه فيما بعد سأرسم شجرة لهذه الآية الكريمة بناء على قراءة :

« عليها تسعة أعشر »(١)



فمفردا المركب المزجى لا يتصور انقسامهما ما مفردا المركب غير المزجى فتنقسم ولكل مفرد تسمية خاصة ، وهذه المسألة سوف تتضح فيما بعد(٢).

(ب) ماركب من الظروف زمانية كانت أو مكانية ، وكانت هذه الظروف تستعمل بطريقة أخرى قبل أن تركب .

استعمالها مركبة مبنية على فتح الجزأين	استعمالها قبل التركيب والبناء
١ ــ محمد يأتينا صباح مساء	محمد يأتينا صباحا ومساء(٣)
٢ ــ الصديق يأتينا يوم يوم	الصديق يأتينا يوما فيوما
٣ ــ اجلس بين بين	اجلس بين هؤلاء وبين هؤلاء

فهذه الظروف المركبة تركيبا مزجيا ، تستعمل أيضا فى صورة المركب غير المزجى (المعطوف عليه والمعطوف (١، ٢) والمضاف والمضاف إليه المكررين بطريق العطف(٤) يقول ابن هشام : « أزيلت الإضافة ، واستغنى عن الواو . وركب

(١) أعشر جمع عشير ، كأيمن جمع يمين ، شرح شذور الذهب – ٨٧

(٢) يدل على قوة التركيب فى خمسة عشر قول الرضى : « وإنما تركوا الجر فى العدد المركب نحو إحدى عشر ؛ لأن المضاف إليه مع المضاف كاسم واحد لفظا ، فلو أضيف العدد المركب إلى مميزه ، والمميز من حيث المعنى هو المبهم المحتاج إلى التمييز لكان جعلا لثلاثة أسماء كاسم واحد لفظا ومعنى » شرح الكافية ج ١ – ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٣) شرح شذور الذهب – ٧٤ ، ٧٥

الاسمان تركيب خمسة عشر ، وهذان الظرفان اللذان صارا ظرفا واحدا فى موضع نصب على الحال إذ المراد : وسطا (١) .

ومن شواهد هذه الظروف التى ركبت تركيبا مزجيا فصارت كلمة واحدة، بعد أن كانت مركبة تركيبا غير مزجى لكل من مفرديه مكان فى التركيب :

ومن لايصرف الواشين عنه
صباح مساء يبغوه خبالا

آت الرزق يوم يوم فأجمل
طلبا . وابغ للقيامة زادا

نحمى حقيقتنا وبعض القوم
يقسط بينا بينا (٢)

(جـ) ماركب تركيب خمسة عشر من الأحوال ومن أمثلة هذا :

المثال	المعنى المراد
محمد جارى بيت بيت	محمد جارى ملاصقا
تساقط الأعداء أخول أخول	تساقط الأعداء متفرقين
لقيت محمداً كفة كفة	لقيت محمدا متكافين
لقيت عليا صحرة بحرة	لقيت عليا بارزا

انصرف القوم شذر مذر – شغر بغر ، خذع مذع ، أيدى سبا. . . . متفرقين افعل هذا بادى بدا (٣) .

تصرف المركب، تركيب خمسة عشر :

١ – إذا أردت تعريف المركب المزجى العددى أدخلت عليه الألف واللام أو الإضافة وتركته على بنائه ؛ لأن الألف واللام والإضافة لا تخرجانه عن لفظه وتركيبه ، فكان باقيا على بنائه :

حضر الخمسة عشر رجلا

خمسة عشرك

(١) شرح شذور الذهب – ٧٥

(٢) شرح المفصل جـ ٤ – ١٢٢ .

(٣) الكتاب جـ ١ – ٢٢٧

ويرى الأخفش أنه يعرب إذا عرف بالإضافة فتقول :

هذه الدراهم خمسة عشرك [1]

٢ – المركب المزجي غير العددي (الظروف والأحوال) يستعمل على النحو التالي :

١ – البناء على فتح الجزأين ، إذا كانت ملازمة للظرفية أو الحالية .

٢ – جواز إضافة الأول إلى الثاني .

٣ – وجوب إضافة الأول إلى الثاني إن دخل عليه حرف جر . لأن حرف الجر يخرج هذه الأسماء عن الظرفية وتجعلها متمكنة في الاسمية [2] .

المثال قبل التركيب المزجي	المثال بعد التركيب المزجي	المثال مع جواز الإضافة	المثال مع وجوب الإضافة
جاءوا صباحا ومساء	جاءوا صباح مساء	جاءوا صباح مساء	جاءوا في كل صباح مساء
هو جاري بيتا لبيت	هو جاري بيت بيت	هو جاري بيت بيت	هو جاري في كل بيت
يزورنا الصديق يوما فيوما	يزورنا الصديق يوم يوم	يزورنا الصديق يوم يوم	يزورنا الصديق في كل يوم

جاء في الكتاب : وأما يوم يوم ، وصباح مساء ، وبيت بيت ، وبين بين فإن العرب تختلف في ذلك : يجعله بعضهم بمنزلة اسم واحد ، وبعضهم يضيف الأول إلى الآخر ولا يجعله اسما واحدا ، ولا يجعلون شيئا من هذه الأسماء بمنزلة اسم واحد إلا في حال الظرف أو الحال ، كما لم يجعلوا ياابن عم ، ويا ابن أم بمنزلة شيء واحد إلا في النداء ... وقال الفرزدق .

ولولا يوم يوم ما أردنا ... جزاءك والقروض لها جزاء

فالأصل في هذا والقياس الإضافة .... وتقول أنت تأتينا في كل صباح مساء ليس إلا [3] .

٣ – تحدث تغييرات في الاسمين المركبين تركيبا مزجيا بسبب شدة التداخل بينهما من ذلك مثلا :

(أ) يقول العرب :

وقع القوم في حيص بيص

فعنصر المركب في المثال السابق مصدران ، وعجز المركب من باص يبوص أي

---

(١) شرح المفصل جـ ٤ – ١١٤ ، أنظر أيضا الكتاب جـ ٣ – ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٢) شرح المفصل جـ ٤ – ١١٨ .

(٣) الكتاب جـ ٣ – ٣٠٣

تقدم وسبق ومصدره : بوص ، لكن العرب قلبت الواو ياء لتتفق الكلمة مع ماقبلها فيحدث بذلك المزج أوكما قال ابن يعيش : ليزدوجا ولا يختلفا [1] .

(ب) التركيب يكسب الكلمة خاصية لا تتحقق بدونه تقول العرب :

انصرف القوم أيادى سبا

فسبا علم وقد وقعت حالا ، والسبب أنه زال بالتركيب معنى العلمية وصارا اسما واحدا[2]

(جـ) لا يتصور التركيب المزجي بين ثلاث كلمات ، تقول العرب :

لقيته صحرة بحرة بمعنى لقيته بارزا

فالتركيب المزجي هنا مقصور ومستعمل، أما قول العرب :

لقيته صحرة بحرة نحرة بمعنى لقيته بارزا أول النهار .

فلا يتصور فيها تركيب مزجي ؛ لأن المزج لا يتم بين ثلاث كلمات ، ولذا تنطبق هذه الأسماء الثلاثة بالنصب والتنوين[3]

لا + نكرة غير منونة = تركيب مزجى :

يقول « سيبويه » عن لا :

ترك التنوين لما تعمل فيه لازم لا ، لأنها جعلت وما عملت فيه بمنزلة اسم واحد[4]

فسيبويه يوازن — اذن — بين :

خمسة عشر

و

لا رجل

« فجعلت وما بعدها كخمسة عشر فى اللفظ وهى عاملة فيما بعدها كما قالوا : يا ابن أم

فهى مثلها فى اللفظ وفى أن الأول عامل فى الاخر [5]

ولأن لا جعلت وما عملت فيه بمنزلة اسم واحد، فهما معا فى موضع ابتداء[6] ثم إنك لا تفصل بين لا وبين المنفى ... لأنهم جعلوا لا وما بعدها بمنزلة خمسة عشر فقبح أن يفصلوا بينهما عندهم كما لا يجوز أن يفصلوا بين خمسة وعشر بشيء من الكلام ، لأنها مشبهة بها » [7]

وهذا هو السبب فى أن المعطوف على اسم « لا » ينون . تقول : لا طالب ومدرسا فى المدرسة .

---

(١) شرح المفصل جـ ٤ — ١١٤ ، ١١٥

(٢) شرح المفصل جـ ٤ — ١٢٣

(٣) شرح المفصل جـ ٤ — ١١٧

(٤) الكتاب جـ ٢ — ٢٧٤

(٥) السابق — ٢٧٥ ، انظر أيضا الواضح — ٨٠ — ٨١ .

(٦) الكتاب جـ ٢ — ٢٧٥ ، ٢٧٦

(٧) السابق — ٢٧٦

لأن « لا » إنما تجعل وما تعمل فيه اسما واحدا إذا كانت إلى جنب الاسم فكما لايجوز أن تفصل خمسة من عشر، كذلك لم يستقم هذا لأنه مشبه به فإذا فارقه جرى على الأصل[1]

على أنك إذا كررت « لا » لاتنون تقول لاطالب ولا مدرس فى الفصل .

« فتكون حال الآخر فى تثنيتها كحال الأولى »[2] .

ألخص حتى الآن المسلمات النحوية التى أرساها سيبويه ووافقه عليها من بعده من النحويين :

١ ــ لا + اسم معادلة لخمسة عشر .

٢ ــ لا يبنى اسم « لا » على الفتح إذا فصل عنها « لافيها غول »[3] .

٣ ــ المعطوف بدون « لا » على اسم لا ينون ، لأنه بعد عن لا .

ومن المسائل التى يعالجها النحويون عند حديثهم عن « لا » النافية للجنس فى ضوء المركب المزجى :

وصف اسم « لا » :

١ ــ لا طالب كسولا هنا

٢ ــ لاطالب كسول هنا

٣ ــ لا طالب كسولا مهملا هنا

٤ ــ لا طالب كسول مهملا هنا

٥ ــ لا طالب طالبا كسول هنا

٦ ــ لا طالب طالب كسولا هنا

٧ ــ لا طالب هنا كسولا

٨ ــ لا طالب علم كسولا هنا

إذا وصفت اسم لا ، فإن شئت نونت صفة المنفى وهو أكثر فى الكلام[4] ، وإن شئت لم تنون ، فأما الذين نونوا فإنهم جعلوا (الاسم ولا) بمنزلة إسم واحد ، وجعلوا صفة المنصوب فى هذا الموضوع بمنزلته فى غير النفى ، وأما الذين لم ينونوا فإنهم جعلوا الموصوف والوصف بمنزلة اسم واحد .

يمكن إذن تصور كلام سيبويه السابق على النحو التالى :

١ ــ لا طالب كسولا هنا = (لا طالب) كسولا هنا

٢ ــ لا طالب كسول هنا = لا (طالب كسول) هنا

وفى المثالين (٣، ٤) أنت فى الوصف الأول بالخيار ، ولايكون الثانى إلا منونا ، من قبل أنه لا تكون ثلاثة أشياء منفصلة بمنزلة اسم واحد .

---

(١) السابق – ٢٨٤ – ٢٨٥
(٣) الصافات – ٤٧
(٤) الكتاب جـ ٢ – ٢٩٠

(٢) السابق – ٢٨٦

ويقال فى (٥، ٦) ماقيل فى (٣، ٤) .

والوصف فى (٧) يجب تنوينه من قبل أنه لا يجوز لك أن تجعل الاسم والصفة بمنزلة اسم واحد وقد فصلت بينهما، كما أنه لايجوز لك أن تفصل بين عشر وخمسة فى خمسة عشر[١]

أما (٨) فلا يكون الوصف فيه إلا منونا، مع غيره بمنزلة خمسة عشر، وانما يذهب لأن اسم لا (الموصوف) المضاف لا يجعل التنوين منه كما يذهب منه فى غير هذا الموضع فمن ثم صار وصفه بمنزلته[٢] .

انتهى هنا الحديث عن النوع الأول من المركب المزجي : العددى، والظروف والأحوال وما استتبعه من حديث عن لا النافية للجنس .

٢ – النوع الثانى من المركب المزجى هو الأعلام المركبة، وقد عنون له سيبويه بقوله « هذا باب الشيئين اللذين إذا ضم أحدهما إلى الآخر جعلا بمنزلة اسم واحد كعيضمون وعنتريس »[٣]

ومن هذا : معد يكرب، قالى قلا، وبلال باد، ورامهرمز، وحضرموت وبعلبك، وسيبويه، وخمارويه، ونفطويه، وعمرونيه[٤]

يقول «ابن يعيش» عن سر التركيب فى هذه الأعلام :

«فهذا أصله الواو أيضا حذفت من اللفظ ولم ترد من جهة المعنى، بل مزج الاسمان وصارا اسما واحدا بإزاء حقيقة، ولم ينفرد الاسم الثانى بشىء من معناه فكان كالمفرد غير المركب »[٥]

ثم يقول مفرقا بين النوعين السابقين للمركب المزجى : تركيب خمسة عشر وملحقاته .

والأعلام المركبة :

التركيب ههنا[٥] ليس كالتركيب فى خمسة عشر، وذلك أن معد يكرب وحضرموت وشبهها من المركبات مشبهة بما فيه هاء التأنيث من نحو طلحة وحمزة، فأعرب كإعرابه لأن اتصال الاسم الثانى بالاسم الأول كاتصال هاء التأنيث من جهة أنه زيادة فيه بها تمامه من غير أن يكون له معنى ينفرد به، ولو كان للثانى معنى ينفرد به لكان خمسة عشر فى البناء ألا ترى أن العشرة عدة معلومة، كما أن الخمسة كذلك، فلما اجتمعتا انتهيا إلى مقدار آخر من العدد ليس لكل واحد منهما، كما لو جمعتهما بحرف العطف فمعنى العطف

---

(١) الكتاب جـ ٢ – ٢٩٠

(٢) الكتاب جـ ٣ – ٢٩٦

(٣) الكتاب جـ ٣ – ٢٩٦ ، شرح المفصل جـ ٤ – ١١٢ .

(٤) شرح المفصل جـ ٤ – ١٢٢

(٥) شرح ا (٢) أى فى الأعلام المركبة

بعد التركيب مراد، والتركيب إنما كان من جهـــة اللفظ لا غير ، وليس كذلك معديكرب ، لأن« كرب» لاينفرد بمعنى من الجدالة فصار كتاء طلحة وحمزة وهما من الأسماء المفردة مما فى آخره تاء التأنيث[1] »

اعراب الاعلام المركبة :

١ ــ إن كان العلم مختوما بـ « بويه » يبنى على الكسر دائما بلا تنوين إن كان معرفة ، وبتنوين ان أريد تنكيره [2]

هذا سيبويه وسيبويه آخر

عرفت سيبويه وسيبويه آخر

قرأت عن سيبويه وسيبويه آخر

٢ ــ أما الأعلام الأخرى غير المختومة بـ«بويه» ففيها ثلاث طرق :

(أ) لزوم الصدر للفتح وإعراب العجز حسب العوامل مع منعه من الصرف

هذه حضرموت

زرت حضرموت

سافرت إلى حضرموت

يقول « ابن يعيش » : «ركب الاسمان وجعلا اسما واحدا ، وأعرب الثانى ، إلا أنه منع من الصرف لاجتماع التعريف والتركيب وهما علتان من موانع الصرف وبنى ، الأول لأنه منزل منزلة الجزء من الكلمة فهو كصدر الكلمة من عجزها »[3] .

(ب) إعراب الصدر حسب العوامل وإضافته إلى العجز وفتحه دائما على المنع من الصرف :

هذه حضرموت

زرت حضرموت

سافرت الى حضرموت

٣ ــ كالإعراب الثانى مع الصرف العجز :

هذه حضرموت

زرت حضرموت

سافرت إلى حضرموت

يجمع « سيبويه » الطرق الثلاث باختصار فيقول :

« وأما معد يكرب ففيه لغات : منهم من يقول معد يكرب فيضيف ومنهم من يقول معد يكرب فيضيف ولا يصرف ، يجعل كرب اسما مؤنثا ومنهم من يقول : معد يكرب فيجعله اسما واحدا[4]

متفرقات فى المركب المزجى :

ثلاثة وثلاثين :

هذا المركب مكون من عنصرين : المعطوف عليه والمعطوف ، والتداخل

(١) التنوين عند إرادة التنكير وعدمه عند إرادة التعريف يحدث أيضا مع أسماء الفعل أنظر الكتاب جـ ٣ – ٣٠١ ، ٣٠٢

(٢) شرح المفصل جـ ٤ – ١٢٤ .

(٣) شرح المفصل جـ ٤ – ١٢٤

(٤) الكتاب جـ ٣ – ٢٩٦ – ٢٩٧

بين العنصرين قوى : وقد تحدث سيبويه عن هذا المركب فى «باب يكون الاسمان فيه بمنزلة اسم واحد ممطول ، وآخر الاسمين مضموم إلى الأول بالواو » وقد لحظ سيبويه أن هذا المركب يشبه من الناحية اللفظيـة قولك : يازيد وعمرو ، لكن العلاقة بين العنصرين فى كلا المركبين مختلفة ، ولذا فإن ثلاثة وثلاثين تشبه فى الحقيقة ثلاثة عشر ، وأن ثلاثين تكملة لثلاثة ، كما أن « رجلا » مكملة لضاربا فى قولك : يا ضاربا رجلا .

يقول : « ليس هذا بمنزلة قولك : يازيد وعمرو ، لأنك حين قلت يا زيد وعمرو جمعت بين اسمين كل واحد منهما مفرد يتوهم على حياله ، وإذا قلت يا ثلاثة وثلاثين فلم تفرد الثلاثة من الثلاثين لتتوهم على حيالها ، ولا الثلاثين من الثلاثة ، ألا ترى إنك تقول : يا زيد ويا عمرو ، ولا تقول يا ثلاثة ويا ثلاثون ، لأنك لم ترد أن تجعل كل واحد منهما على حياله ، فصار بمنزله قولك ثلاثة عشر ؛ لأنك لم ترد أن تفصل ثلاثة من العشرة ليتوهموها على حيالها ، ولزمها النصب كما لزم يا ضارباً رجلا حين طال الكلام [1] .

وهاك الجدول التالى للموازنة بين التراكيب الثلاثة التى قدمها سيبويه .

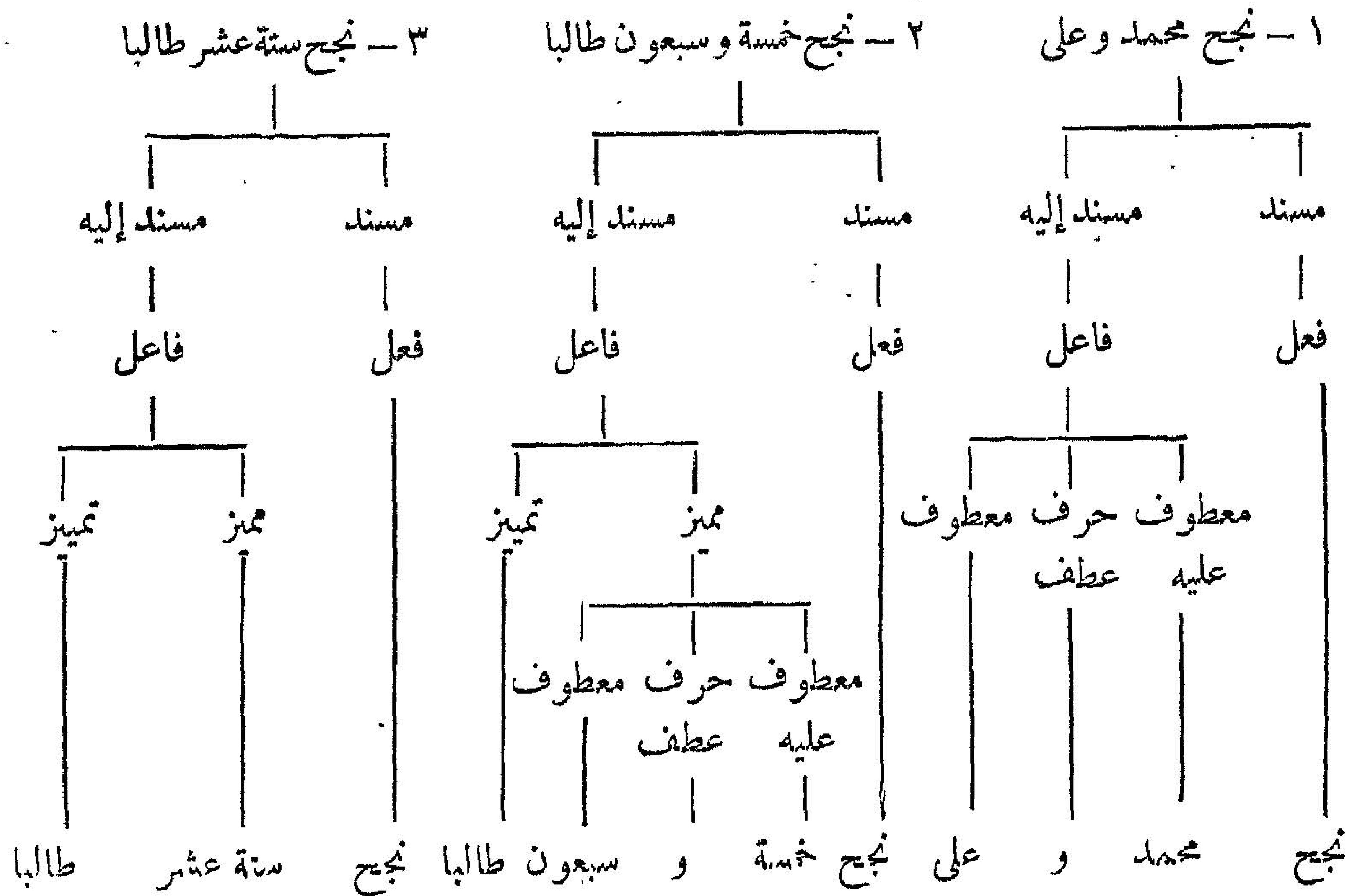
مركب عطفى مفرداه مستقلان	مركب عطفى مفرداه غير مستقلين	مركب مزجى عددى	توجيه الأمثلة
يا زيد وعمرو	يا ثلاثة وثلاثين	يا ثلاثة عشر	الأمثلة كلها صحيحة
يا زيد ويا عمرو	يا ثلاثة ويا ثلاثون	يا ثلاثة ويا عشر	(١) صحيح ، أما (٢، ٣) فخطأ
حضر زيد وعمرو	حضر ثلاثة وثلاثون	حضر ثلاثة عشر	(١) صحيح أما (٢، ٣) فخطأ النقصان فى الجملة
	حضر ثلاثة وثلاثون طالبا	حضر ثلاثة عشر طالبا	(٢ ، ٣) صحيحان لكمال الجملة بالتميز

من الواضح — إذن — أن المركب العددى العطفى أقرب إلى المركب المزجى منه إلى المركب العطفى رغم مشابهته للأخير فى الوصف . ودليل قرابة (٢) من (٣) أن ما يجوز فى أحدهما يجوز فى الآخر والعكس صحيح ، كما أن كليهما يميز باسم مفرد منصوب .

(١) الكتاب ج ٢ — ٢٢٨

بقى أنه عند تحليل مثال للمركب العطفى العددى سوف يفرع المركب إلى ثلاثة أفرع : فرع للمعطوف عليه ، وفرع للمعطوف ، وبينهما فرع ثالث لحرف العطف . وفى هذا يخالف المركب العطفى العددى قرينه المزجى الذى لا يفرع على شجرة التحليل كماسبق أن أشرت .

وهاك تحليلا لثلاثة أمثلة من الأنواع الثلاثة السابقة للمركب :



حبــذا :

هذه الكلمة مركبة من :

(أ) حبب بالضم أى صار حبيبا ، ثم أدغم فصار حب[1] .

(ب) ذا : اسم المشار إليه[2]

يقول «سيبويه» ولكن ذا وحب بمنزلة كلمة واحدة ويقول «الزبيدى» ؛ ثم كثر استعمالها حتى صار حب وذا كلمة واحدة [3]

اعراب «حبذا» :

يبدو أن «سيبويه» كان يذهب موافقا فى هذا رأى الخليل إلى أن «حبذا» بعد التركيب حرف ، فهو يقول : «ولكن ذا وحب بمنزلة كلمة واحدة نحو لولا وهو اسم مرفوع ألا ترى أنك تقول للمؤنث حبذا ، ولا تقول حبذه ، لأنه كالمثل»[4]

---

(١) السيوطى ، همع الهوامع ج ٢ – ٨٨

(٢) الكتاب ج ٢ – ١٨٠

(٣) الواضح فى علم العربية – ٨٦ .

(٤) الكتاب ج ٢ – ١٨٠

أما «الزبيدى» فيذهب إلى أن «حبذا» فعل ، إذ يقول ، صارت « ذا» كالباء من «ضرب» فارتفع ما بعدها من الأسماء بها تقول : حبذا عبد الله . فعبد الله رفع بحبذا وكذلك : حبذا الرجلان ، وحبذا المرأة »[1] .

ويقول « السيوطى» : « الأصح أن ذا فاعله ، فلا تتبع وتلزم الافراد والتذكير وإن كان المخصوص بخلاف ذلك كقوله :

ياحبذا جبل الريان من جبل
وحبذا ساكن الريان من كانا
وحبذا نفحات من يمانية
تأتيك من قبل الريان أحيانا

وقوله :

حبذا أنتما خليلى إن لم
تعذلانى فى دمعى المهراق[2]

يستمر «السيوطى» فى سرد الآراء فيقول « وقال دريود «ذا» زائدة ، وليست اسما مشارا به بدليل حذفها . . : ، وقيل الكل اسم واحد مركب مبتدأ وخبره المخصوص بعده عند المبرد ، وذهب الفارسى إلى أن «حبذا» خبر مقدم ، والمخصوص بعده مبتدأ مؤخر »[3] وعلى أن «ذا» فاعل يعرب المخصوص بعده مبتدأ ، والجملة قبله خبر مقدم ، أو مبتدأ خبره محذوف أو خبر مبتدؤه محذوف ، أو بدل أو عطف بيان[4] .

هذه هى الإعرابات التى قدمها النحويون وسأستبعد إعراب سيبويه لعدم وضوح المراد منه ، فهل هو يساوى بين «حبذا» و«لولا» فى الحرفية ، وفى رفع الاسم بعدهما ؟ نعم المراد واضح . لكننا تعلم أن المرفوع بعد لولا مبتدأ فهل هو كذلك بعد حبذا؟ كما نعلم أن خبر المبتدأ بعد لولا يحذف وجوبا — كما قال النحويون — فهل كذلك خبر المبتدأ بعد حبذا ؟

---

(١) الواضح — ٨٦

(٢) همع الهوامع ج ٢ — ٨٨

(٣) السابق ، نفس الصفحة

(٤) السابق ، نفس الصفحة .

وهاك جدولا للاعرابات السابقة مع توجيهها:

المثال	رقم الاعراب	الاعراب	توجيه الاعراب
حبذا محمد	١	فعل + فاعل	حبذا كلها فعل مركب والجملة — إذن — فعلية بسيطة
	٢	فعل + فاعل + بدل	حبذا كلمة واحدة لفظا لكنها منقسمة تقديرا والجملة فعلية بسيطة التركيب
	٣	فعل + حرف زائد + فعل	حبذا فعل بسيط والجملة فعلية بسيطة والفاعل مركب
	٤ — أ ب	مبتدأ + خبر خبر + مبتدأ	حبذا اسم مركب ، والجملة اسمية بسيطة ، وهذا الإعراب عكس الإعراب رقم (١)
	٥	فعل + فاعل + مبتدأ	يشبه (٢) فحبذا يبدو عليها التركيب لكنها منقسمة والجملة اسمية خبرها جملة فعلية
	٦ — أ ب	فعل + فاعل + مبتدأ + فعل + فاعل + خبر + ..	حبذا ليست كلمة مركبة بل هي جملة والمثال عبارة عن جملتين ثانيتهما اسمية مكتفية بأحد طرفيها

تعليق عام :

لا تعتبر « حبذا » مركبة إلا على (١) و(٤) فهي فى (١) فعل مركب ، وفى (٤) اسم مركب وتعتبر فعلا بسيطا (٣) ، وتعتبر جملة فى (٢، ٥، ٦) .

والزبيدى يفضل الرأى القائل بتركيب (حبذا) وتغليب الفعلية عليها إعراب (١) أمّا المبرد فيرى أنها مركبة ويغلب جانب الاسمية فهو يقول فى المقتضب : « حبذا . الأصل حب وذا ثم جعلت اسما واحدا مبتدأ[1] ...

حيهل :

جاء فى الكتاب : « وأما حيهل التى للأمر فمن شيئين ، يدلك على ذلك : حى على الصلاة

وزعم أبو الخطاب : أنه سمع من يقول حى هل الصلاة ، والدليل على أنهما جعلا اسماً واحدا قول الشاعر :

وهيج الحى من دار فظل لهم
يوم كثير تناديه وحيهله

والقوافى مرفوعة ، وأنشد ناه هكذا أعرابى من أفصح الناس »[2] .

وسيبويه يعتبرها مركبة تركيب حضرموت ويثبت أن من العرب من يقول : حيهلا ومنهم من يقول : حيهل إذا وقف أثبت الألف . ومنهم من لايثبت الألف فى

(١) المقتضب ج ٢ — ١٤٥

(٢) الكتاب ج ٣ — ٣٠٠

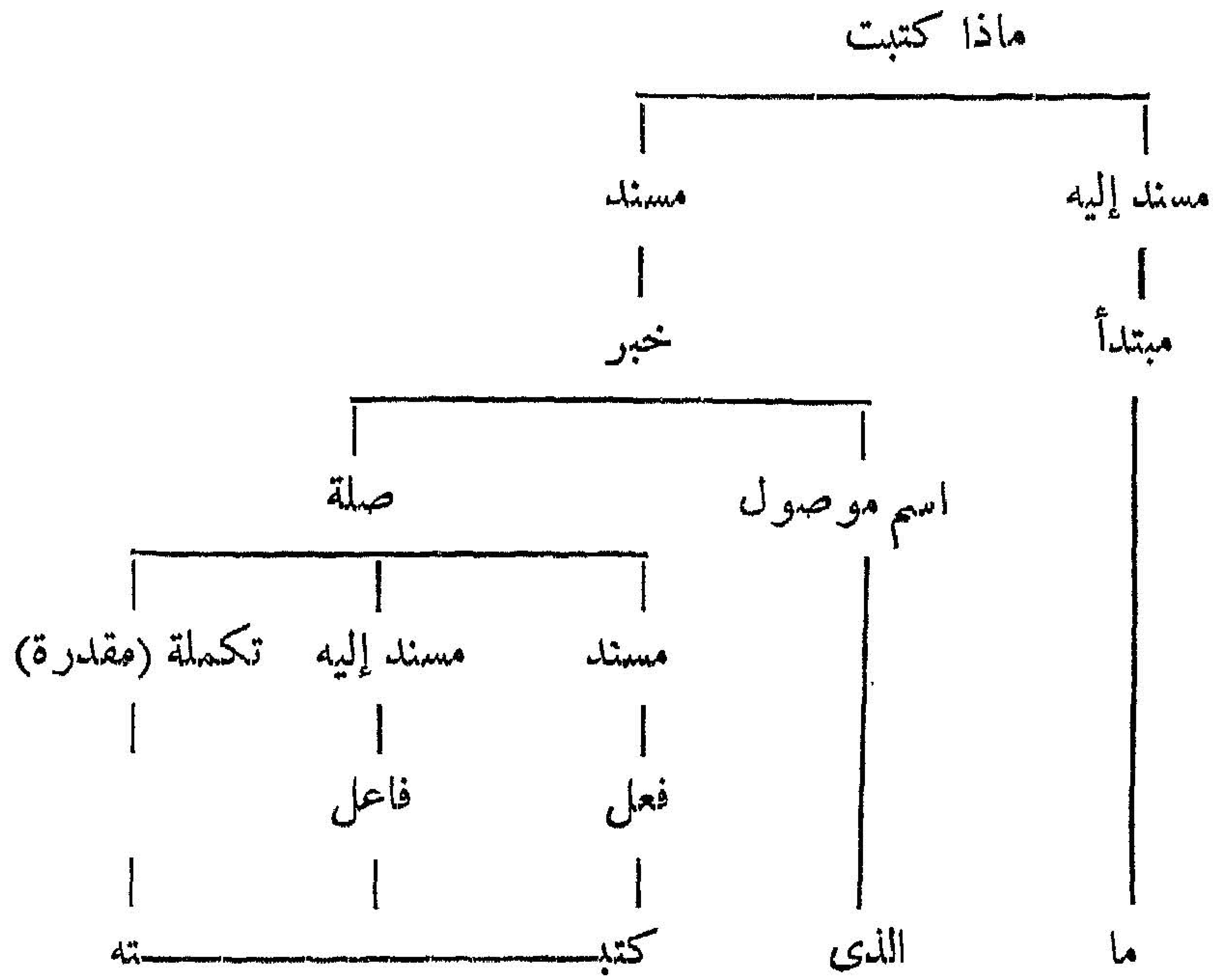
الوقف والوصل[1] وفيها لغة أخرى هى « حيهل » خفيفة[2] .

وحيهل بمعنى أقبل أو إيت ، فهى مركبة تركيب حضرموت ، فهى اسم فعل مركب باجماع النحويين . وقد يدخل عليه حرف جر فيترك على لفظه محكيا. من شواهد الكتاب :

بحيهلا يزجون كل مطية
أمام المطايا سيرها المتقاذف[3]

ماذا : ذا بعدما قد تعتبر :

(أ) اسم موصول بمعنى الذى ، فتكون مساوية (ماالذى ..؟) فماذا إذن عبارة عن عنصرين : ما الاستفهامية الواقعة مبتدأ وذا الموصولة الواقعة خبرا ، وعلى هذا فاعراب مثل : ماذا كتبت هو على النحو التالى :



ولما كان السؤال عن مرفوع فاجابته بالرفع ، لأن الجواب بدل من السؤال[4]

(ه) جاء فى الكتاب « أما إجراؤهم ذا بمنزلة الذى فهو قولك : ماذا رأيت ؟ فيقول : « متاع حسن » .

---

(١) السابق — ٣٠١
(٢) الواضح — ١/٣
(٣) الكتاب جـ — ٣ — ٣٠١
(٤) شرح المفصل جـ ٣ ١٤٩ .

وقال الشاعر ، لبيد بن ربيعة :

ألا تسألان المرء ماذا يحاول
أنحب فيقضى أم ضلال وباطل[1]

فكلمة « نحب» مرفوعة رد على « ما » التى هى فى موضع رفع بالابتداء.

(ب) مركبة مع ما، فتكون «ماذا» كلها كلمة واحدة مركبة من كلمتين يقول السيوطى : أما إذا ركبت ما مع ذا يصارا اسما واحدا فله معنيان : أحدهما وهو الأشهر أن يكون المجموع اسم استفهام كقوله :

ياخرز تغلب ماذا بال نسوتكم
لايستفقن إلى الديرين تحنانا

فهذا لايصح فيه الموصولية. . . . والثانى أن يكون المجموع اسما واحدا موصولا كقوله وهو من شواهد الكتاب :

دعى ماذا علمت سأتقيه
ولكن بالمغيب نبئينى

أى دعى الذى علمت . قال أبو حيان واستعمالها على هذا الوجه قليل ، وقيل خاص بالشعر»[2] وماذا المركبة الدالة على الاستفهام تكون إجابتها بالنص، فالجواب بالرفع عن «ماذا» «دليل» كون ذا موصولة ، وماذا ليست مركبة ، والجواب بالنصب دليل كون « ماذا » مركبة .

قال تعالى : « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو»[3] قرئ برفع « العفو » ونصبه قال تعالى : «ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا»[4] خيرا بالنصب ، وقرأ « زيد بن على « خير » بالرفع .

قال تعالى : « ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين »[5] قرأ الجمهور برفع «أساطير» وقرئ شاذا «أساطير بالنصب»[6].

وهاك تحليلا لقوله تعالى: «ماذا ينفقون» على الاعتبارين السابقين : اعتبار بساطة « ماذا » وكونها عبارة عن عنصرين مفردين ، واعتبار تركب ماذا وكونها كلمة واحدة مركبة :

(١) الكتاب ج ٢ ، ٤١٧

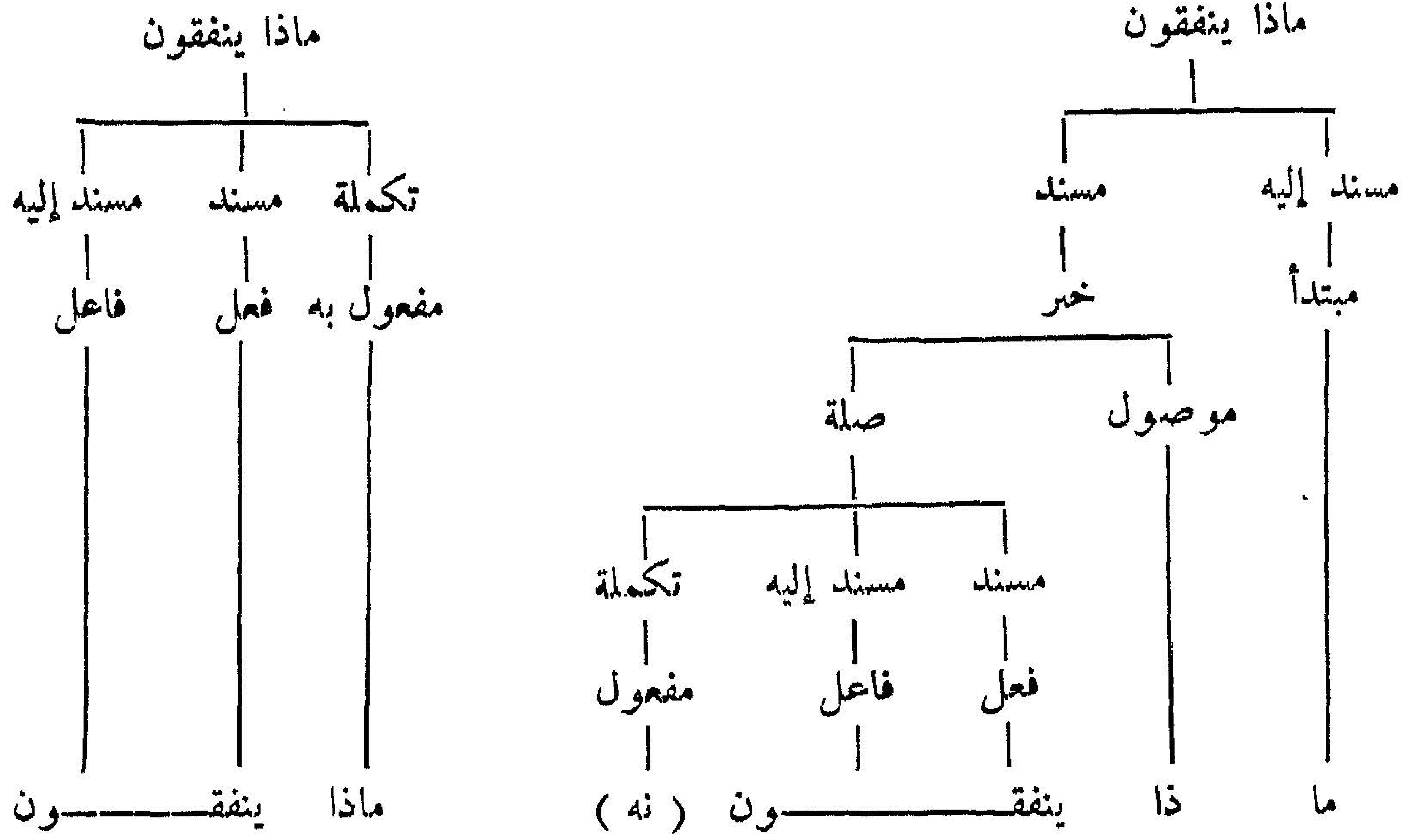
(٢) همع الهوامع ج ١ - ٨٤ ، انظر ايضا الكتاب ج ٢ - ٤١٨

(٣) البقرة - ٢١٩

(٤) النمل - ٣٠

(٥) النمل - ٢٤

(٦) الكتاب ج ٢ - ٤١٨ ، شرح المفصل ج ٣ - ١٤٩ ، ١٥٠ .



تنبيهات :

١ ــ ترتب على القول بتركب « ماذا » اختصار فى التحليـــل ، فالجملة على هذا الاعتبار فعلية بسيطة تقدم مفعولها على الفعل والفاعل ، أما على القول بعدم التركيب ، فقد تفرع التحليل ، كما يتضح من الشجرة الأولى ــ ، والجملة على هذا الاعتبار اسمية خبرها اسم موصول استدعى جملة الصلة ، فهل يمكن الذهاب إلى أن اعتبار بعض الكلمات مركبا يتولد عنه بساطة فى التحليل ، واعتبارها بسيطة يتولد عنه تضخما فى التحليل . ؟ .

٢ ــ انوه من واقع الشواهد بمنطقية اللغة ، فنحن مع ماذا أمام :

(أ) الاحتفاظ بكيان كل عنصر من العنصرين ، فنعتبر ما استفهامية ، وذا موصولة.

(ب) تغليب جانب ما فتصبح «ماذا» كلها استفهامية :

(ج) تغليب جانب ذا فتصبح «ماذا» كلها موصولة :

٣ ــ عقد « ابن هشام » فصلا لماذا ، فصل القول فيها تفصيلا مبينا زاد عما ذكرته حديثا عن اعتبار «ذا» زائدة ، اكتفى هنا بالاحالة عليها [1] .

محمد عبد السلام شرف الدين

(١) مغنى اللبيب جـ ٢ ــ ٤ ، ٥ .

فى الإعراب ومشكلاته

للدكتور أحمد علم الدين الجندى

(١)

مقـــدمة :

مما لا يتطرق إليه الشك أن أبا الأسود الدؤلى كان أول من وضع اللبنة الأولى فى العربية وهى شكله للقرآن الكريم عن طريق النقط ، فكأنه أول من أعرب القرآن بالنقط ، والدليل على ذلك روايات عدة فى كتب الطبقات : منها ماجاء عن السيرافى من أن زياداً أرسل إلى أبى الأسود وقال له : اعمل شيئا تكون فيه إماماً ينتفع الناس به وتعرب به كتاب الله ، فاستعفاه من ذلك ، حتى سمع أبو الأسود قارئا يقرأ : « إن الله برئ من المشركين ورسوله » بكسر اللام فى رسوله فقال : ماظننت أن أمر الناس صار إلى هذا فرجع إلى زياد فقال : أنا أفعل ماأمر به الأمير ، فليبغنى كاتبا لَقِناً يفعل ماأقول فأتى بكاتب من عبد القيس ، فلم يرضه فأتى بآخر فقال له أبو الأسود : إذا رأيتنى قد فتحت فمى بالحرف ، فانقط نقطة فوقه على أعلاه ، فإن ضممت فمى فانقط نقطة بين يدى الحرف ، وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف ، فإن أتبعت شيئا من ذلك غنة ، فاجعل مكان النقطة نقطتين[1] « كما ذكر السيوطى : أنه أول من نقط المصحف[2] ، وكان عند ابن سيرين مصحفاً نقطه يحيي بن يعمر »[3] ، وكان أول من نقط المصاحف ، كما ذكر الدانى أن المبتدئ بالنقط هو نصر بن عاصم[4] الليثى ، ويظهر أن العلماء الثلاثة ساهموا فى إعراب المصحف ، إلا أننى أرجح أن أبا الأسود كان أولهم ، للروايات التى تسوقها كتب

(١) أخبار النحويين البصريين : ١٢ ، مراتب النحويين : ١٠ أبو الطيب اللغوى : كتابه النقط والشكل لأبى عمرو الدانى : ١٢٤ — ١٢٥ دمشق .

(٢) المزهر : ٢ - ٣٩٨ .

(٣) المقنع للدانى : ١٢٥ دمشق .

(٤) كتاب النقط والشكل للدانى : ١٢٥ دمشق .

الطبقات[1]، ولما عثر عليه من مصحف مخطوط فى مسجد عمرو بن العاص فى مدينة الفسطاط، وهذا المصحف يعد أقدم مصحف فى العالم، وأنه جمع الشكل الذى وضعه أبو الأسود، وقد رسم بمداد أحمر وبنفس الطريقة التى نسبها الرواة إلى أبى الأسود، كما أن هذا المصحف جمع عملا آخر لنصر بن عاصم وهو نقط الإعجام وقد رسم فى المصحف بمداد أسود[2]. فهذا يدل على أن عمل أبى الأسود كان إعراب القرآن بوسيلة النقط، وأن عمل عاصم كان نقط إعجام للحروف، للتفرقة بين ماتشابه منها فى اللحن. ولاأريد أن أفيض فيما إذا كان هذا النقط قد ابتكره أبو الأسود أم أنه استمده من نحاة السريانيين، فلهذا مقام آخر، وإنما الذى أريد أن أنتهى إليه هو أن تلك الخطوة الجريئة من أبى الأسود تلاها وصحبها ملاحظات، وتجمع للأشباه والنظائر من المرفوعات والمنصوبات والمجرورات، ولاشك أن العلاقة وثيقة بين نقط النص القرآنى — والذى يشير إلى الإعراب فى عمل أبى الأسود — وبين النحو الذى بأيدينا الآن ذلك الذى يحث على الإعراب فى كل صفحة من صفحاته؛ إذ أنهم خافوا على القرآن الكريم من أن يمتد إليه اللحن، وهو فيه أشد خطرا، وأبشع جرما، ولهذا فزع أبو الأسود عندما سمع من يقرأ «إن الله برئ من المشركين ورسوله[3]» بكسر اللام فى رسوله، وفى رواية أن الأعرابى قال: إن يكن الله برىء من رسوله فأنا أبرؤ منه[4]، وماروى عن يونس أنه قال: قال الحجاج لابن يعمر: أتسمعنى ألحن على المنبر؟ قال: الأمير أفصح من ذلك فألح عليه فقال: حرفاً، قال: أيا؟ قال: فى القرآن. قال الحجاج: ذلك أشنع له، فما هو؟ قال: تقول: «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم[5]» إلى قوله عز وجل «أحبّ» فتقرؤها «أحبُّ» بالرفع، والوجه أن تقرأ بالنصب على خبر كان، قال: «لاجرم: لاتسمع لى لحنا أبداً، فألحقه بخراسان»[6] وهذا يدل على أن اللحن عار، بدليل أن الحجاج نفى يحيى بن يعمر إلى خراسان، لأنه أنف أن يطلع له رجل على لحن.

---

(1) طبقات النحويين واللغويين: أبو الأسود الدؤلى، المقنع ١٢٥ الدانى.

(2) اللغة والنحو: ٢٣٦ حسن عون.

(3) سورة التوبة آية ٣

(4) نزهة الألباء ٧

(5) سورة التوبة آية: ٢٤

(6) طبقات النحويين واللغويين: ٢٢ للزبيدى، وأخبار النحويين البصريين: ١٨ للسيرافى، نزهة الألباء ١٠٠

ومن أجل هذا قال النبي (ص) «أعربوا الكلام كي تعربوا القرآن»(*) كما روى أن رجلا لحن بحضرة النبي (ص) فقال : أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل»(١) كما روى السيوطي أن النبي (ص) قال : أنا من قريش ، ونشأت في بني سعد ، فأنى لي اللحن(٢) »فإذا وصلنا إلى عهد أبي بكر نسمعه يقول « لأن أقرأ فأسقط أحب إلى من أن أقرأ فألحن(٣) » « فإذا جاء عهد عمر رأيناه يقول لقوم استقبح رميهم « ماأسوأ رميكم فيقولون : نحن قوم متعلمين ، فيقول عمر : لحنكم أشد على من فساد رميكم(٤)» كما روى أن كاتبا كتب إلى عمر « من أبو موسى الأشعرى» فكتب عمر إلى أبي موسى : « أن قنّع كاتبك سوطا(٥) » ، وروى عن ابن المغيرة عن أبي عبيدة قال : مرّ أبو عمرو بن العلاء فإذا أعدال مطروحة مكتوب عليها « لأبو فلان ، فقال أبو عمرو : يارب : يلحنون ويرزقون(٦) ». فإذا جئنا إلى عصر بني أمية وجدنا أن الخطأ في الإعراب من أقبح الهجنة ، فعبد الملك بن مروان كان يستسقط من يلحن ، قال العيني : «استأذن رجل من علية أهل الشام عليه ، وبين يديه قوم يلعبون بالشطرنج ، فقال : ياغلام ، غطها ، فلما دخل الرجل فتكلم لحن ، فقال عبد الملك : ياغلام ، اكشف عنها الغطاء ، ليس للاحن حرمة »(٧) ومما ساقه ابن عبد ربه أن عمر بن عبد العزيز كان جالساً عند الوليد بن عبد الملك ، وكان الوليد لحانا فقال : ياغلام ، ادع لي صالح ، فقال الغلام : ياصالحا . قال له الوليد : انقص ألفا فقال عمر : وأنت ياأمير المؤمنين فزد ألفا(٨) ! واحتج على عبد الملك بلحن الوليد هذا ، فقد ذكر ابن عساكر أن عبد الملك قال لرجل من قريش : « إنك لرجل لولا أنك تلحن » فقال : «وهذا ابنك الوليد يلحن» قال عبد الملك : لكن ابني سليمان لايلحن « قال الرجل وأخي فلان لايلحن(٩) » وقرأ يوما على

(*) الأضداد ٢١٣ لابن الأنبارى .
(١) الخصائص : ٢ - ٨ ، إرشاد الأريب : ١ - ٨ .
(٢) المزهر : ٢ - ٣٩٧
(٣) المرجع السابق .
(٤) الأضداد : ٢١٣ لابن الأنبارى
(٥) الخصائص : ٢ - ٨ ، المزهر : ٢ - ٣٩٧
(٦) إنباه الرواة : ٢ - ٣١٩ للقفطى
(٧) تاريخ آداب العرب : ١ - ٢٤٥
(٨) العقد الفريد : ٢ - ٢٩٩ .
(٩) فى أصول النحو للأفغانى : ١٢ هامش .

المنبر «ياليتها كانت القاضية» وضم التاء ، فقال عمر بن عبد العزيز (وكان تحت المنبر) ياليتها كانت عليك وأراحتنا منك[1] !» فإذا ماجاء عصر الدولة العباسية ، نرى اللحن يزحف وينشر وتتعدد صوره وأشكاله ، بل إنه هدد الفصحى ، ونظرة واحدة إلى العقد الفريد والبيان والتبيين ، والمعجم فى بقية الأشياء للعسكرى ، وكتب الطبقات تريك حشداً من اللحن. ولم يكن اللحن مقصورا على طبقة معينة ، ولكنه شمل العلماء ورجال الدين ، فأبو حنيفة — كان فى الفتيا ولطف النظر واحد زمانه ، وسأله رجل يوما فقال له : ماتقول فى رجل تناول صخرة فضرب بها رأس رجل ، فقتله أتقيده به ؟ قال : لا ، ولو ضربه بأبا قبيس[2] ، والحق أن هذه القولة من أبى حنيفة يمكن أن نجعل لها تخريجا فى العربية ، وأنها جاءت على لهجة من يلزم الأسماء الخمسة الألف فى جميع أحوالها ، كما نجد لحنا للإمام الكبير مالك بن أنس (٩٠ — ١٧٩ هـ) من يقول : أىٌ مطراً ، بدلا من : أى مطر . حتى إن الأصمعى ليدهش من صدور مثل هذا عنه ، وهو حجة ثقة ، نجد جرف اللحن أيضا فقيها من رجال المدينة وهو ربيعة بن أبى عبد الرحمن (المتوفى ١٣٦) إذ كان يخلط فى الإعراب[3] ، ولم يكن اللحن مقصوراً على هؤلاء جميعا ولكنه شمل ميدانا آخر — ميدان القراء — حيث اتهمهم النحاة باللحن فى القرآن ، فالنحاة يخطئون ابن عامر مقرىء الشام ونافع مقرىء المدينة ، وحمزة مقرىء الكوفة ، والقعقاع ، وابن مسعود ، والحسن البصرى ومعاذ الهراء .

حركة تنقية اللغة :

ومن هذا العرض الوجيز نرى أن اللحن قد شمل البيئات والأفراد على اختلاف مشاربها ومنازلها ، فشمل الأمراء ، والفقهاء والشعراء ، وأخيرا القراء ، والحق أن اللحن له صور عدة ، اخترت منها الأمثلة السابقة وهى كلها تتعلق (بالإعراب) إذ أن اللحن فى الإعراب كان أول ماظهر عند العرب ، بعكس لحن الموالى الذى اتجه أولا إلى تحريف الأصوات العربية ، يؤيد ذلك قول أبى الطيب « واعلم أن أول مااختل من كلام العرب فأحوج إلى التعلم الإعراب[4] » كما يظهر أن هذا اللحن فى الإعراب قابلته حركة قوية ، ولاسيما بعد أن انتشر فى جميع الأوساط فى المنازل

---

(١) المرجع السابق .
(٢) العقد الفريد : ٢ — ٣٠١ ، البيان والتبيين : ٢ — ٢١٢ .
(٣) العربية : ٦٩ يوهان فك .
(٤) مراتب النحويين : ٥ أبو الطيب .

والمدارس والمساجد وبين الخاصة أنفسهم تـلك الحركة هي حركة تحصين اللغة وتنقيتها التي تمثلت أول أمرها في نقـط القرآن أو إعرابه ، ثم إعجامه ، فالنحو الذي وضعه أبو الأسود ليس هو النحو الذي نراه ونلمسه الآن ، مملوءا بالمهاترات والمشاحنات ، والجدل ، والمنطق والعلل ولكنه نحو أيسر مما نراه لايجاوز الحفاظ على قراءة القرآن ، حتى لاتنحرف فيه الألسنة ، ثم أعقبته أعمال بعد ذلك كملت خطاه .

سلطان النحاة ونفوذهم :

وكانت وظيفة النحو أن يطارد اللحن ويشن عليه غاراته ، ولكن هذا النحو أخذ يمد سلطانه حتى تصدى لعلماء العربية ، وشعراء الجاهلية ، وأخيرا امتدت يده إلى القراء، المشهود لهم بالثقة ، والذين تلقوا قراءتهم عن صاحب الرسالة (ص) وكان أكثر هجومهم وتخطئتهم في ميدان الإعراب ، حتى اشتد الجدل بينهم أنفسهم فيه ، فمن ذلك أن ابن أبي إسحق كان يقرأ « ياليتنا نرد ولانكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين » بالنصـب ، وكان يقرأ «الزانية والزاني»[1]« والسارق والسارقة [2] » بالنصب وهو خلاف ماقرأ به القراء[3] .إذ قرءوا بالرفع كما كان يقرأ عيسى بن عمر «هؤلاء بناتي هن أطهر لكم»[4] بنصب أطهر ، وأبو عمرو[5] ينكرها عليه ، وكان عيسى وأبو عمرو يقرآن « ياجبال أوبي معه والطير[6] » بالنصب ويختلفان في التأويل وكان عيسى يقول : هـو على النداء كما تقول : يازيد والحارث لما لم يمكنه ويا الحارث ، وقال أبو عمرو : لو كان على النداء لكان رفعا ، ولكنها على إضمار وسخرنا[7] الطير ، كما تطاول النحوي عيسى بن عمر الثقفي(١٤٩هـ) فخطأ النابغة في قوله.

فبت كأني ساورتني ضئيلة
من الرقش في أنيابها السم ناقع[8]

اوذكر أنه يجب أن يكون في غير الضرورة : ناقعاً . كما خطأ عنبسة بن معدان المهري (١٠٠ هـ)الفرزدق أيضاً[9]. وهذا أحد النحاة عبد الله بن أبي إسحق الحضرمي النحوي

(١) سورة النور آية : ٢٤
(٢) سورة المائدة آية : ٥
(٣) طبقات النحويين واللغويين : ٢٧ للزبيدي .
(٤) سورة هود آية : ٧٨
(٥) طبقات النحويين : ٣٦ للزبيدي .
(٦) سورة سبأ آية : ١٠
(٧) طبقات اللغويين : ٣٦ للزبيدي .
(٨) طبقات الزبيدي : ٣٥ ، كتاب سيبويه : ١ - ٢٦١ ط بولاق .
(٩) أخبار النحويين البصريين : ١٨ - ١٩ ، الموشح : ١٠٤ للمرزباني .

(١١٧ هـ) وكان كعيسى بن عمر يطعن على العرب [١] فى لغتهم ، إذ كان يقدم القياس ويأخذ بالعلل ، كما يقف من العرب موقف العداوة والبغضاء — ويعيب على الفرزدق فى مديحه ليزيد بن عبد الملك :

مستقبلين شمال الشام — تضربنا
بحاصب كنديف القطن منثور
على عمائمنا يُلقى وأرجلنا
على زواحف تُزجِى مخّها رير [٢]

وبلغ الفرزدق أن الناس يهمسون بأنه قد أقوى ، ولم يبلغه أن الذى اتهمه بالإقواء هو ابن أبى إسحق ، فقال الفرزدق : مابال هذا الذى يجرّ خصيبيه « يعنى ابن أبى إسحق» لا يجعل له بحيلته وجهاً ؟ فلما علم أن ابن أبى إسحق صاحب الطعن عليه قال : والله لأهجونه ببيت يكون شاهداً على ألسنة النحاة فهجاه بقوله :

فلو كان عبد الله مولىً هجوته
ولكن عبد الله مولى مواليا [٣]

ويظهر أن جمود النحاة وتعنّتهم هذا قد أوجد فى أول الأمر ثورة عليهم من العرب وشعرائهم . يظهر هذا حين أنشد الفرزدق قصيدته التى يقول فيها :

إليك أمير المؤمنين رمت بنا
هموم المنى والهوجل المتعسف
وعض زمان يا ابن مروان لم يدع
من المال إلا مسحتاً أو مجلفُ [٤]

فقال له ابن أبى إسحق : على أى شىء رفعت مجلفاً؟ فأجابه الفرزدق فى سخرية : على ما يسوؤك وينوؤك ، علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا . وإجابة الفرزدق تشير إلى منهج يراعى المستوى الصوابى الاجتماعى أما المنهج الآخر الذى يراعيه المستوى الصوابى النحوى فهو منهج النحاة ، ويرى الدكتور تمام حسان أن المنهج اللغوى الحديث يعترف بالمستوى الصوابى الأول ، وينكر المستوى الصوابى الثانى لأنه معايير باحث خلقها بنفسه، ويريد أن يفرضها فى الاستعمال [٥] ، ولقد طلب النحاة العلل والمقاييس لتصحيح قول الفرزدق حتى جهدوا ، وأرى أن الفرزدق لم يخطئ بدليل أن أبا عمرو بن العلاء قال للفرزدق أصبت وهو جائز على المعنى [٦] ، ورحم الله ابن قتيبة حيث قال : أتعب

---

(١) طبقات الزبيدى : ٢٦
(٢) المرجع السابق .
(٣) مراتب النحويين : ١٢
(٤) الشعر والشعراء : ٢٣ ط المعاهد .
(٥) اللغة بين المعيارية والوصفية ١١ دكتور تمام حسان .
(٦) نزهة الألباء ١٣ .

الفرزدق أهل الأعراب ، فقالوا وأكبروا ، ولم يأتوا بشيء يرتضى ، ومن ذا يخفى عليه من أهل النظر أن كل ما أتوا به احتيال وتمويه [1] ، وكان النحاة بالتحامهم مع الشعراء فى تلك المعارك الحامية يريدون أن يتثبتوا من مدى صلاحية مغاييرهم وقواعدهم التى فرضوها ، ولا شك أن كثيراً من النحاة كانوا يتقعرون حتى تستغلق أفهامهم ، ويستبد بهم جمود القريحة والصنعة والتكلف ويظهر هذا من سؤال وجهه الجاحظ إلى أبي الحسن الأخفش قائلا له : أنت أعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ؟ ... قال : أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله ، وليست هي من كتب الدين ، ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى إليه قلّت حاجاتهم إلىّ فيها ، وإنما كانت غايتى المنالة [2] . وبهذا ضيق النحاة على أنفسهم وعلى غيرهم حتى ضاق النحو بنفسه لتعقد أبوابه ، وأخذ رد الفعل الإيجابى لهذا الضجر تقديم مقترحات لإصلاح النحو وتيسيره ، ونقد مناهج النحاة ، ومن أول من تصدى لذلك :

١ – ابن ولاّد المصرى (القرن الرابع) .

٢ – أبو العلاء المعرى (القرن الخامس).

٣ – ابن حزم الأندلسى (القرن السادس).

٤ – ابن مضاء القرطبى (القرن السابع) .

وهكذا أصبحنا لا نتصفح ورقة من النحو إلا وجدنا خلافاً فى الإعراب ، فالكسائى يقرأ بحضرة الرشيد أبيات أفنون التغلبى ومنها :

أبلغ حُبيباً وخلل فى سراتهم
أن الفؤاد انطوى منهم على حزن

إلى أن قال :

أم كيف ينفع ما تعطى العلوق به
رئمان أنف إذا ماضُنّ باللبن

ففتح نون رئمان – وكان الأصمعى حاضراً فقال : هى رئمان بضم النون ، فأقبل عليه الكسائى وقال له : اسكت ما أنت وهذا ؟ يجوز رئمانُ ورئمانَ ورئمانِ بالرفع والنصب و الجر [3]. فالنحاة فى هذا قد نسوا المعنى لحرصهم على هذا الإعراب ، حتى كان النحو عندهم غايته الإعراب ،وهم بهذا قد ضيقوا حدوده حين اهتموا بالأحوال المختلفة من : رفع ونصب وجر من غير فطنة لما يتبع هذه الأوجه من أثر فى المعنى ، يجيزون فى الكلام وجهين أو أكثر من أوجه الإعراب ، ولا يشيرون إلى ما يتبع كل وجه من أثر فى رسم المعنى وتصويره ، وبهذا يشتد جدلهم ويطول احتجاجهم ثم لا ينتهون إلى كلمة فاصلة [4] .

---

(١) الشعر والشعراء ٢٣ . إحياء النحو إبراهيم مصطفى ط ١٩٥١ ٩٤ .

(٢) الحيوان ١ – ٩١ فما بعدها . تحقيق عبد السلام هارون .

(٣) مغنى اللبيب ١ – ٤٤ ، وانظر : خزانة الأدب . الشاهد ٩٠٦ .

(٤) إحياء النحو ٨ .

تفسير ظاهرة الاعراب :

قام خلاف بين علماء العربية فى دلالة الحركات على المعانى الإعرابية أو عدم دلالتها ، وأول من أشار إلى ذلك الخليل[1] . وممن ذهب إلى أن الحركات دوال على معان أبو القاسم الزجاجى ت ٣٣٧ هـ فى كتابه : الإيضاح[2] فى علل النحو حيث يقول : إن الأسماء لما كانت تعتورها المعانى ، فتكون فاعلة ومفعولة ، ومضافة ومضافا إليها ولم تكن فى صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعانى بل كانت مشتركة ، جعلت حركات الإعراب فيها تنبىء عن هذه المعانى .

ويذهب قطرب ت ٢٠٦ هـ إلى أن العرب : « إنما أعربت كلامها ؛ لأن الاسم فى حال الوقف يلزمه السكون للوقف ، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضا لكان يلزمه الإسكان فى الوقف والوصل ، وكانوا يبطئون عند الإدراج[3] فلما وصلوا وأمكنهم التحريك ، جعلوا التحريك معاقبا للإسكان ، ليعتدل الكلام » فمذهب قطرب أن الحركات الإعرابية لامعنى لها ، بل جىء بها تخفيفا ، وقد انفرد قطرب بهذا الرأى ، والأصل دخول الإعراب فى الكلام ، ليفرق بين المعانى ، وعلماء العربية على هذا .

لكن منهج البحث عند جمهور النحاة تنكب هذا الطريق حين فسر هذه الحركات تفسيرا فلسفيا فى ضوء العامل ، والأثر والمؤثر ، والمعلول والعلة ، وشغلوا عن دلالة الحركات ودلالتها على المعانى ، حتى صار الإعراب وهو دليل المعانى يدرس بمعزل عن تلك المعانى ، وحرصوا على أن يتقن المعرب مصطلحات الإعراب وعباراته من غير إشارة إلى الارتباط بين المعانى والإعراب ؛ ولهذا كان يهيب ابن جنى بالنحاة أن يتركوا المعنى على ماهو عليه ، وأن يصححوا أوجه الإعراب من غير مساس[4] بالمعنى نفسه .

وإحقاقا للحق يجب أن نشير إلى أن فئة من نحاة القرآن كانت تلحظ هذا الارتباط ، وهاهو الفراء فى معانيه عند تفسير قوله تعالى : «كل نفس ذائقة الموت» يقول : لو نونت فى (ذائقة) ونصبت الموت كان صوابا ، وأكثر ماتختار العرب التنوين والنصب فى المستقبل ، فإذا كان معناه ماضيا لم يكادوا يقولون إلا بالإضافة[5] ؛ فالفراء يشير إلى اختلاف الحركات باختلاف المعانى مضيا واستقبالا[6] .

---

(١) كتاب سيبويه ٢ / ٣١٥ بولاق .

(٢) ص ٦٩ تحقيق : مازن المبارك ط دار العروبة ، وانظر الأشباه والنظائر ١ / ٧٦ فما بعدها . للسيوطى .

(٣) الإيضاح ٧٠ .

(٤) انظر الخصائص ٢٩٢ ط الهلال .

(٥) انظر معانى القرآن للفراء عند تفسير : « كل نفس ذائقة الموت » .

(٦) انظر المصدر السابق عند تفسير : إن الله بالغ أمره ، وقوله : « هل هن كاشفات ضره » .

الاعراب فى الفصحى والساميات :

ولكن هل هذا الإعراب كان مراعى فى الفصحى ؟ وهل فى الساميات مثل هذا الإعراب الذى نراه فى عربيتنا ؟

يرى V. Renan أن الإعـراب فى العربية لايـوجد له نظير فى أى أخت من الأخوات السامية اللهم إلا بعض آثار ضئيلة بدائية فى العبرية والآرامية والحبشية(١) ، ويذهب المستشرقون ومنهم : ولين Wallin وفلبي Phillippi ونـولدكه Noöldeke ثم بروكلمان Brokelmann إلى أن الإعراب خاصية سامية قديمة تشترك فيه مع العربية الأكدية ، والإعراب فيهما أقدم من ٢٥٠٠ سنة ق.م. أى أن عمـره أكثر من خمسة وأربعين قرنا ، وبهذا يرد على زعم من ينكر الإعراب عند العرب أو من يرى فى الإعراب ظاهرة لاتتلاءم مع الحضارة(٢) . ولايشارك العربية فى الإعراب من اللغات الحية إلا الألمانية ، أما اللغات الآرية الحديثة — وتشمل معظم لغات أوروبا الحديثة — فقد خلت من حالات الإعراب ، هذا وقد امتدح الإعراب فى العربية نفر من المستشرقين منهم : بروكلمان حيث يرى أن لغة الشعر العربى تميزت بثروة عظيمة من الصور النحوية ، وقد بلغت من حيث دقة التعبير عن علاقات الإعراب والنحو ذروة التطور فى اللغات السامية « ولوى مسينون ، ويوهان فك » حيث يقول الأخير : لقد احتفظت العربية الفصحى فى ظاهرة التصرف الإعرابى بسمة من أقدم السمات اللغوية التى فقدتها جميع اللغات السامية باستثناء البابلية القديمة قبل عصر نموها وازدهارها الأدبى(٣) .

يؤكد ذلك ماساقه د . رمضان عبد التواب من نصوص قانون حمورابى ١٧٩٢ — ١٧٥٠ ق . م المدون باللغة البابلية القديمة — يبين فيها تماثل الإعراب بينها وبين العربية ، فالفاعل مرفوع والمفعول منصوب ، وعلامة الرفع الضمة وعلامة النصب الفتحة وعلامة الجر الكسرة كما فى العربية(٤) . هذا ، وقد حملت لغة النقوش العربية البائدة بذور الإعراب ، وقد رمز إلى الإعراب فى تلك النقوش بحروف تلحق بآخر الكلمة ، ومن ذلك ماجاء فى نقش النمارة : ونزدو — فالواو علامة الرفع عندهم : وهرب مذحجو — فألحق الواو بالكلمة أيضا مع أنها فى حالة النصب ، لأنها مفعول به وقد وقع عليها الفعل : وملك معدو — فالواو فى الاسم ذكرت

---

(١) فقه اللغة ١٣٠ وافى .

(٢) نحو عربية ميسرة ١٢٣ / د . فريحة . بيروت .

(٣) العربية ٣ يوهان فك .

(٤) فصول فى فقه العربية ٢٣٩

للإعراب[1] ، كما حملت الإعراب لهجة (أزد السراة) وهى لهجة عربية قديمة حيث يقولون : جاء زيدو ، ورأيت زيدا ، ومررت بزيدى ، فالواو والياء يمكن أن تكون دليل الإعراب فى تلك اللهجة ، وأنهم فعلوا ذلك لحرصهم على بيان الإعراب ولاسيما عند الوقف[2] . ولاشك أن هذه آثار ضئيلة إذا ماقيست بالإعراب فى عربيتنا . والذى أرجحه أن الإعراب عنصر أساسى من عناصر الفصحى ، وموجود فيها قبل وضع النحو العربى على الصورة التى نراها الآن ، على أن الإعراب لم يصل إلى تلك الدرجة الدقيقة الكاملة إلا بعد مراحل ، وربما كانت الألفاظ المعربة فى العربية فى وقت ما مبنية على السكون ، ثم تطورت إلى مرحلة جديدة نحو الإعراب ، وكان ذلك قبل الإسلام بوقت طويل ، واللغة العربية لاتشذ فى هذا الباب عن عالم الأحياء ، والاجتماع ، إذ اللغة كائن حى من جهة واجتماعى من جهة أخرى .

على أن الأعراب فى باديتهم فى الزمن الأقدم لم يعرفوا قواعد الإعراب كعلم له مصطلحاته العلمية بدليل أن أعرابيا سئل : أتجُرُّ فلسطين ؟ فقال : إنى إذن لقوى ! فقيل له : أتهمز إسرائيل ؟ فقال : إنى إذن لرجل سوء ! ، فالأعرابى البدوى فهم : الجر والهمز لغويا لا بمعناها الاصطلاحى العلمى المعروف للنحاة .

وأميل إلى أن نحاة البصرة والكوفة قد زادوا فيه شيئا كثيرا ، ولاسيما فى دقة القواعد وتشعبها ، فاتسع الإعراب كلما احتدم النزاع بين المذاهب النحوية ، وكثرت الأوجه الإعرابية فى كل كلمة ، فالإعراب أثر لعامل إن وجد فيها ونعمت ، وإلا وجب تقديره ، فكل حركة لابد لها من عامل ، كما أن كل حادث لابد له من محدث .

وقد كانت المناظرات بين علماء النحو من أسباب التوسع فى الإعراب ، وخلق أنماط جديدة منه ، فالمناظرة التى وقعت بين الكسائى والأصمعى — كانت خلافا على الإعراب فى كلمة — أجاز فيها الكسائى الأوجه الإعرابية الثلاثة[3] ، وكذلك كانت المناظرة بين الكسائى وسيبويه فى المسألة الزنبورية[4] . وقد لعبت فيها السياسة دورا خطيرا ، وكذلك غيرها من المناظرات النحوية كالتى وقعت بين الرياشى وثعلب ، أو بين المبرد وثعلب ، وأكثرها يشترك فيها الإعراب الذى أتقنه وزاد فيه وغيره هؤلاء جميعا .

---

(١) تاريخ اللغات السامية ١٩٠ ولفنسون ، تاريخ العرب ٧ / ٢٧٣ فما بعدها . جواد على .

(٢) شرح السيرافى على سيبويه ٥ — ٤١٦ مخطوط بالتيمورية ٢٨ ٥ نحو .

(٣) معجم الأدباء : ترجمة الكسائى .

(٤) طبقات اللغويين ٦٩ للزبيدى .

واستمع إلى المعرّى يثير مشهدا لأحد النحاة حيث اتهم بتغيير الإعراب وتبديله «وكنت رأيت فى المحشر شيخالناكان يدرس النحو فى الدار العاجلة يعرف بأبى على الفارسى وقد امترس به قوم يطالبونه ويقولون : تأولت علينا وظلمتنا . منهم : يزيد بن الحكم الكلابى وهو يقول : ويحك !! أنشدت عنى هذا البيت : برفع الماء — يعنى قوله :

فليت كفافاً كان شرّك كلّه
وخيرك عنى ماارتوى الماءمرتوى

ولم أقل إلا الماء بالنصب[1] .

والحق أن للنحويين دخلا كبيرا فى اللغة التى بين أيدينا ، وأنهم خلقوا أشياء وأمثلة لم تعرفها العرب ، وعمموا مالم تعممه العرب ، والواقع أن هناك فروقا كبيرة بين اللغة كما حكيت عن العرب ، وكما قعدها النحاة .

بين الحركات والحروف فى الاعراب

لمحة تاريخية :

توهم القدماء من علمائنا ضآلة قيمة الحركات ، وأنها أمر ثانوى بالقياس على الحروف وفى هذا القول بعض المغالاة ، فللحركات خطورتها فى تنويع أصل كل معنى وعن طريقها يتحقق تغاير المعنى الصرفى ، كما أنها تمثل عنصرا هاما فى كل من : النبر فى الجانب الصرفى ، والتنغيم فى الجانب النحوى ، زد على ذلك أنها تكوّن قمم مقاطع فى العربية ، ومكانتها أخيرا فى العروض العربى لاتنكر حيث حلت مكانا مرموقا فى موازين الشعر[2] .

وتاريخ الحركات جزء هام من تاريخ الكتابة العربية فى عصورها الإسلامية غايتها تصوير كل صوت برمز كتابى يدل عليه ، وفى العربية نجد أنماطا من الحركات المختلفة من بسيطة ومزدوجة (Diphtong) وممطولة ومخطوفة أو مختلسة ، على أن الحركات وهى الأهم فى موضوعنا يمكن أن ترتبط بنظرية نحويى العربية الذين يرون أن الحركات الأساسية هى التى بواسطتها تحرك نهاية الكلمة فى حالات الإعراب ، غير أنه يوجد إلى جانب هذه الحركات حركات أخرى نشأت بتأثير الحرف الصامت سابقا أو لاحقا ، مع بعض العوامل الأخرى ، على أن هذه

---

(١) رسالة الغفران ١٥٢ فما بعدها . المعرى . تحقيق : بنت الشاطىء : ١٩٥ .

(٢) انظر كتابنا : « نحو القلوب الصغير » ص : ١٩٠ ط الدار العربية للكتاب بتونس ، وفى هذا الكتاب أثبت أن للحركات قيمة هامة أخرى فى الجانب الصوفى وخلعت عليها تسمية مبتكرة باسم (صوفية الحركات) ، أو (أخلاقية الحركات) .

الحركات والسكنات عندما تتقاصف على الصيغة تؤلف نمطا منسجما يتواكب مع المعانى الوظيفية ، وفيضا غامرا من اختلاف الأوجه وديناميكية الانتقال من صيغة إلى أخرى مما يعد نمطا فريدا لسياسة الحركات الذى يتوج التمدن اللغوى الحضارى للأمة العربية(١) .

على أننا لا ننكر صعوبة تاريخ الحركات فى سائر اللغات العربية الجاهلية لأن أبجديتنا أبجدية حروف صامتة تهمل الحركات وأمثالها من ضغط ونبر وتنغيم ، كما أن مخالفة الكتابة للنطق كثيرا ما يكون مصدرها تطور الصوت فى الكلمة ، ونشاهد ذلك فى رسم المصحف الشريف ، والساميات أخوات العربية حيث نشاهد فى العبرية (صان) ونطقها (صون) وكذلك (راش) بمعنى رأس ، ونطقها (روش) .

وإذا كان الأمر كذلك فإننا نرى أن بعض قدماء النحاة لم يوفقوا حين ظنوا أن الحركات ليس لها من الأهمية ما للحروف ، فقد زعموا أن حركات العلة أعراض ، والحروف الساكنة جواهر وأصول ثم دخلوا فى متاهات ومشكلات منها :

١ ـــ محل الحركة من الحرف : أما سيبويه فيذهب إلى أن الحركة تحدث بعد الحرف ، وقال غيره : معه وذهب غيره إلى أنها تحدث قبله ويذكر ابن جنى ابتداء تلك القضية فيقول « واعلم أن الحركة التى يتحملها الحرف لا تخلو أن تكون فى المرتبة قبله ، أو معه ، أو بعده(٢) » .

والفارسى على رأس الذين يرون أن الحركة تحدث مع الحرف(٣) على أن ابن جنى يستنكر أن تكون الحركة فى المرتبة قبل الحرف(٤) .

ونحاتنا فى هذا الخضم العريض تتناحر آراؤهم وتتشاجر فعندما يقررون أن الحركات أضعف من الحروف نرى أن الصواب قد جانبهم فى ذلك ، إذ الدراسات الحديثة قد أثبتت أن جميع الحركات القصيرة والطويلة مجهورة ، وأنها أقوى فى الوضوح السمعى من الأصوات الساكنة(٥) .

٢ ـــ ثم تراهم ينقضون مبدأهم فيقررون أن الحركة أصل للإعراب وأن حرف المد فرع عنها وذلك فى قول ابن جنى « فالألف والياء والواو فى جميع هذه الأسماء الستة دواخل على الفتح والكسر والضم ، ألا تراها تفيـــد من الإعراب ما تفيده الحركات : الضمة والفتحة والكسرة . . . وإنما الموضع فى الإعراب للحركات ، فأما الحروف فدواخل عليها(٦) .

---

(١) انظر مقالنا فى مجلة مجمع اللغة العربية جـ ٢٩ .

(٢) سر الصناعة : ٣٢ .
(٣) السابق : ٣٧ .

(٤) انظر أدلته فى سر الصناعة ص : ٣٢ .
(٥) نحو القلوب الصغير : ١٨٤ دكتور أحمد علم الدين الجندى

(٦) الخصائص : ٣ / ١٣٥ تحقيق الأستاذ محمد النجار . دار الكتب المصرية .

وإذا كان نحاتنا يرون أن الحركات أضعف من الحروف لأن الحركة فى حقيقتها ناقصة لأنها لاتقوم بنفسها وهى محتاجة لكى توجد إلى حامل هو الحرف. ثم إن الحركات جزء من شئ آخر سابق عليها وهو الحرف التام الكامل ، وابن جنى يقرر ذلك حين يقول : « اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين ، وهى الألف والواو والياء فكما أن هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث : الفتحة والكسرة والضمة ، فالفتحة بعض الألف والكسرة بعض الياء والضمة بعض الواو ، وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة : الألف الصغيرة ، والكسرة : الياء الصغيرة والضمة: الواو الصغيرة وقد كانوا فى ذلك على طريق مستقيمة »[1] .

فنص ابن جنى يؤكد أن الحركات أبعاض لهذه الحروف ، وإذا كان كذلك فكيف تنقلب الفكرة عندهم رأسا على عقب حين يقررون أن أصل الإعراب أن يكون بالحركات كما قالوا أيضا بأن الحروف أقوى من الحركات وأصل لها ، وفى الإعراب نقضوا عهدهم أيضا حين قالوا بأن حروف المد فرع أو دواخل على الحركات وهى الضم والفتح والكسر . على أنه لافرق بين الحركات وحروف المد إلا فى الكمية من وجهة نظر الدرس اللغوى الحديث ، وعلماء العربية الأقدمون يذهبون إلى مثل ذلك أيضا ، حيث يقرر ابن جنى ذلك فيقول : « ويدلك على أن الحركات أبعاض لهذه الحروف أنك متى أشبعت واحدة منهن حدث بعدها الحرف الذى هو بعضه »[2] فكأن الحركات حين تشبع تنشأ الحروف ، وكان على النحاة من خلال هذا الفهم أن يعتصموا بأن الإعراب لايكون إلا بالحركات وحدها لاغير حتى لايثيروا بلبلة واضطرابا وتناقضا فى مسائل النحو كما سنرى ، لأنه ليس بين الإعراب بالحركات والحروف من فرق إلا فى الكم ، أما فى الكيف فهى هى : الحركات أصوات مد قصيرة والأحرف أصوات مد طويلة ، والواو التى زعموا أنها علامة رفع فرعية ليست إلا ضمة مشبعة ، والياء ليست إلا كسرة مشبعة ، والألف كذلك ليست إلا فتحة مشبعة ، فالفتحة من الألف والكسرة من الياء والضمة من الواو ، ولكن النحاة شقوا على أنفسهم وعلى غيرهم حين ذكروا علامات أخرى للإعراب سموها العلامات الفرعية ، وجعلوها نائبة عن العلامات الأصلية ،وسيقابلك حشد من آرائهم المتصارعة فى الإعراب بالعلامات الفرعية . وعلى سبيل المثال فالأسماء الستة تراهم يختلفون فى إعرابها إلى مذاهب قددا :

١ – أن الواو والألف والياء فيها حروف إعراب ، والإعراب مقدر فيها كما يقدر فى الأسماء المقصورة . وهذا قول سيبويه .

---

(١) سر الصناعة : ١٩ ، وانظر : الأشباه والنظائر ١ / ١٧٢ للسيوطى . القاهرة .

(٢) سر الصناعة : ٢٠ .

٢ ــ أنها معربة من مكانين بالحروف والحركات التي قبلها ، وهو رأى الكوفيين .

٣ ــ أن هذه الحروف حروف الإعراب وعلامته فالواو بمنزلة الدال والضمة في نحو : قاتل الجند ، والياء بمنزلة الدال والكسرة في نحو : أتيت على الجند والذى جعلهم يقولون بذلك : أن حروف العلة لو سقطت اختلفت معانى هذه الأسماء ، فهى كحروف الإعراب ، توجد بوجوده ، وتزول بزواله فهى كسلامته .

٤ ــ وذهب بعض النحويين إلى أن هذه الأسماء إذا كانت في موضع رفع كان فيها نقل بلا قلب ، وإذا كانت في موضع نصب كان فيها قلب بلا نقل ، وإذا كانت في موضع جر كان نقل وقلب .

٥ ــ وذهب بعضهم إلى أن الياء والواو والألف نشأت عن إشباع الحركات (١) وهذا الرأى قريب من رأى المحدثين اللغويين حيث يرون أن اختلاف وقوع النبر هو السبب في مطل هذه الحركات أو تقصيرها فلو قلت : (أخوك) كان النبر على المقطع الثاني (خو) أما (أخاك) بدون مطل فالنبر على المقطع الأول (أ) .

ومثل هذا الخلاف يطالعنا في باب التثنية والجمع كذلك بين البصريين والكوفيين ، وبين أفراد كل فريق منهم ، فيذهب سيبويه إلى أن الألف والواو والياء هى حروف الإعراب ، وذهب أبو الحسن الأخفش ، وأبو العباس المبرد ومن تابعهما إلى أنها تدل على الإعراب وليست بإعراب ولا حروف إعراب ، وذهب أبو عمر الجرمى إلى أن انقلابها هو الإعراب وذهب قطرب والفراء والزيادى إلى أنها هى الإعراب (٢) .

والذى ورط النحاة في قولهم : الإعراب بالحروف فرع عن الإعراب بالحركات التي هى أصول ــ ما يذهبون إليه دائما من القول بالأصل والفرع في كل مشكلة تقابلهم ، ولهذا يعج النحو العربي ، وتطالعك نظرية الأصول والفروع التي ترتبط بمنهج أصول الفقه في كل باب من أبوابه ومن ذلك :

١ ــ باب من غلبة الفروع على الأصول (٣) .

٢ ــ حمل الأصول على الفروع .

٣ ــ باب في المستحيل وصحة قياس الفروع على فساد الأصول (٤) .

---

(١) أسرار العربية لابن الأنبارى ١ / ٤٤ فما بعدها ط د مشق ، واللمع لابن جنى : ١٠١ فما بعدها وانظر التحقيق للدكتور حسين شرف ط ١٩٧٨ والرضى على الكافية ١ / ٢٧ ، وشرح المقدمة النحوية لابن باب شاذ ٥٨ فما بعدها .

(٢) سيبويه ١ / ٤ ط بولاق ، وأسرار العربية : ٥١ ، واللمع لابن جنى : ١٠٣ وانظر المحقق ، وشرح المقدمة النحوية لابن باب شاذ : ٦٤ تحقيق د . أبو الفتوح شريف ط ١٩٧٨ .

(٣) الخصائص ١ / ٣٠٠ .

(٤) الخصائص ٣ / ٣٢٨ .

٤ — مراجعة أصل واستئناف فرع .

٥ — نقض الأصول وإنشاء أصول غيرها منها[1] .

٦ — مراجعة الأصل الأقرب دون الأبعد .

٧ — مراعاة الأصول تارة وإهمالهم إياها أخرى . وقد تكثر الفروع وتطرد حتى تصير كالأصول فتشبه الأصول بها .

٨ — حط الفروع عن الأصول .

٩ — هجر الأصل حتى بعد النطق شذوذا .

١٠ — قد يكون للشيء أصلان[2] والأصول لاتحتاج إلى علامات ، وإنما تحتاجها الفروع ، كما نرى هذه الأصول فى جزئيات الفصول والأبواب النحوية مثل قولهم :

١ — لماذا كان[3] الأصل فى الخبر الإفراد ؟ ومتى يأتى الخبر على خلاف الأصل ؟

٢ — لماذا كانت إلا هى الأصل فى الاستثناء ؟

٣ — لماذا كان الأصل فى الأفعال التصرف ، ولماذا كان الأصل فى الأفعال الدلالة على الحدث والزمان ؟

٤ — لماذا كان الفعل أصلا للاسم فى الصحة والإعلال ؟

٥ — الأصل فى الأسماء التذكير ، والتأنيث فرع عليه .

٦ — الحذف للجزم أصل للحذف للنصب .

٧ — الباء هى الأصل فى حرف القسم .

٨ — النكرة أصل والمعرفة فرع عليها .

٩ — وحسبنا أن نختم هذا بما يتصل بموضوعنا (الإعراب ومشكلاته) ونشير إلى قضيتين :

أولاهما : قولهم : الأصل فى الإعراب أن يكون بالحركات ، والإعراب بالحروف فرع عليها . وإنما كان الإعراب بالحركات هو الأصل لثلاثة أمور :

الأمر الأول : أن الإعراب دال على معنى عارض فى الكلمة ، فكانت علامته حركة عارضة فى الكلمة لما بينهما من التناسب .

والثانى : أن الحركة أخف من الحرف وأقل منه ، وهى كافية فى الدلالة على الإعراب ، وإذا حصل الغرض بالأخف الأقل ، فلا يتكلف غيره ، ولذلك كثرت الحركات فى بابها ، وقل غيرها مما أعرب به ، وقدر غيرها بها ، ولم تقدر هى به[4] .

---

(١) الخصائص : ٣ / ٢٢٧ . (٢) الأشمونى : ٤ / ٢١٢ .

(٣) ألاحظ اهتمام النحو التقليدى بالعلة : لماذا **كان** ؟ فلم يكن يلاحظ ويستقرىء ويفسر تفسيراً يقوم على الحقائق اللغوية ، بل كان نحواً معيارياً صورياً لا يركز على **الاستعمال** اللغوى كما هو .

(٤) انظر شرح المفصل ١ / ٥١ .

والثالث : أن الحرف من جملة الصيغة الدالة على معنى الكلمة اللازم لها ، فلو جعل الحرف دليلا على الإعراب ، لأدى الأمر إلى أن يدل الشيء الواحد على معنيين ، وفي ذلك اشتراك ، والأصل أن يخص كل معنى بدليل . وإنما أعرب المثنى وجمع المذكر والأسماء الستة بالحروف لأمر اقتضاه ، فأعربوا المثنى وجمع المذكر بالحروف للفرق بينهما وبين المفرد ، ولم يعكس الأمر ليكون الأصل للأصل والفرع للفرع ، فإن الحركات أصل للحروف ، والمفرد أصل للمثنى والجمع[1] .

وثانيهما : قولهم : هل حركات الإعراب أصل لحركات البناء ، أو حركات البناء أصل لحركات الإعراب ، وقد اختلف النحاة في ذلك :

فذهب بعضهم إلى أن حركات الإعراب هي الأصل ، وأن حركات البناء فرع ، لأن الأصل في حركات الإعراب أن تكون للأسماء وهي الأصل ، فكانت أصلا ، والأصل في حركات البناء أن تكون للأفعال والحروف وهي الفرع فكانت فرعا .

وذهب آخرون إلى أن حركات البناء هي الأصل ، وحركات الإعراب فرع ، لأن حركات البناء لا تزول ولا تتغير ، وحركات الإعراب تزول وتتغير وما لا يتغير أولى أن يكون أصلا مما يتغير[2] .

ولا تعجب بعد ذلك أن تجد خلطا بين كثير من النحويين في علامات كل من حركات الإعراب والبناء حيث أطلق بعضهم ألقاب الإعراب على ألقاب البناء والعكس[3] .

والأعجب مما سبق أن البصريين والكوفيين عندما وضعوا أصولهم وفروعهم في النحو لم يلتزموا تلك الأصول والفروع عند التطبيق ، فقد ناقض كل فريق (أصله)[4] وكان ذلك سببا من أسباب التضارب والتناقض والتخالف والتشابك في مسائل العربية .

ونظرية الأصل والفرع وافدة على النحاة من أصول الفقهاء ، فقد تحدث الأحناف والشافعية عن الأصول والفروع ، واهتم بها أبو حنيفة ومدرسته ، ومعلوم أن تأثير الفقه وأصوله في النحو كان قويا منذ العصور الأولى فقد كان النحاة ينظرون إلى الفقه وأصوله على أنه علم نابع من الفكر الإسلامي الخالص ، ولهذا رأينا كثيراً من النحاة

---

(١) انظر حواشي النحو المطولة ، والأشباه والنظائر ٢ ـ ٢٢ للسيوطي . ط القاهرة ، القواعد الكلية د . غريب نافع ، نشر : مكتبة الأزهر سنة ١٩٧٥

(٢) أسرار العربية لابن الأنباري : ٢٠ ط دمشق ، وانظر الأشباه والنظائر ١ ـ ١٥٩ القاهرة .

(٣) معاني الفراء ٢ / ٣٥ ، ٤٠ والمقتضب ٤ / ٤ ، ٨٣ .

(٤) الإنصاف مسألة : ٥ ، ٢٢ ، ٣٣ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٥ .

يتأثرون بالفقهاء ويشاركونهم من أمثال : أبو عمر الجرمى ، والفراء، والسيرافى ، حتى إن الجرمى والسيرافى كانا يقعدان للفتيا ، والخليل بن أحمد النحوى يصرح فى أمكنة كثيرة باقتباسه نصوصا فقهية لأبى حنيفة يؤكد بها مسائل فى النحو والعربية[1]، ومحمد ابن الحسن ألف كتابا فى الإيمان ضمنه مسائل فقهية مبنية على أصول النحو والعربية ، وابن جنى فى الخصائص يتأثر فى مسائله النحوية بالفقهاء وعلماء الأصول[2]. وكذلك كتب ابن الأنبارى كالإنصاف ولمع الأدلة ، وتأليف السيوطى كالهمع والاقتراح والأشباه والنظائر ، فهى مبنية على أشباهها من كتب الفقهاء، ونرى أن يكون منهج النحو نابعا من اللغة ويعود على اللغة دون السماح لأى فكر آخر غير لغوى أن يتدخل .

والدراسات النحوية الحديثة لا تعترف بفكرة الأصل والفرع كما فسرها النحاة إذ أنها ترى أن فهم اللغة يخضع للشكل والوظيفة ففى العربية كثير من الوظائف كوظيفة الفاعل والمفعول والمبتدأ وكل وظيفة تتخذ لها طريقة شكلية تعبر عنها ، فشكل الفعل مع الفاعل يختلف شكله مع نائب الفاعل ، وهذا الشكل لا يقتصر على الحركات الإعرابية بل يتسع ليشمل الترتيب بين الكلمات مثل : التقديم والتأخير ، وغيره من القرائن التى تظهر من سياق الكلمات السابقة واللاحقة .

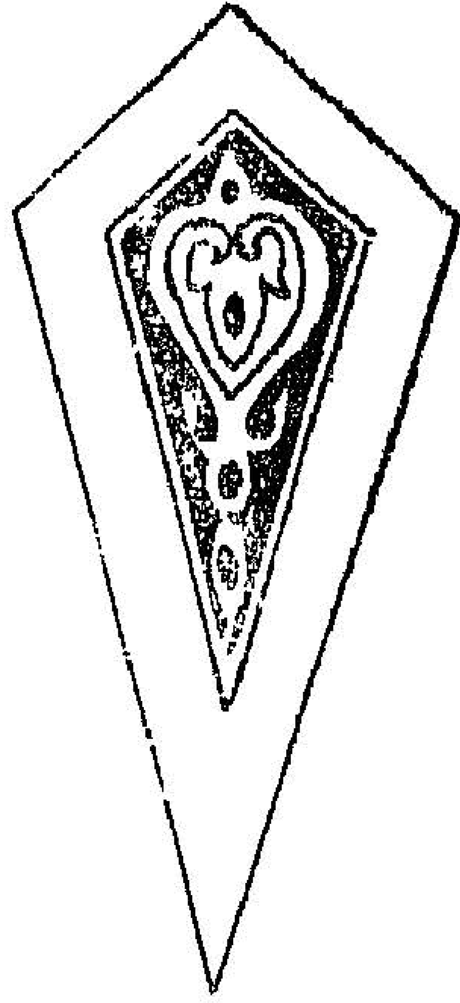
وفكرة الاعتماد على القرائن فى فهم التعليق النحوى ينفى عن النحو : كل تفسير ظنى أو منطقى ، كما ينفى أصالة بعض الكلمات فى العمل وفرعية الأخرى[3] كما أن مسائل الأصل والفرع بالصورة التى تخللت جزئيات ومسائل النحو العربى مرفوضة لأن اللغة لها خصائصها وسماتها التى تختلف عن خصائص وسمات القياس المنطقى الجدلى الذى تأثر به النحاة ، وقضية (الأصالة والفرعية) لا ترتبط بمقاييس ثابتة عند علماء النحو العربى ، ومن هنا اضطربت الآراء والمشارب فما يعتبره نفر منهم أصلا يعتبره الآخرون فرعا لهذا الأصل . ونظرية الأصل والفرع ترتبط أولا وأخيراً بالقياس الذى فرض سلطانه على النحو ونرجح أن تعتمد القضايا النحوية على الاستقراء . ولهذا أرى إلغاء فكرة نيابة الحروف عن الحركات لبنائها على الأصالة والفرعية ، ويكون إعراب الأسماء الستة بالحركات الثلاث مع مدها ، أما جمع المذكر فالضمة فيه علم الرفع وعلم الإسناد والواو إشباع ، والكسرة علم الجر والإضافة والياء إشباع . وأغفل الفتح لأنه ليس بإعراب ، فلم يقصد إلى أن يجعل له

(١) كتاب العين : ٢٨٥ تحقيق الدكتور عبد الله درويش .
(٢) الخصائص : ١ / ١٦٣ فما بعدها ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ .
(٣) اللغة العربية معناها ومبناها للدكتور تمام حسان ص ٢٣٣ .

علامة خاصة ، لأنه إذا أريد إلى أن يجعل نصبا وأتى له بالفتحة اشتبه بالمثنى ، ولهذا أغفل الفتح فيه ، وجعلت الصيغة المستعملة فى الإضافة هى صيغة المنصوب[1] أما المثنى فالألف فيه ليست علامة للرفع ؛ لأن الضمة وحدها هى علم الرفع ، أما الألف فهى للتثنية لا غير ، وإذا أريد رفعه بالضمة فيجب أن تزول الألف ، وبزوالها يزول المعنى فتركت الكلمة وهى مسند إليها — بلا علامة تدل على الإسناد ، فاذا أريد أن يكون مضافا إليه استعين بالياء — وهى جزء من الكسرة ، وممطولة لها ، وأبقيت الفتحة الدالة على ألف الاثنين قبلها ، وتحقق فى الصيغة إذن : دلالتها على التثنية ، ودلالتها على الإضافة .

أحمد علم الدين الجندى

(للبحث بقية)



(١) إحياء النحو : ١١١ ط ١٩٥١ .

(٢) انظر : فى النحو العربى ٩٠ د . مهدى المخزومى . ط . أولى . بيروت .

الإبدال الصوتي
في الكلمات العربية المقترضة في لغة الهوسا

للدكتور مصطفى حجازي السيد حجازي

قام في غرب أفريقيا في العصور الوسطى عدد من الامبراطوريات القومية أقامها الوطنيون الأفريقيون ، وقامت علاقات مختلفة بين هذه الامبراطوريات وبين البلاد المجاورة في الشمال والشرق ، وساعد على ذلك وجود بعض الطرق الصحراوية التي تربط ما في غرب الصحراء الكبرى وجنوبها بما في شمالها وشرقها ، والدليل على ذلك وجود الأثر الشرقي عامة والمصري بصفة خاصة ، بارزاً في حضارات هذه البلاد ، وأن هناك صناعات ونباتات وحيوانات مستأنسة قد إنقلت من وادي النيل إلى غرب أفريقيا[1] .

وباعتناق معظم سكان غرب أفريقيا — للإسلام قامت علاقات أكثر قوة وتنوعاً بين هذه الامبراطوريات وبين البلاد الإسلامية ، وهي وإن كانت قديمة . . إلا أنها قويت بدخول الإسلام هذه البلاد ، كما استقر عدد كبير من العرب والبربر المسلمين بتلك الجهات واختلطوا بالسكان الأصليين وتزاوجوا معهم .

ولما كانت اللغة العربية هي لغة الدين الإسلامي ، وكان على كل مسلم أن يحفظ قدراً من القرآن الكريم والحديث الشريف ، بدأت اللغة العربية تنتشر بين الوطنيين في غرب أفريقيا ، وكانت هذه الامبراطوريات في قمة مجدها تتخذ الدين الإسلامي عقيدة ، واللغة العربية أداتها في الإدارة والثقافة والتجارة ، بل أنها أصبحت لغة التفاهم في كل غرب أفريقيا .

وقد ساعد على انتشار اللغة العربية كثرة المدارس التي تعلم الدين الإسلامي وأحكام الشريعة الإسلامية في كثير من المناطق الإسلامية ، وبانتشارها أخذ كثير من اللغات المحلية يقترض منها كثيراً من الكلمات ، ولا سيما

---

(١) د. إبراهيم علي طرخان ، دولة مالي الإسلامية ، ص ٦ ، القاهرة ١٩٧٣

أن بعض هذه اللغات كان يكتب بالرموز العربية كلغة الهوسا ولغة الغولانى ؛

وقد تناول موضوع الكلمات العربية المقترضة فى لغة الهوساعالمان كبيران، الأول هو H.Greenberg Joseph [1] والثانى هو Hiskett [2] ، وقد قسم جرينبرج فى بحثه الكلمات المقترضة إلى مجموعتين متميزتين طبقاً لما يحدث لأصول هذه الكلمات من ظواهر صوتية ، وتتمثل هاتان المجموعتان فى مصادر الاقتراض المختلفة من حيث الفصحى والعامية ، واختلاف تاريخ اقتراض الكلمات وموضوعها .

والمجموعة الأولى التى يشير إليها فى بحثه برقم (١) تقوم على أساس الكلمات العامية المتطرفة ويبدو الاختلاف الكبير فى معالجتها صوتياً . ويبدو أن مصدر كثير من هذه الكلمات كان المغرب العربى ومصر والسودان بصفة عامة ، كما يتضح من بعض الأمثلة — التى أوردها — وهذا الاستنتاج — فى رأى جرينبرج — يعززه شاهد ثقافى آخر يشير إلى سيادة نفوذ شمال أفريقيا خلال الفترة التى كان الإسلام يبسط فيها نفوذه على بلاد الهوسا ؛ ويضرب مثلاعلى ذلك بسيادة مذهب الإمام مالك فى غرب أفريقيا ، وكذلك استعمال الخط المغربى فى الكتابة »

وهو يذكر أن الكلمات المقترضة فى المجموعة رقم (١) دخلت اللغة مبكراً عن الكلمات الواردة فى المجموعة رقم (٢) — وتتضمن المجموعة الأولى كثيراً من مصطلحات الحياة اليومية والتجارية ومظاهر الدين الإسلامى ، وهى تتفق مع الفترة التاريخية التى اعتنق الهوسا خلالها الإسلام والعناصر الثقافية المصاحبة له والتى دخلت إلى هذه البلاد نتيجة للاحتكاك بالمتكلمين باللغة العربية قبل أن تكون صبغة المثقفين المحليين »

أما كلمات المجموعة رقم (٢) فتبدو فيها معالجة أصوات الكلمات العربية المقترضة — بطريقة أكثر دقة تتفق مع النطق الحالى للغة العربية كما ينطقها طبقة المتعلمين من أبناء الهوسا ، وهذه المجموعة الحديثة من الكلمات تشتمل على أسماء الأشخاص المستمدة من القرآن الكريم ومصطلحات العلوم النظرية التى جاءت إلى الهوسا من خلال مصادر الأدب العربى والنحو والتنجيم . . » إلخ .

---

(1) Joseph. H. Greenberg, Arabic Loan words in Hausa ; Word vol. 3 Nos 1 and 2 New york 1947.

(٢) يتبع Hiskett المنهج التاريخى فى تحديد دخول الكلمات العربية فى لغة الهوسا فيردها إلى ما بين سنة ١٣٤٩ م ، ١٣٨٥ م وهو يرى أن أول مادخل الهوسا من كلمات عربية هى مصطلحات الدين والفروسية وذلك قبل منتصف القرن ١٤ الميلادى انظر Hiekett

African languuge studies ; v 1 ; 1965 ' 18 - 26

ويفرق بين العامية والفصحى على أساس استعمال أداة التعريف / ال / فهو يذكر أنها تقترض مع الاسم عادة وهذا يحدث فى — المجموعتين إلا أنه فى المجموعة الثانية تأتى على هذه الصورة / ال / بينما تحذف همزة الوصول فى المجموعة الأولى وتبقى إحدى هذه الصور /لْ/ أو /لِ/ أو /e/ وهو يستدل بذلك على التأثير الثقافى الوارد من المغرب العربى (١) .

والواقع أن ثمة قصوراً فى اعتماد جرينبرج على أداة التعريف فقط فى التفريق بين العامية والفصحى ، فهذه الأداة لا تأتى إلا مع عدد محدود جداً من الكلمات فبإحصاء الأسماء التى وردت فيها أداة التعريف فى معجم Abraham (٢) اتضح ما يلى :

عدد الكلمات التى جاءت فيها / ال / القمرية ٦٨ كلمة ؛

عدد الكلمات التى جاءت فيها / ال / الشمسية ٢٣ كلمة ؛

عدد الكلمات التى جاءت فيها / لْ / ١٠ كلمات ؛

عدد الكلمات التى جاءت فيها / لِ / ١٠ كلمات ؛

ومعنى هذا أنه لا يمكن الاعتماد على أداة التعريف / ال / معياراً للتفريق بين الكلمات العامية والفصحى لقلة عدد الكلمات التى وردت فيها ، وقد يمكن فى هذا الصدد أن يستعين الباحث إلى جانب هذه الأداة بظاهرة حذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة العربية حيث إن هذه الظاهرة لا تحدث إلا فى العامية .

كما أن ظاهرة استعمال أداة التعريف لا يدل بالضرورة على سيادة التأثير الثقافى الوارد من المغرب العربى فهذه الظاهرة شائعة فى صعيد مصر ، ولهجة البدو فى إقليم ساحل مريوط (٣) .

وفوق هذا فإن جرينبرج لا يأتى بأكثر من مثال للظاهرة الواحدة إلا فى حالات قليلة : رغم وفرة الأمثلة التى تدل على كل حالة ، كما أخطأ فى كتابة بعض الكلمات العربية بالرغم من قلة الأمثلة — كما ذكرت — فكلمة « سرج » مثلا كتبها بكسر السين بدلا من فتحها ، وكلمة « تسبيح » كتبها بالصاد بدلا من السين ، وكلمة « ثلاثاء » كتبها بفتح الثاء بدلا من ضمها .

كما لم يستطع التفريق بين كلمة « نفس » بفتح النون والفاء بمعنى brearh أو « نفس » بفتح النون وحذف حركة الفاء بمعنى Soul وذلك عند ذكر المقابل العربى لكلمة / نَ م فَ ا ش / وهو النفس بمعنى breath وليس النفس بمعنى Soul ؟

---

(1) Greenberg P. 85

(2) Abraham. Dietionarg of The Hausa Language University of London press, 1973

(٣) انظر د . عبد العزيز مطر ، لهجة البدو فى إقليم ساحل مريوط ص ١٢ ، ١٨ ، القاهرة سنة ١٩٦٧

ولم يفرق فى بحثه بين الظواهر المطردة وغير المطردة ، فهو يذكر ظواهر لاتحدث إلا فى كلمة واحدة مثل إبدال /ظ/ > /د/ فى كلمة /دا هـ ر/ وإبدال / غ / > /هـ/ فى كلمة /هـ ر/ بمعنى غارة ، وإبدال /أ/ > /و/ فى كلمة /و ل ف/ وكان الأفضل أن يقتصر على الظواهر المطردة ويستشهد بكثير من الأمثلة توضح موقع الصوت فى المواقع المختلفة من الكلمة .

وكذلك لم يتناول الأمثلة بالتحليل ليظهر جميع الظواهر اللغوية التى تحدث فى الكلمة المقترضة ، كظاهرة إبدال أصوات الحركة والأصوات الساكنة أو حذفها أو إضافتها ؛

كما أنه لم يتناول المصدر الذى اشتقت منه الكلمات المقترضة سواء كان هذا المصدر فعلا أو اسماً أو أداة ، ولم يوضح مدى تقبل الكلمات المقترضة للوحدات الصرفية المستعملة فى لغة الهوسا . . .

وأخيراً لم يذكر النتيجة التى استخلصها من البحث الذى قام به . لذلك رأيت أن أتناول موضوع الكلمات العربية المقترضة فى لغة الهوسا لأكمل الظواهر التى لم يكمل جرينبرج بحثها ، وأبحث الظواهر الأخرى التى تحدث مثل ظاهرة الحذف والإضافة فى أصوات الحركة والأصوات الساكنة مقتصراً على الظواهر المطردة ، مع ذكر الأمثلة المناسبة فى حالة تعدد المواقع التى يرد فيها الصوت فى الكلمة . مع تحليل كل مثال لإبراز ما يحدث من تغير صوتى مبتدئاً بالأصوات الشفوية ومنتهياً بالحنجرية . وذكر صفات ومخرج الأصوات وإبراز أوجه الاختلاف والاتفاق بين الصوت الأصلى وبديله . . . وذكر الأمثلة بغض النظر عن الحركة النهائية للكلمة العربية المعربة ، وإنهاء البحث بالنتائج التى توصلت إليها فى هذا البحث . وهذا كله — ومع وفرة المادة المعجمية — تتضح ضرورة البحث الدقيق للجوانب المختلفة لقضية الاقتراض اللغوى من العربية إلى لغة الهوسا وحسبنا هنا بحث جانب من هذه الجوانب .

إن الاقتراض اللغوى ليس نقلا مباشراً لكلمة من لغة إلى لغة أخرى فالوحدات الصوتية تختلف من لغة إلى أخرى ، وهناك أصوات توجد فى لغات ولا توجد فى أخرى . كما يختلف النظام المقطعى ونظام بناء الكلمة على نحو يجعل انتقال الكلمة من لغة إلى أخرى مؤدياً إلى حدوث تغيرات فى بنية اللغة التى دخلتها الكلمة (١) ؛

ولما كانت اللغة العربية تختلف عن لغة الهوسا فى ظاهرة هامة من الظواهر الصوتية . وهى ظاهرة الإطباق حيث توجد فى الأولى ،

(١) د . محمود فهمى حجازى ، اللغة العربية عبر القرون ، ص ٧٨ ، القاهرة ١٩٧٨

وتنعدم فى الثانية ، وأن أشق الأصوات هى المطبقة والاحتكاكية بوجه عام[1] أدركنا مدى الصعوبة التى يواجهها المتكلمون بلغة الهوسا عندما ينطقون كلمة عربية بها صوت من أصوات الأطباق .

وتمشياً مع نظرية السهولة التى ترى أن الإنسان فى نطق لأصوات اللغة يميل إلى الإقتصاد فى المجهود العضلى ، وتلمس أسهل السبل مع الوصول إلى ما يهدف إليه من إبراز المعانى وإيصالها إلى المتحدثين معه ، فهو لهذا يميل إلى استبدال السهل من أصوات اللغة بالصعب الشاق الذى يحتاج إلى مجهود عضلى[2] ، لذلك لجأ المتكلمون بلغة الهوسا إلى استبدال الأصوات التى يصعب نطقها بأصوات أخرى مستعملة فى لغتهم .

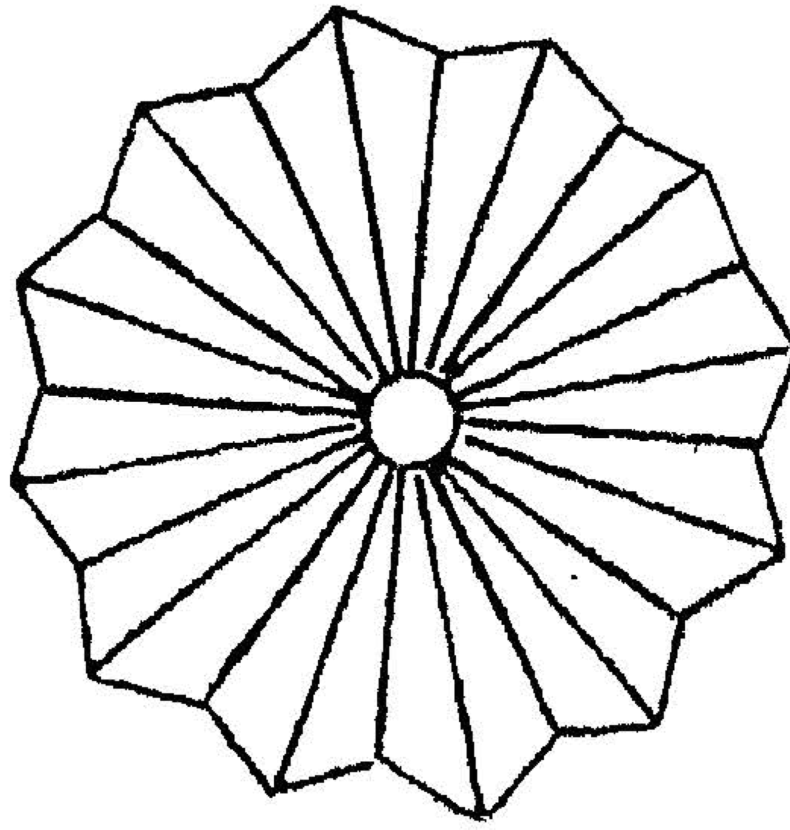
ويحدث هذا الإبدال بغض النظر عما يجاور الصوت من أصوات ، أى سواء وقع الصوت بين حركتين أو بين صوت ساكن وحركة ، ويحدث هذا كثيراً فى اللهجات العامية العربية كإبدال صوت القاف من الهمزة أو الجيم القاهرية فى مثل قولنا « آل » أو « جال » بدلا من قال ، وفى قول أهل الصعيد فى جنوب جمهورية مصر العربية « دلال » بدلا من « جلال » .

كما حدث هذا أيضاً فى لهجات العرب السابقين ، وقد جمع العلامة أحمد تيمور باشا فى كتابه « لهجات العرب » الكثير من هذه الظواهر كابدال الجيم من الياء فيما يعرف بالعجعجة ، وإبدال العين من الهمزة فيما يعرف بالعنعنة ، وإبدال الشين من كاف الخطاب فيما يعرف بالكشكشة وغير ذلك من الظواهر الكثيرة التى ضربها[3] .

والإبدال بهذا المعنى يختلف عما يعرف بظاهرة « التغير الصوتى » والتى تشمل ظاهرتى المماثلة Assimilation والمخالفة Dissimilation . فالمماثلة هى تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض تأثرا يؤدى إلى التقارب فى الصفة أو المخرج تحقيقاً للانسجام الصوتى وتيسيراً لعملية النطق[4] ، والمخالفة هى أن الكلمة قد تشتمل على صوتين متماثلين كل المماثلة فيقلب أحدهما إلى صوت آخر لتتم المخالفة بين الصوتين المتماثلين[5] .

(١) د . إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية ، ص ٢١٣ ، القاهرة ١٩٧٥
(٢) د . إبرهيم أنيس ، ص ٢٣٥
(٣) أحمد تيمور باشا . لهجات العرب . ص ٣ ، ٤ ، ٥ ، القاهرة ١٩٧٣
(٤) د . عبد العزيز مطر ، لحن العامة ، ص ٢٠٥ ، القاهرة سنة ١٩٦٦
(٥) د . إبراهيم أنيس ، ص ٢١٠ .

وتحدث ظاهرة الإبدال الصوتى كثيراً فى الكلمات العربية المقترضة فى لغة الهوسا ، وقد استطعت أثناء قراءاتى لكثير من أدب الهوسا أن أجمع عدداً كبيراً من الكلمات العربية التى صادفتنى فى عشرين كتاباً بلغ عدد صفحاتها ١٨٥٣ صفحة ، وكان من أهم هذه الكتب ما ألفه الحاج أبوبكر إمام ، والحاج أبوبكر تفاوا ، ونوح باملى ، والى كتسينا الحاج بللو ، وأحمدو أنجوا وكل هؤلاء من كبار الأدباء فى لغة الهوسا ، وتعتبر كتاباتهم قمة الأدب ، إلى جانب ماجمعته من معجم إبراهام الذى بلغ ٩٩٢ صفحة[١] :



(١) انظر مصادر المادة العلمية فى نهاية البحث .

ملحوظة : يطيب لى فى مقدمة هذا البحث أن اتقدم بالشكر إلى الأستاذ الدكتور محمود فهمى حجازى ، أستاذ اللغويات بكلية الآداب جامعة القاهرة لمراجعته الدقيقة لهذا البحث منهجياً .

واتقدم بالشكر كذلك إلى الأستاذ مختار عبد الرحمن أستاذ الدراسات العربية والإسلامية بجامعة أحمدو بللو بنيجيريا ، لمراجعته لمادة هذا البحث مراجعة دقيقة .

أولا : ابدال الأصوات الساكنة

ظواهر مطردة :

١ ـ الأصوات الشفوية والشفوية الأسنانية:

(أ) الباء > فاء(*) :

الباء صوت شفوى انفجارى مجهور ، يتكون بمرور الهواء أولا من الحنجرة ، فيتحرك الوتران الصوتيان ، ثم يتخذ مجراه بالحلق ثم الفم حتى ينحبس عند الشفتين ، فاذا انفرجت الشفتان فجأة سمع صوت الانفجار الذى يعرف بصوت الباء[1] :

أما صوت الفاء فهو صوت شفوى أسنانى احتكاكى مهموس ، يتكون باندفاع الهواء من الرئتين مارا بالحنجرة دون أن يتذبذب معه الوتران الصوتيان ، ثم يتخذ الهواء مجراه فى الحلق والفم حتى يصل إلى مخرج الصوت ، وهو بين الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا ، فنسمع نوعاً من الحفيف وهو الذى يميز صوت الفاء الأحتكاكى المهموس[2] .

وبذلك يكون الصوتان متقاربين فى المخرج مختلفين فى الصفة حيث يكون صوت الباء صوتاً إنفجارياً مجهوراً بينما صوت الفاء احتكاكياً مهموساً .

وقد تحولت بعض الكلمات العربية المقترضة فى لغة الهوسا على النحو الموضح فى الجدول والتحليل :

الإبدال		الرمز	الأمثلة	
فى المخرج	فى الصفات		الكلمة العربية	الكلمة بالهوسا
=	إنفجارى >	ب > ف	/أَلْ جَ ىْ ب/	/أَلَ جِ ى فُ و/
	إحتكاكى		/حِ زْ ب/	/إِزْ فِ ى/
	مجهور >		/رِ كَ ا ب/	/لِ كْ كَ ا ف/
	مهموس		/كَ سْ ب/	/كَ سَ فِ ىَ/
			/مُ صِ ى بَ ة/	/مَ سِ ى فَ/

(*) بخصوص هذه الظاهرة انظر د ـ أحمد علم الدين الجندى ، اللهجات العربية فى التراث ، ص ٣٢٣ .

(١) انظر د . إبراهيم أنيس ، ص ٤٥ ، د . محمود السعران ، علم اللغة العام ، ص ١٦٧ القاهرة ١٩٦٢ ، د . كمال بشر ، علم اللغة العام ، ص ١٢٨ القاهرة ١٩٧١ ،

(٢) انظر د . أنيس ، ص ٤٦ ، ، د . السعران ، ص ١٩٠ د . كمال بشر ، ص ١٥١

ملحوظة : علامة = تدل على أن الصوتين متفقان فى المخرج أو الصفة .

التحليل :

/ أَ ل ْ جَ ىْ ب / > / أَ ل ْ جِ يِ ف ُ و /

بابدال صوت الجيم القاهرية بالجيم المعطشة ، وحركة الفتحة القصيرة بالكسرة الطويلة ، وصوت الباء بالفاء وإنهاء الكلمة بحركة الضمة الطويلة .

و / ح ِ زْ ب / > / إ زُ فِ ى / بابدال صوت الحاء بالهمزة وإضافة حركة الضمة القصيرة بعد صوت الزاى ، وإبدال الباء بالفاء وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة الطويلة .

و / رِ كَ اب / > / ل ِ ك ْ كَ افَ / بابدال صوت الراء باللام وتضعيف صوت الكاف ، وإبدال صوت الباء بالفاء ، وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة القصيرة .

و / كَ س ْ ب / > / كَ سَ فَ ى / باضافة حركة الفتحة القصيرة بعد صوت السين ، وإبدال صوت الباء بالفاء وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة الطويلة .

و / م ُ ص ِ ى بَ ة / > / مَ س ِ ى فَ / بابدال صوت الصاد بالسين ، والباء بالفاء وحذف صوت تاء التأنيث من نهاية الكلمة الكلمة العربية وإبدال حركة الضمة القصيرة بعد الميم بالفتحة القصيرة .

(ب) الميم > نون(*) :

الميم صوت شفوى أنفى مجهور ويتكون بمرور الهواء بالحنجرة أولا فيتذبذب الوتران الصوتيان ، فاذا وصل مجراه إلى الفم هبط أقصى الحنك ، فسد مجراه الفم فيتخذ الهواء مجراه فى التجويف الأنفى محدثا فى مروره نوعا من الحفيف لا يكاد يسمع وفى أثناء تسرب الهواء من التجويف الأنفى تنطبق الشفتان تمام الإنطباق(١) .

أما صوت النون فهو صوت أسنانى لثوى أنفى مجهور ، يتكون باندفاع الهواء من الرئتين فيحرك الصوتين ثم يتخذ مجراه فى الحلق أولا حتى إذا وصل إلى الحلق هبط أقصى الحنك الأعلى فيسد بهبوطه فتحة الفم ، ويتسرب الهواء من التجويف الأنفى محدثا نوعا من الحفيف لا يكاد يسمع بينما يرتفع طرف اللسان . فيلتقى بأصول الثنايا العليا(٢) .

وبذلك يتقارب الصوتان فى المخرج إلى حد ما ، حيث يكون صوت الميم أنفيا شفويا والنون أنفيا لثويا ، ويتفقان فى الصفة فكلاهما مجهور .

---

(١) انظر د . أنيس ، ص ٤٥ ، د . السعران ، ص ١٥٨

(٢) انظر د . أنيس ، ص ٦٦ ، د . السعران ، ص ١٨٥ ، د . كمال بشر . ص ١٦٨ .

(*) بخصوص هذه الظاهرة انظر د . عبدالعزيز مطر ، ص ١٨٨ ، د . عبد المنعم سيد عبد العال القاهرة سنة ١٩٦٨ لهجة شمال المغرب ، ص ٨٢ ، د . أحمد علم الدين الجندى ، اللهجات العربية فى التراث ، ص ٣٤١ وأبى يوسف يعقوب ابن السكيت ، كتاب الإبدال ، ص ٧٧ ، القاهرة ١٩٧٨

الإبدال		الرمز	الأمثلة	
فى المخرج	فى الصفات		الكلمة العربية	الكلمة بالهوسا
أنفي شفوى > أنفي لثوى	=	م > ن	/ أَ لْ إِ مَ ا مْ / / حُ كْ مْ / / ظَ لَ مَ /	/ لِ ى مَ نْ / / هُ كُ نْ تَ ا / / زَ ا لُ نْ تَ /

التحليل :

/ أ لْ إ مَا مْ / > / لِ ى مَ نْ /

بحذف همزة الوصل وإضافة حركة الكسرة الطويلة بعد صوت اللام . وحذف الهمزة الثانية — وهى من بنية الكلمة العربية ، وتقصير حركة الفتحة الطويلة بعد صوت الميم الأولى ، وإبدال صوت الميم الثانية بالنون ويلاحظ إدخال / ا ل / ضمن بنية الكلمة .

و / حُ كْ م / > / هُ كُ نْ تَ /

بإبدال صوت الحاء بالهاء وإضافة حركة الضمة القصيرة بعد الكاف ، وإبدال صوت الميم بالنون وإضافة صوت التاء بعدها وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة الطويلة .

و / ظَ لَ مَ / > / زَا لُ نْ تَ /

بإبدال صوت الظاء بالزاى وإطالة حركة الفتحة القصيرة بعدها ، وإبدال حركة الفتحة القصيرة بالضمة القصيرة ، والميم بالنون وإضافة صوت التاء بعدها ، وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة القصيرة .

٢ ـ أصوات تخرج مما بين الأسنان :

(أ) الظاء > زاى(*) :

الظاء صوت مجهور احتكاكى مطبق يخرج مما بين الأسنان ، ويتكون باندفاع الهواء مارا بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتين ثم يتخذ مجراه فى الحلق والفم حتى يصل إلى مخرج الصوت وهو بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ، حيث يضيق هذا المجرى فنسمع نوعا من الحفيف . وعند النطق بالظاء ينطبق اللسان على الحنك الأعلى آخذا شكلا مقعرا ولذلك اعتبره القدماء أحد أصوات الأطباق[1] .

(*) هذه الظاهرة لا تنطبق على كلمة – ظَ ا هِ رِ – دَ ا هِ رِ – التى يبدو أنها دخلت لغة الهوسا عن طريق لغة وسيطة ، أو إحدى اللهجات التى حدث فيها تغير صوتى جعل هذه الكلمة لا تمضى على النسق المعهود فى الكلمات العربية المستخدمة فى لغة الهوسا .

(١) انظر د . أنيس ، ص ٤٧ ، د . السعران ، ص ١٩١ ، د . كمال بشر ، ص ١٥٣

أما صوت الزاى فهو لثوى إحتكاكى مجهور ويتكون باندفاع الهواء من الرئتين مارا بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ثم يتخذ مجراه فى الحلق والفم حتى يصل إلى المخرج وهو التقاء أول اللسان (مشتركا مع طرف عند بعض الأفراد) بالثنايا السفلى أو العليا . وصوت الزاى هو النظير المجهور لصوت السين

وبذلك يختلف صوت الظاء مع الزاى فى المخرج حيث يكون الأول أسنانيا و الثانى لثويا ، ويتفقان فى صفة الجهر ويختلفان فى صفة الأطباق حيث يكون الأول مطبقا والثانى غير مطبق .

الإبدال		الرمز	الأمثلة	
فى المخرج	فى الصفات		الكلمة العربية	الكلمة بالهوسا
أسنانى > لثوى	مطبق > غير مطبق	ظ > ز	/ أ ظْ ظَ ال ِ م /	/ ﺀ زْ زَ ا ل ُ م ِ ى /
			/ ب ُ و ظَ ة /	/ ب ُ زَ /
			/ ظَ ل َ م َ /	/ زَ ا ل ُ ن ْ تَ /
			/ ع َ ظْ ظَ م َ /	/ ﺀ زْ زَ م َ /

تحليــل :

/ ﺀ ظْ ظَ ال ِ م / > / ﺀ ظْ ظَ ل ُ م ِ ى / بإبدال صوت الظاء بالزاى ، وتقصير حركة الفتحة الطويلة بعد الظاء ، وإبدال حركة الكسرة القصيرة بعد اللام بالضمة القصيرة وإنهاء بحركة الكسرة الطويلة .

و / ب ُ و ظَ ة / > / ب ُ زَ /[1] بتقصير حركة الضمة الطويلة ، بعد صوت الباء ، وإبدال صوت الظاء بالزاى ، وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة .

و / ظَ ل َ م َ / > / زَ ا ل ُ ن ْ تَ / بابدال صوت الظاء بالزاى . وحركة الفتحة القصيرة بعد االقصيرة وإبدال صوت الميم بالنون وإضافة صوت التاء بعد النون وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة .

و / ع َ ظْ ظَ م َ / > / أ زْ زَ م َ / بابدال صوت العين بالهمزة والظاء بالزاى وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة القصيرة .

---

(١) انظر د . أنيس ، ص ٧٦ ، د . كمال بشر ، ص ١٠٣

(٢) مشروب يعرفه بعض أبناء الشعب السودانى والمصرى .

(ب) الذال > زاى(*) :

الذال صوت أسنانى إحتكاكى مجهور يتكون باندفاع الهواء بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ الهواء مجراه فى الحلق والفم حتى يصل إلى مخرج الصوت

وهو بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا حيث يضيق المجرى الهوائى فيسمع نوع قوى من الحفيف[1] أما صوت الزاى فقد سبق وصفه .

ويختلف الصوتان فى المخرج حيث يكون مخرج الذال أسنانيا بينما الزاى لثويا ويتفقان فى الصفة فكلاهما صوت أحتكاكى مجهور .

وهذه الظاهرة لا تنطبق على كلمتى / إ ذَ نْ / > /إ دَ نْ/ و /أ لْ أ ذَ ا نْ/ > / لَ ادَ انِ / حيث يبدو أن صوت الذال تحول إلى دال بسبب إسقاط اللفظة عند الكتابة بالخط العربى .

الإبدال		الرمز	الأمثلة	
فى المخرج	فى الصفات		الكلمة العربية	الكلمة بالهوسا
أسنانى > لثوى	=	ذ > ز	/حَ ا ذِ ق /	/ هَ ا ز ق ى /
			/ ذِ رَ ا ع /	/ زِ رَ ا أ /
			/ ذُ رْ ِ ى ى َ ة /	/ زُ رِ ىَ /
			/ ذَ كَ رَ /	/ زَ كَ رِ /
			/ ذِ لْ لَ ة /	/ زِ لْ لَ /
			/عَ ذَ ا ب /	/ أ ذَ ا بَ /
			/ هَ ا ذَ ا /	/ هَ ا زَ ا /

التحليل :

/ حَ اذِ ق / > / هَ ا زِ قِ ى/ بإبدال صوت الحاء بالهاء والذال بالزاى وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة الطويلة .

/ ذِ رَ اع / > / زِ رَ ا إ / بإبدال صوت الذال بالزاى والعين بالهمزة وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة .

/ ذُ رْ رِ ىْ ىَ ة / > / زُ رِ ىَ / بإبدال صوت الذال بالزاى وحذف صوت الراء والياء لتتلاءم بنية الكلمة المستعارة مع بنية

(*) بخصوص هذه الظاهرة انظر د . عيد العزيز مطر ، ص ١٨٩ ، د . عبد المنعم سيد عبدالعال ، ص ٧٨ ، ٦٩

(١) د . أنيس ، ص ٤٧ ، د . كمال بشرى ، ص ١٥٢ .

الكلمة فى لغة الهوسا التى تتكون عادة من صوت ساكن يليه صوت حركة قصيرة أو طويلة ، وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة .

/ ذ َ ك َ ر / > / ز َ ك َ ر /بابدال صوت الذال بالزاى وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة .

/ ذ ِ ل ْ ل َ ة / > / ز ِ ل ْ ل َ / بابدال صوت الذال بالزاى وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة القصيرة .

/ ه َ ا ذ َ ا / > / ه َ ا ز َ ا / بابدال صوت الذال والإبقاء على حركة الفتحة الطويلة فى نهاية الكلمة .

(جـ) الثاء > تاء(*) :

صوت الثاء هو النظير المهموس للذال أى أنه أسنانى احتكاكى مهموس ، ويتكون باندفاع الهواء مارا بالحنجرة دون أن يحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق والفم حتى يصل إلى مخرج الصوت وهو بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ، حيث يضيق هذا المجرى فنسمع نوعا قويا من الحفيف(1) .

أما صوت التاء فهو صوت أسنانى لثوى انفجار مهموس وهو النظير المهموس لصوت الدال ، إذ لايتحرك الوتران الصوتيان أثناء نطق صوت التاء بل يتخذ الهواء مجراه فى الحلق والفم حتى ينحبس بالتقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا . فإذا انفصلا انفصالا فجائيا سمع ذلك الصوت الأنفجارى الذى يعرف بصوت التاء(2) .

وبذلك يختلف الصوتان من حيث المخرج فيكون مخرج صوت الثاء مما بين الأسنان بينما صوت التاء لثويا ، كما يختلفان فى الصفة فيكون صوت الثاء احتكاكيا بينما التاء إنفجاريا ويتفقان فى صفة الهمس .

الإبدال		الرمز	الأمثلة	
فى المخرج	فى الصفات		الكلمة العربية	الكلمة بالهوسا
مما بين الأسنان > أسنانى لثوى	إحتكاكى > إنفجارى	ث > ت	/ ث َ ب ْ ب َ ت َ / / ث َ م َ ن / / ح َ د ْ د َ ث َ /	/ ت َ ب ْ ب َ ت َ / / ت َ م َ ن ِ ى / / ه َ ر ْ د َ ت َ /

(*) بخصوص هذه الظاهرة انظر د . عبد العزيز مطر . ص ١٨٨ ، د . عبد المنعم سيدعبد العال . ص ٦٩ ، ٧٤ د . أحمد علم الدين ص ٣٣٧ .

(١) د . أنيس ص ٤٧ ، د . كمال بشر ص ١٥٢

(٢) د . أنيس ص ٦١ ، د . كمال بشر ص ١٢٩

التحليل :

/ ثَ بْ بَ تَ / > / تَ بْ بَ تَ / بابدال صوت الثاء بالتاء وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة القصيرة :

/ ثَ مَ ن / > / تَ مَ نِ ى / بابدال صوت الثاء بالتاء ، وإضافة حركة الكسرة الطويلة بعد صوت النون

/ حَ دْ دَ ثَ / > / هَ رْ دَ تَ / بابدال صوت الحاء بالهاء والدال بالراء والثاء بالتاء وإنهاء الكلمة بحركة الفتحةالقصيرة .

(د) الثاء > سين :

صوت الثاء سبق وصفه أما صوت السين فهو صوت لثوى إحتكاكي مهموس وعند النطق به يندفع الهواء مارا بالحنجرة فلا يحرك الوترين الصوتيين ، ثم مجراه فى الحلق والفم حتى يصل إلى المخرج وهو عند التقاء طرف اللسان بالثنايا السفلى أو العليا بحيث يكون بين اللسان والثنايا مجرى ضيق جدا يندفع خلاله الهواء فيحدث صفيرا إذا قيس باللغات الأخرى(١) .

وبذلك يكون الصوتان مختلفين فى المخرج حيث يكون صوت الثاء مما بين بين الأسنان بينما صوت السين لثويا ، ويتفقان فى الصفير فكلا الصوتين إحتكاكياً مهموسا .

الإبدال		الرمز	الأمثلة	
فى المخرج	فى الصفات		الكلمة العربية	الكلمة بالهوسا
مما بين الأسنان > لثوى	=	ث > س	/ بَ حْ ث /	/ بَ هَ سِ ى /
			/ حَ دِ ى ث /	/ هَ دِ ى سِ /
			/ خُ نْ ثَ ا /	/ هُ نْ سَ /
			/ مِ ثَ ا ل /	/ مِ سَ ا لِ /
			/ وَ ثِ ى قَ ة /	/ وَ سِ ى قَ /

التحليل :

/ بَ حْ ث / > / بَ هَ سِ ى / بابدال صوت الحاء بالهاء وإضافة حركة الفتحة القصيرة بعدها ، وصوت الثاء بالسين وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة الطويلة .

/ حَ دِ ى ث / > / هَ دِ ى سِ / بابدال صوت الحاء بالهاء والثاء بالسين وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة .

---

(١) د . أنيس ، ص ٧٦ ، د . كمال بشر ص ١٥٣

/ خُ نْ ثَ ا / > / هُ نْ سَ / بإبدال صوت الخاء بالهاء والثاء بالسين وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة القصيرة .

/ مِ ثَ ا ل / > / مِ سَ الِ / بإبدال صوت الثاء بالسين وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة القصيرة .

/ وَ ثِ ى قَ هـ / > / وَ سِ ى قَ / بإبدال صوت الثاء بالسين وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة .

٣ ـ الأصوات الأسنانية اللثوية :

(أ) الضاد > لام :

الضاد صوت أسنانى لثوى انفجارى مجهور مطبق يتحرك معه الوتران الصوتيان ثم ينحبس الهواء عند التقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا ، فإذا انفصل اللسان عن أصول الثنايا سمعنا صوتا انفجاريا هو صوت الضاد كما ينطق به فى مصر .

وهو لا يختلف عن صوت الدال فى شىء سوى أنه أحد أصوات الأطباق ، فعند النطق به ينطبق اللسان على الحنك الأعلى متخذا شكلا مقعرا كما يرجع إلى الوراء قليلا[١] .

أما صوت اللام فهو صوت أسنانى لثوى جانبى مجهور يتكون بمرور الهواء بالحنجرة فيتحرك الوتران الصوتيان ثم يتخذ مجراه فى الحلق وعلى جانبى الفم فى مجرى ضيق ، يحدث فيه نوعا ضعيفا من الحفيف ، وفى أثناء مرور الهواء من أحد جانبى الفم أو من كليهما يتصل طرف اللسان بأصول الثنايا العليا وبذلك يحال بين الهواء ومروره من وسط الفم فيتسرب من جانبيه[٢] .

وبذلك يتفق الصوتان فى المخرج فكلاهما أسنانى لثوى ، ويختلف صوت اللام عن الضاد فى أن الأول جانبى ، ويتفقان من حيث الجهر بينما يختلف صوت الضاد عن اللام فى ظاهرة الأطباق .

---

(١) د . أنيس . ص ٤٨ ، د . كمال بشر ص ١٣٣

(٢) د . أنيس ص ٦٤ ، د . كمال بشر ص ١٦٧

الإبدال		الرمز	الأمثلة	
فى المخرج	فى الصفات		الكلمة العربية	الكلمة بالهوسا
أسنانى لثوى > أسنانى لثوى جانبي	مطبق > غير مطبق	ض > ل	/ أَ ل ْ ق َ ا ض ِ ى /	/ أَ ل ْ ق َ ا ل ِ ى /
			/ ض َ رُ و رَ ة /	/ ل َ رُ و رَ /
			/ ع ِ رْ ض /	/ إِ رْ ل ِ /
			/ غ َ رَ ض /	/ كَ رَ ل ِ /
			/ فَ ض ْ ض َ ل َ /	/ فَ ل ْ ل َ ل َ /
			/ فَ وْ و َ ض َ /	/ فَ وْ و َ ل َ /
			/ هَ ض ْ م /	/ هَ ل ْ م ُ /

التحليل :

/ أَ ل ْ ق َ ا ض ِ ى / > / أَل ْ ق َ ا ل ِ ى / بابدال صوت الضاد باللام وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة الطويلة وإدخال أداة التعريف ضمن بنية الكلمة .

/ض َ رُ و رَ ة / > / ل َ رُ و رَ / بإبدال صوت الضاد باللام وحذف تاء التأنيث من آخر الكلمة .

/ ع ِ رْ ض / > /إِ رْ ل ِ / بإبدال صوت العين بالهمزة والضاد باللام ، وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة .

/ غ َ رَ ض / > / كَ رَ ل ِ /(1) بإبدال صوت الغين بالجيم القاهرية والضاد باللام وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة .

/ فَ ض ْ ض َ ل َ / > / فَ ل ْ ل َ ل َ / بابدال صوت الضاد باللام وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة القصيرة .

/ فَ وْ و َ ض َ / > / فَ وْ و َ ل َ / بإبدال صوت الضاد باللام وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة القصيرة .

/ هَ ض ْ م / > / هَ ل ْ م ُ / بإبدال صوت الضاد باللام وإنهاء الكلمة بحركة الضمة القصيرة .

(ب) الطاء > تاء(*) :

سبق وصف صوت التاء أما الطاء ، فهو كما يعرف فى مصر لا يفترق عن التاء فى شيء غير أنه أحد أصوات الإطباق . فالطاء

(*) بخصوص هذه الظاهرة انظر د . عبد العزيز مطر ، ص ١٨٨ ، د . عبد المنعم سيد عبد العال ص ٨٠ ، وابن السكيت ، ص ١٢٩ .

(1) / كَ / تنطق كما تنطق الجيم القاهرية .

كما ننطق به الآن صوت أسنانى لثوى إنفجارى مهموس مطبق يتكون كما يتكون صوت التاء غير أن وضع اللسان مع الطاء يختلف عن وضعه مع التاء فهو يتخذ مع الطاء شكلا مقعرا منطبقا على الحنك الأعلى ويرجع إلى الوراء قليلا[1] .

فكلاهما أسنانى إنفجارى مهموس إلا أن صوت الطاء يختلف عن التاء فى أنه من أصوات الأطباق.

الإبدال		الرمز	الأمثلة	
فى المخرج	فى الصفات		الكلمة العربية	الكلمة بالهوسا
=	مطبق > غير مطبق	ط > ت	/ ش َ ط ْ ط َ ة /	/ ث ِ ت ْ ت َ ا /
			/ ط َ ب ِ ى ع َ ة /	/ ت َ ب ِ ى أ /
			/ ط َ ا س َ ة /	/ ت َ ا س َ /
			/ ط َ ا ق َ ة /	/ ت َ ا ك َ /
			/ ق ُ ف ْ ط َ ا ن /	/ ك َ ف ْ ت َ ا ن ِ /
			/ ق َ ن ْ ط َ ر َ ة /	/ ك َ ن ْ ت َ ر َ /

التحليل :

/ش َ ط ْ ط َ ة / > /ث ِ ت ْ ت َ ا / بإبدال صوت الشين . بصوت الثاء وهو ينطق كالصوت الأول فى كلمة Chair الإنجليزية ، وإبدال صوت الطاء بالتاء وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة وإنهائها بحركة الفتحة الطويلة .

/ط َ ب ِ ى ع َ ة/ > / ت َ ب ِ ى أ/ بإبدال صوت الطاء بالتاء والعين بالهمزة وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة .

/ط َ ا س َ ة/ > /ت َ ا س َ/ بإبدال صوت الطاء بالتاء وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة ، والطاسة إناء يستخدم فى تحمير اللحوم وغير ذلك .

/ط َ ا ق َ ة / > / ت َ ا ك َ/ بابدال صوت الطاء بالتاء والقاف بالجيم القاهرية وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة والطاقة فتحة فى الحائط تستخدم كنافذة للهواء .

/ق ُ ف ْ ط َ ا ن/ > / ك َ ف ْ ت َ ا ن ِ/ بإبدال صوت القاف بالكاف وحركة الضمة القصيرة بالفتحة القصيرة وصوت الطاء بالتاء وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة ، والقفطان ثوب فضفاض سابغ مشقوق

(١) د. أنيس ، ص ٦٢ ، د . كمال بشر ص ١٣٠

المقدم يضم طرفيه حزام . ويتخذ من الحرير أو القطن وتلبس فوق الجبة .

/قَ نْ طَ رَ ة/ > /كَ نْ تَ رَ/ بإبدال صوت القاف بالكاف والطاء بالتاء وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة .

(جـ) الطاء > تساء :

صوت الطاء سبق وصفه ، أما صوت / ثْط / فهو صوت مركب لثوى مهموس يتركب من جزءين الجزء الأول وهو صوت التاء والثانى هو صوت السين ، وعند النطق به يخرج الهواء من الرئتين مارا بالوترين الصوتيين فلا يحركهما ثم يصل إلى الفم حيث يرتفع طرف اللسان نحو اللثة ولكن لا يتم النطق الانفجارى للجزء الأول وهو التاء ، بل ينتقل اللسان إلى موضع السين حيث يسمع الصوت الإحتكاكى الذى يعرف بصوت ts ويرمز له عند الكتابة بالخط العربى برمز الطاء فوقها ثلاث نقط / ثْط / .

وبذلك يتفق صوتا الطاء وتساء فى المخرج فكلاهما أسنانى لثوى كما يتفقان فى صفة الهمس ويختلفان فيما عدا ذلك ، فصوت الطاء إنفجارى مطبق ، أما صوت تسا فهو إحتكاكى غير مطبق .

الإبدال		الرمز	الأمثلة	
فى المخرج	فى الصفات		الكلمة العربية	الكلمة بالهوسا
=	مطبق > غير مطبق . إنفجارى > إحتكاكى	ط > ثْط	/خَ طَ رْ / / طَ بِ ى بْ / /غَ ا إِ طْ / /غَ لَ طْ /	/ هَ ثْطَ رِ / / هَ ثْطَ بِ ى بِ / /كَ ا يِ ثْطِ / /كَ لَ ثْطِ /

التحليل :

/خَ طَ رْ/ > /هَ ثْطَ رِ/ بإبدال صوت الخاء بالهاء وصوت الطاء بـ /ثْط / وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة .

/ طَ بِ ى بْ / > / هَ ثْطَ بِ ى بِ / بإضافة صوت الهاء إلى بداية الكلمة وإبدال صوت الطاء بتساء ، وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة .

/غَ ا إِ طْ / > /كَ ا يِ ثْطِ / بإبدال صوت الغين بالجيم القاهرية والهمزة بالياء والطاء بتساء وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة .

/غَ لَ طْ / > /كَ لَ ثْطِ / بإبدال صوت الغين بالجيم القاهرية والطاء بتساء وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة .

٤ ـ الأصوات اللثوية :

(أ) الصاد > سين(*) :

صوت السين سبق وصفه أما صوت الصاد فهو لثوى احتكاكى مهموس مطبق يشبه فى تكوينه صوت السين فى كل شئ سوى أن الصاد أحد أصوات الأطباق، فعند النطق به يتخذ اللسان وضعا مخالفا لوضعه مع السين ، إذ يكون مقعراً منطبقا على الحنك الأعلى مع ارتفاع أقصى اللسان وطرفه نحو الحنك ورجوع اللسان إلى الوراء قليلا[1]

وبذلك يتفق الصوتان فى كل شئ من حيث المخرج والصفة ، فكلاهما لثوى إحتكاكى مهموس إلا أن صوت الصاد يتميز بالأطباق .

الإبدال		الرمز	الأمثلة	
فى المخرج	فى الصفات		الكلمة العربية	الكلمة بالهوسا
=	مطبق > غير مطبق	ص > س	/ أَ صْ ل /	/ أَ سَ لِ /
			/ بَ صِ ي رَ ة /	/ بَ سِ ي رَ /
			/ صَ خْ ن /	/ سَ هَ ا نِ /
			/ صَ دَ قَ ة /	/ سَ دَ كَ /
			/ صِ نَ ا عَ ة /	/ سَ نَ ا أَ /
			/ فَ صَ ا حَ ة /	/ فَ سَ ا هَ /
			/ مُ صَ ا فَ حَ ة /	/ مُ سَ ا بَ هَ /
			/ مَ صْ رُ و ف /	/ مَ سَ رُ و فِ /
			/ نَ صَ رَ /	/ نَ سَ رَ /
			/ نَ صِ ي حَ ة /	/ نَ سِ ي هَ /
			/ وَ صِ يْ يَ ة /	/ وَ سِ ي يْ يَ /

(*) بخصوص هذه الظاهرة انظر د . عبد العزيز مطر ص ١٨٩ ، أحمد حسين شرف الدين لهجات اليمن قديماً وحديثاً، القاهرة سنة ١٩٧٠ ، ص ٤٦ ، د . عبد المنعم سيد عبد العال ص ٨٠ ، أحمد علم الدين الجندى ص ٣٣٤

(١) د . أنيس ص ٧٦ ، د . كمال بشر ص ١٥٤

التحليل :

/ أَ ص ْ ل / > / أَ س َ ل ِ / بإبدال صوت الصاد بالسين وإضافة حركة الفتحة القصيرة بعدها . وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة .

/ بَ ص ِ ي رَ ة / > / بَ س ِ ي رَ / بإبدال صوت الصاد بالسين وحذف تاء التأنيث من آخر الكلمة :

/ ص َ حْ ن / > / س َ هـ َ ا ن ِ / بإبدال صوت الصاد بالسين والحاء بالهاء وإضافة فتحة طويلة بعدهما وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة ، والصحن إناء من أوانى الطعام .

/ ص َ دَ قَ ة / > /س َ دَ كَ / بإبدال صوت الصاد بالسين ، والقاف بالكاف وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة .

/ ص ِ ن َ ا عَ ة / > / س َ ن َ ا أَ / بإبدال صوت الصاد بالسين وحركة الكسرة القصيرة بعدها بالفتحة القصيرة ، وحركة الفتحة القصيرة بعد النون بالفتحة الطويلة وصوت العين بالهمزة وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة .

/ فَ ص َ ا حَ ة / > / فَ س َ ا هـ َ / بإبدال صوت الصاد بالسين والحاء بالهاء وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة .

/م ُ ص َ ا ف َ حَ ة/ > / م ُ س َ ا ب َ هـ َ / بإبدال صوت الصاد بالسين والفاء بالياء والحاء بالهاء وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة :

/م َ ص ْ ر ُ و ف/ > /م َ س َ ر ُ و ف ِ/ بإبدال صوت الصاد بالسين وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة القصيرة .

/ن َ ص ِ ي حَ ة/ > / ن َ س ِ ي هـ َ/ بأبدال صوت الصاد بالسين والحاء بالهاء وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة .

/وَ ص ِ ي ْ ي َ ة / > /وَ س ِ ي ي ْ ي َ/ بابدال صوت الصاد بالسين وإطالة حركة الكسرة القصيرة بعدها وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة .

ه ــ الأصوات الحنكية القصية :

(أ) القاف > كاف : *

القاف صوت لهوى انفجارى مهموس وللنطق به يندفع الهواء من الرئتين مارا بالحنجرة فلا يحرك الوترين الصوتين ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق حتى يصل إلى أدنى الحلق من الفم وهناك ينحبس الهواء باتصال أدنى الحلق بما فى ذلك اللهاه بأقصى اللسان ثم ينفصل العضوان انفصالا مفاجئا فيحدث الهواء صوتا إنفجاريا شديدا(1) .

أما صوت الكاف فهو حنكى قصى انفجارى مهموس ، يتكون باندفاع

(*) بخصوص هذه الظاهرة انظر د . عبدالعزيز مطر ص ١٨٨ ، وابن السكيت ، ص ١١٣

(١) د . أنيس ص ٨٧ ، د . كمال بشر ص ١٣٨

الهواء من الرئتين مارا بالحنجرة فلا يحرك الوترين الصوتيين ثم يتخذ مجراه فى الحلق فاذا وصل إلى أقصى الفم قرب اللهاة انحبس الهواء انحباسا كاملا لاتصال أقصى اللسان بأقصى الحنك الأعلى فلا يسمح بمرور الهواء ، فإذا انفصل العضوان انفصالا مفاجئا انبعث الهواء إلى خارج الفم محدثا صوتا إنفجاريا هو صوت الكاف[1] والصوتان يتفقان فى الصفة والمخرج إلا أن القاف صوت لهوى .

الإبدال		الرمز	الأمثلة	
فى المخرج	فى الصفات		الكلمة العربية	الكلمة بالهوسا
لهوى > حنكى قصى	=	ق > ك	/ إ تْ تِ فَ ا قَ نْ /	/ إ تْ تِ فَ ا كَ نْ /
			/ أ رْ رِ زْ ق /	/ أ زْ زِ كِ /
			/ أ لْ قَ لَ م /	/ أ لْ كَ لَ مِ ى /
			/ حَ قْ قَ نْ /	/ هَ كْ كَ نْ /
			/ حَ قِ ى قَ ة /	/ هَ كِ ى كَ /
			/ فَ ا سِ ق /	/ فَ ا سِ كِ ى /
			/ قَ ا إ م /	/ كَ ا إ مِ /
			/ قَ بِ ى لَ ة /	/ كَ بِ ى لَ /
			/ قَ لِ ى لَ نْ /	/ كَ لِ ى لَ نْ /
			/ مَ خْ لُ و ق /	/ مَ هَ لُ و كِ /

تحليل :

/ إ تْ تِ فَ ا قَ نْ / > / إ تْ تِ فَ ا كَ نْ /
بإبدال صوت القاف بالكاف وإدخال التنوين ضمن بنية الكلمة .

/ أ رْ رِ زْ ق / > / أ زْ زِ كِ /
بإبدال صوت الراء بالزاى وحذف صوت الزاى الأصلى وإبدال صوت القاف بالكاف وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة ،

/ أ لْ قَ لَ م / > / أ لْ كَ لَ مِ ى /
بإبدال صوت القاف بالكاف وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة الطويلة وإدخال أداة التعريف فى بنية الكلمة .

/ حَ قْ قَ نْ / > / هَ كْ كَ نْ /
بإبدال صوت الحاء بالهاء وصوتى القاف

(١) د. أنيس ص ٨٤ ، د. كمال بشر ص ١٣٨

بصوتى الكاف ، وإدخال التنوين فى بنية الكلمة .

/حَ قِ ى قَ ة/ > /هَ كِ ى كَ/ بإبدال صوت الحاء بالهاء وصوت القاف بصوتى الكاف وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة .

/ فَ ا ِ س ِ ق / > / فَ ا ِ س ِ كِ ى/ بإبدال صوت القاف بالكاف وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة الطويلة .

/ قَ ا إِ م / > / كَ ا إِ مِ / بإبدال صوت القاف بالكاف وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة .

/ قَ بِ ى لَ ة />/ كَ بِ ى لَ / بإبدال صوت القاف بالكاف وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة .

/قَ لِ ى لَ نْ />/ كَ لِ ى لَ نْ بإبدال صوت القاف بالكاف وإدخال التنوين فى بينة الكلمة .

/مَ خْ لُ و ق /> / مَ هَ لُ و كِ/ بإبدال صوت الخاء بالهاء وإضافة حركة الضمة القصيرة بعدها وإبدال صوت القاف بالكاف وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة .

مُ نَ افِ ق / > / مُ نَ افُ كِ ى / بابدال حركة الكسرة القصيرة بعد صوت الفاء بالضمة القصيرة وصوت القاف بالكاف وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة الطويلة .

(ب) القاف > جيم(١) :

صوت القاف سبق وصفه أما صوت الجيم فهو شبيه بالجيم القاهرية ، وهو صوت حنكى قصى إنفجارى مجهور يتكون باندفاع الهواء من الرئتين مارا بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق أولا فإذا وصل إلى أقصى الحنك قرب اللهاه انحبس الهواء تماما لاتصال أقصى اللسان بأقصى الحنك فلا يسمح بمرور الهواء فإذا انفصل العضوان انفصالا مفاجئا انبعث الهواء إلى خارج الفم محدثا صوتا إنفجاريا وهو ما يعرف بصوت الجيم القاهرية (٢) .

والصوتان يتفقان فى المخرج فكلاهما حنكى قصى ويختلفان فى الصفة إلى حد ما فالقاف صوت مهموس أما الجيم فمجهور وكلاهما انفجارى .

---

(١) يرمز لهذا الصوت فى لغة الهوسا بالرمز – غ – وينطق كالجيم القاهرية ، ويرمز للجيم المعطشة بالرمز – ج – ومنعاً للبس آثرت استعمال الرمز – ك – للدلالة على الجيم القاهرية .

(٢) د . أنيس ص ٧٧ ، د . كمال بشر ص ١٤١

الابدال		الرمز	الأمثلة	
فى المخرج	فى الصفات		الكلمة العربية	الكلمة باهوسا
=	مهموس > مجهور	ق > ك	/ طَ ا قَ ة /	/ تَ ا كَ /
			/ طَ ا قِ يْ يَ ة /	/ تَ ا كِ يْ يَ /
			/ قُ بْ بَ ة /	/ كُ بْ بَ /
			/ قُ رْ عَ ة /	/ كُ رِ أَ /
			/ قَ هْ وَ ة /	/ كَ هَ وَ /

التحليل :

/ طَ ا قَ ة / > / تَ ا كَ / بإبدال صوت الطاء بالتاء والقاف بالجيم القاهرية وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة ؟

/ طَ ا قِ يْ يَ ة / > / تَ ا كِ يْ يَ / بابدال صوت الطاء بالتاء والقاف بالجيم القاهرية . وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة .

/ قُ بْ بَ ة / > / كُ بْ بَ / بإبدال صوت القاف بالجيم القاهرية وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة .

/ قُ رْ عَ ة / > / كُ رِ أَ / بإبدال صوت القاف بالجيم القاهرية ؟ وإضافة حركة الكسرة القصيرة بعد الراء وإبدال صوت العين بالهمزة وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة .

/ قَ هْ وَ ة / > / كَ هَ وَ / بإبدال صوت القاف بالجيم القاهرية وإضافة حركة الفتحة القصيرة بعد الهاء وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة ؟

٦ ـ الأصوات الحلقية :

(أ) الغين > جيم :

سبق وصف صوت الجيم أما الغين فهو صوت حلقى احتكاكى مجهور مخرجه أدنى الحلق إلى الفم ، وعند النطق به يندفع الهواء من الرئتين مارا بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ثم يتخذ مجراه فى الحلق حتى يصل إلى أدناه . إلى الفم حيث يضيق فيحدث الهواء نوعاً من الحفيف وبذلك يتكون صوت الغين [1]

ويختلف الصوتان من حيث المخرج ، فالغين صوت حلقى أما الجيم القاهرية فصوت حنكى قصى ، ويتفقان من حيث الجهر إلا أن صوت الغين إحتكاكى بينما صوت الجيم القاهرية فهو إنفجارى .

(١) د . أنيس ص ٨٨ ، د . كمال بشر ص ١٥٥ .

الابدال		الرمز	الأمثلة	
فى المخرج	فى الصفات		الكلمة العربية	الكلمة بالهوسا
حلقى > حنكى قصى	إحتكاكى > إنفجارى	غ > ك	/أَ لْ غَ ا ىَ ة/	/أَ لْ كَ ا ىَ/
			/بَ لَ ا غَ ة/	/بَ لَ ا كَ/
			/غَ ا دِ رِ/	/كَ ا دِ رِ ى/
			/غَ رْ غَ رَ ة/	/كَ رْ كَ رَ/
			/غَ نِ ى مَ ة/	/كَ نِ ى مَ/
			/غَ ىْ رَ/	/كَ ىْ رَ/

التحليل :

/أَ لْ غَ ا ىَ ة/>/أَ لْ كَ ا ىَ/ بإبدال صوت الغين بالجيم القاهرية ، وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة وإدخال أداة التعريف فى بنية الكلمة .

/بَ لَ ا غَ ة/ > /بَ لَ ا كَ/ بإبدال صوت الغين بالجيم القاهرية وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة .

/غَ ا دِ رِ/>/كَ ا دِ رِ ى/ بإبدال صوت الغين بالجيم القاهرية وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة الطويلة .

/غَ رْ غَ رَ ة/ > /كَ رْ كَ رَ/ بإبدال صوتى الغين بالجيم القاهرية وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة .

/غَ نِ ى مَ ة/>/كَ نِ ى مَ/ بإبدال صوت الغين بالجيم القاهرية وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة .

/غَ ىْ رَ/ > /كَ ىْ رَ/ بإبدال صوت الغين بالجيم القاهرية وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة القصيرة .

(ب) الخاء > هاء :

صوت الخاء هو النظير المهموس لصوت الغين فكلاهما صوت احتكاكى يخرجان من مخرج واحد هو الحلق ، فعند النطق بالخاء يندفع الهواء مارا بالحنجرة فلايحرك الوترين الصوتيين . ثم يتخذ مجراه فى الحلق حتى يصل إلى أدناه[1] .

(١) د. أنيس ص ٨٨ ، د. كمال بشر ص ١٥٥

أما صوت الهاء فهو صوت حنجرى احتكاكى مهموس ، عند النطق به يظل المزمار مفتوحاً دون أن يتحرك الوتران الصوتيان ولكن اندفاع الهواء يحدث نوعاً من الحفيف يسمع فى أقصى الحلق أو داخل المزمار ، ويتخذ الفم عند النطق بالهاء وضعاً يشبه الوضع الذى يتخذه عند النطق بالحركات[2].

ويختلف الصوتان من حيث المخرج فالخاء صوت حنكى قصى أما الهاء فهو حنجرى ويتفقن فى الصفة فكلاهما إحتكاكى مهموس :

الإبدال		الرمز	الأمثلة	
فى المخرج	فى الصفات		الكلمة العربية	الكلمة بالهوسا
حلقى > حنجرى	=	خ > هـ	/ أ ل ْ خَ ىْ ر /	/ أَ ل ْ هـِ ىٰ رِ /
			/ إس ْ تِ خَ ا رَ ة /	/ إس ْ تِ هـَ ا رَ /
			/ تَ ا رِ ى خ /	/ تَ ا رِ ىِ هـ /
			/ خُ ص ُ و مَ ة /	/ هـُ س ُ و مَ /
			/ خُ ن ْ ثَ ا /	/ هـُ ن ْ سَ /
			/ خِ ن ْ صَ ر /	/ هـِ ن ْ سَ رِ /
			/ مَ خ ْ ل ُ و ق /	/ مَ هـ ْ ل ُ و كِ /

التحليل :

/ أ ل ْ خَ ىْ ر / > / أ ل ْ هـ ىِ [1] رِ / بادخال أداة التعريف فى بنية الكلمة وإبدال صوت الخاء بالهاء والياء بالكسرة الطويلة الممالة وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة .

/ إس ْ تِ خَ ا رَ ة / > / إس ْ تِ هـَ ا رَ / بابدال صوت الخاء بالهاء وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة .

/ تَ ا رِ ى خ / > / تَ ا رِ ى هـِ / بابدال صوت الخاء بالهاء وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة .

/ خُ ص ُ و مَ ة / > / هـُ س ُ و مَ / بابدال صوت الخاء بالهاء والصاد بالسين وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة .

/ خُ ن ْ ثَ ا / > / هـُ ن ْ سَ / بإبدال صوت الخاء بالهاء والثاء بالسين ، وتقصير حركة الفتحة الطويلة بعد الثاء .

---

(١) د. أنيس ص ٨٨ ، د. كمال بشر ص ١٥٦

(٢) ى = حركة الكسرة الممالة .

/خ ن ْ ص َ ر / > / ه ِ ن ْ س َ ر ِ/ بإبدال صوت الخاء بالهاء والصاد بالسين وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة . والخنصر هو الأصبع الأصغر .

/م َ خ ْ ل ُ و ق / > / م َ ه َ ل ُ و ك ِ/ بإبدال صوت الخاء بالهاء وإضافة حركة الفتحة القصيرة بعدها وإبدال صوت القاف بالكاف وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة.

(جـ) العين > همزة(*) :

العين صوت مجهور يخرج من وسط الحلق فعند النطق به يندفع الهواء مارا بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين حتى إذا وصل إلى وسط الحلق ضاق المجرى ولكن ضيق مجراه أقل من ضيقه مع صوت الغين مما جعل صوت العين أقل إحتكاكا من الغين[1] .

أما صوت الهمزة فهو صوت أنفجارى يتكون بانطباق فتحة المزمار انطباقاً تاما فلا يسمح بمرور الهواء إلى الحلق ثم تنفرج فتحة المزمار فجأة فيسمع صوت إنفجارى هو صوت الهمزة[2] .

وبتقارب الصوتان فى المخرج فالعين صوت حلقى أما الهمزة فهو صوت حنجرى ويختلفان فى الصفة فالعين صوت مجهور أما الهمزة فهو صوت بين الجهر والهمس ، وصوت العين أحتكاكى أما الهمزة فهو انفجارى .

الإبدال		الرمز	الأمثلة	
فى المخرج	فى الصفات		الكلمة العربية	الكلمة بالهوسا
=	مجهور > وسط بين الجهر والهمس . إحتكاكى > إنفجارى	ع > أ	/أ ل ْ ع َ ا د َ ة /	/ ل َ أ د َ /
			/ج َ م َ ا ع ة /	/ جَ م َ أ /
			/جَ م ْ ع ِ ى ْ ى َ ة/	/جَ م ْ إ ى ى ْ ى َ/
			/ ذ ِ ر َ ا ع /	/ز ِ ر َ ا إ /
			/ع َ ا د ِ ل /	/أ ا د ِ ل ِ ى /
			/ع ِ ب َ ا د َ ة /	/إ ب َ ا د َ /
			/ ع ِ ن ْ د َ ل ْ ل َ ا ه ِ/	إ ن ْ د َ ل ْ ل َ ا ه ِ/
			/ك َ ل ْ ع َ د َ م ِ/	/ك َ ل ْ أ د َ م ِ/

(*) بخصوص هذه الظاهرة انظر ابن السكيت ص ٨٤ .

(١) د . أنيس ص ٨٨.

(٢) د . أنيس ص ٨٩ ، د . كمال بشر ص ١٤٢

التحليل :

/أَ ل ْ ع َ ا د َ ة />/ ل َ أَ د َ/بحذف همزة الوصل وإدخال أداة التعريف فى بنية الكلمة ،وإضافة حركة الفتحة القصيرة بعد صوت اللام ، وإبدال العين بالهمزة وتقصير حركة الفتحة الطويلة بعدها ، وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة .

/ج َ م َا ع َ ة/>/ ج َم َ أَ / بتقصير حركة الفتحة الطويلة بعد صوت الميم وإبدال العين بالهمزة وحذف تاء التأنيث من آخر الكلمة .

/ ج َ م ْ ـِ ع ى ْ ى َة />/ ج َ م ْ إ ى ى ْ ى َ / بإبدال صوت العين بالهمزة وإطالة حركة الكسرة القصيرة بعدها وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة .

ذ ر َ ا ع />/ ز ر َ ا إ / بإبدال صوت الذال بالزاى والعين بالهمزة وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة .

/ ع َ ا د ِ ل />/ أ ا د ِ ل ى / بإبدال صوت العين بالهمزة وحركة الكسرة القصيرة بعد اللام بكسرة طويلة .

/ ـِ ع ب َ ا د َ ة />/ إ ب َ ا د َ /بإبدال صوت العين بالهمزة وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة .

/ ـِ ع ن ْ د َ ل َ ا هـ />/ إن ْ د َ ل ْ ل َ هـِ /بإبدال صوت العين بالهمزة وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة ويلاحظ إدخال الظرف فى بنية الكلمة .

/ك َ ل ْ ع َ د َ م ِ />/ك َ ل ْ أَ د َ م ِ / بإبدال صوت العين بالهمزة وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصير ، ويلاحظ إدخال حرف الجر فى بنية الكلمة .

(د) الحاء هاء(*) :

صوت الحاء هو النظير المموس لصوت العين فمخرجهما واحد ولا فرق بينهما إلا أن الحاء صوت مهموس والعين صوت مجهور [1]

ويتقارب صوتا الحاء والهاء فى المخرج فصوت الحاء حلقى أما الهاء فحنجرى ويتفقان فى الصفة فكلاهما إحتكاكى مهموس .

(*) بخصوص هذه الظاهرة انظر د . عبد العزيز مطر ص ١٥٠ ، ١٨٨ ، د . أحمد عبد العليم الجندى ص ٣٦٤ ، وابن السكيت ص ٩٠

(١) د . أنيس ص ٨٨ ،د . كمال بشر ص ١٥٥

الابدال في المخرج	الابدال في الصفات	الرمز	الأمثلة: الكلمة العربية	الأمثلة: الكلمة بالهوسا
حلقي > حنجري	=	ح > ه	/أُصْ صُ بْ ح/	/أَ سُ بَ هِ/
			/بِ لَ ا حَ دْ دِ نْ/	/بِ لَ ا هَ دْ دِ نْ/
			/حَ ا ذِ ق/	/هَ ا زِ كَ نْ ثِ ى/
			/حَ ا كِ م/	/هَ كِ مِ ى/
			/حَ تْ تَ ا/	/هَ تْ تَ/
			/حَ دِ ى ث/	/هَ دِ ى سِ/
			/حَ رْ رَ مَ/	/هَ رَ مْ نَ/
			/سِ حْ ر/	/سِ هِ رِ/
			/صُ لْ ح/	/سُ لْ هُ/
			/لَ ا حَ وْ لَ/	/لَ ا هَ وْ لَ/
			/مُ حِ بْ ب/	/مُ هِ بْ بَ/

التحليل :

/أُصْ صُ بْ ح/ > /أَسُ بَ هِ/ بإبدال صوت الصاد بالسين وحذف الصاد الأولى واضافة حركة الفتحة القصيرة بعد صوت الباء وإبدال الحاء بالهاء وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة .

/بِلَ احَ دْدِنْ/ > /بِلَاهَ دْدِنْ/ بابدال صوت الحاء بالهاء واعتبار حرف الجار (الباء) وأداة النفي والتنوين من بنية الكلمة .

/حَاذِق/ > /هَازِكَ نْ ثِى/ بابدال صوت الحاء بالهاء والذال بالزاي والقاف بالكاف وإضافة صوت النون وصوت ث – للدلالة على المصدرية ، وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة الطويلة .

/حَ اكِ م/ > /هَ كِ مِ ى/ بابدال صوت الحاء بالهاء وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة الطويلة .

/حَ تْ تَ ا/ > /هَ تْ تَ/ بابدال صوت الحاء بالهاء وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة القصيرة .

/حَ دِ ى ث/ > /هَ دِ ى سِ/ بابدال صوت الحاء بالهاء والكسرة بالسين وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة .

/حَ رْرَمَ/ > /هَرَمْتَ/ بإبدال صوت الحاء بالهاء وحذف صوت الراء الأولى

وإضافة صوت التاء بعد الميم وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة القصيرة .

/ ِس حْ دِ / > / ِس هـِ رِ / بإبدال صوت الحاء بالهاء وإضافة حركة الكسرة القصيرة بعدها وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة

/ صُ لْ حِ / > / سُ لْ هُ / بإبدال صوت الصاد بالسين والحاء بالهاء وإنهاء الكلمة بحركة الضمة القصيرة .

/ لَ ا حَ وْ لَ / > / لَ ا هَ وْ لَ / بإبدال صوت الحاء بالهاء وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة القصيرة . وإدخال أداة النفى فى بنية الكلمة.

/ مُ حِ بْ بَ / > / مُ هِ بْ بَ / بابدال صوت الحاء بالهاء وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة القصيرة .

الخلاصة :

مما سبق يتضح أن متكلمى الهوسا الأصليين حينما يستعملون كلمة مقترضة من اللغة العربية يستبدلون الأصوات التى يصعب نطقها بأصوات أخرى على النحو الذى ورد فى الأمثلة السابقة و يمكن أن نوجزها فيما يلى :

١ ــ ظاهرة الإبدال غير المشروط وتحدث للأسباب التالية :

(أ) للتخلص من الأصوات التى تخرج مما بين الأسنان على النحو التالى :

ــ / ث / > / س / أو / ت /

ــ / ذ / > / ز /

ــ / ظ / > / ز /

(ب) للتخلص من بعض الأصوات الحلقية على النحو التالى :

ــ / ح / > / هـ /

ــ / خ / > / هـ /

ــ / ع / > / أ /

ــ / غ / > / گ /

للتخلص من صفة الأطباق على النحو التالى :

ــ / ص / > / س /

ــ / ض / > / ل /

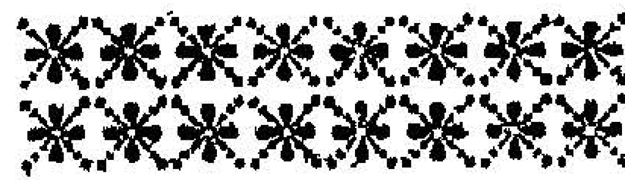
ــ / ط / > / ت / أو / ثط /

٢ ــ ظاهرة الإبدال المشروط وهى تقع فى بعض الكلمات التى ترد فيها الأصوات التالية :

ــ / ب / > / ف /

ــ / م / > / ن /

ــ / ق / > / ك / أو / گ /



ثانيا ــ ابدال الحركات

١ ــ حركة الكسرة :

(أ) الكسرة > فتحة قصيرة :

حدثت هذه الظاهرة فيا جمعت من مادة علمية فى أربع كلمات فى المقطع الأول فى كلمة واحدة وهى :

/ن ِ ع ْ ن َ ا ع />/ ن َ ءَ ن َ أ / بإبدال حركة الكسرة بعد صوت النون بالفتحة ، والعين بالهمزة ، وتقصير حركة الفتحة الطويلة بعد صوت النون الثانية .

وفى المقطع الثانى فى ثلاث كلمات هى : / ف َ ر ِ ح َ / > / ف َ ر َ ءَ / بإبدال حركة الكسرة بعد صوت الراء بالفتحة ، وصوت الحاء بالهمزة وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة ، / ك َ ل ِ ف َ / > / ق َ ل ْ ل َ ف َ ا / بابدال صوت الكاف بالقاف وتضعيف اللام ، وإبدال حركة الكسرة بعد اللام الثانية بالفتحة القصيرة ، وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة الطويلة .

(ب) الكسرة الطويلة > فتحة قصيرة :

حدثت هذه الظاهرة فى كلمة واحدة فى المقطع الثانى من الكلمة التالية :

/ت َ س ْ ب ِ ى ح />/ ت َ س ْ ب َ ه َ / بإبدال حركة الكسرة الطويلة بعد الباء بالفتحة القصيرة ، وصوت الحاء بالهاء ، وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة القصيرة .

(ج) الكسرة القصيرة > ضمة قصيرة :

حدثت الظاهرة فى خمس كلمات ، فى ثلاث منها بعد الأصوات الشفوية وهى : / ف ِ س ْ ق / > / ف ُ س ُ ك ُ / بابدال حركة الكسرة القصيرة بعد صوت الفاء بالضمة القصيرة وإضافة حركة الضمة القصيرة بعد صوت السين ، وإبدال صوت القاف بالكاف وإنهاء الكلمة بحركة الضمة القصيرة .

و/ م ُ ن َ ا ف ِ ق/>/ م ُ ن َ ا ف ُ ك ِ ى/ بابدال حركة الكسرة القصيرة بعد صوت الفاء بالضمة القصيرة ، وإبدال صوت القاف بالكاف وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة الطويلة .

و / و ِ ر ْ د/</و ُ ر ُ د ِ ى / بابدال حركة الكسرة القصيرة بعد الواو بالضمة القصيرة وإضافة حركة الضمة القصيرة بعد الراء وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة الطويلة .

وفى كلمة واحدة قبل الصوت الشفوى وهى : ءَ ظ ْ ظ َ ا ل ِ م /< / أ ز ْ ز َ ا ل ُ م ِ ى / بابدال حركة الكسرة القصيرة بعد صوت اللام بالضمة القصيرة وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة الطويلة .

وفى كلمة واحدة بعد صوت الجيم القاهرية وهى : / ءَ ل ْ ج ِ غ ش ْ ش/>

/أَلْ كُ شْ/(١) بإبدال حركة الكسرة القصيرة بعد صوت الغين بالضمة القصيرة وإبدال صوت الشين المضعفة بصوت الشين وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة .

٢ ــ حركة الفتحة :

(أ) الفتحة > كسرة :

حدثت هذه الظاهرة فى تسع كلمات فيما جمعت من مادة علمية ، منها ثمان حالات فى المقطع الأول من الكلمة وهى :

/شَ طْ طَ ة /> / ثِ تْ تَ ا/(٢) بإبدال صوت الشين بـ / ث / وحركة الفتحة القصيرة بعدها بالكسرة القصيرة وإبدال صوتى الطاء بالتاء وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة الطويلة .

/غَ يْ يَ رَ/ > /كِ يَ ا رَ/ بإبدال صوت الغين بالجيم القاهرية وحركة الفتحة القصيرة بعدها بكسرة قصيرة . وإبدال تضعيف الياء بالياء المفردة وإحالة حركة الفتحة القصيرة بعدها، وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة القصيرة .

و/دَ لْ لَ ال/ > /دِ لْ لَ ال/ بإبدال حركة الفتحة القصيرة بعد الدال بالكسرة القصيرة ، وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة .

و /سَ رْ ا ج /> / سِ رْ دِ / بإبدال حركة الفتحة القصيرة بعد السين بالكسرة وصوت الجيم القاهرية بالدال ، وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة .

و /فَ سَ اد/ > /فِ سَ ادِ / بإبدال حركة الفتحة القصيرة بعد الفاء بالكسرة القصيرة ، وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة .

و / فَ نَ ارَ ة/ > /فِ نْ نَ ا رَ/ بإبدال حركة الفتحة القصيرة بعد الفاء بالكسرة القصيرة ، وتضعيف صوت النون وإطالة حركة الفتحة القصيرة بعدها وحذف حركة الفتحة القصيرة بعد الراء وتاء التأنيث من نهاية الكلمة .

و/مَ ثْ ثَ لَ / > /مِ سَ لْ تَ/ بإبدال حركة الفتحة القصيرة بعد الميم بالكسرة القصيرة وإبدال صوت الثاء المضعف بالسين وحذف حركة الفتحة القصيرة بعد اللام وإضافة صوت التاء وحركة الفتحة القصيرة فى نهاية الكلمة .

وفى المقطع الثانى فى كلمة واحدة وهى / أَلْ فَ جْ رُ / > / أَلْ فِ جِ رِ ى/ بإبدال

---

(١) يكتب رمز / ج / فى لغة الهوسا وينطق جيما معطشة ، بينما يكتب رمز / غ / وينطق كالجيم القاهرية ، وقد آثرت أن أرمز لها بالرمز ـ كـ ـ منعاً للبس .

(٢) ينطق الرمز / ث / كما ينطق المقطع الأول من كلمة Chair الإنجليزية .

حركة الفتحة القصيرة بعد الفاء بالكسرة وإضافة حركة الكسرة القصيرة بعد صوت الجيم المعطشة، وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة الطويلة .

(ب) الفتحة > كسرة طويلة :

حدثت هذه الظاهرة فى المقطع الثانى من كلمة /أَلْ جَ يْ ب/>/أَلْ جِيْفُو بابدال الجيم القاهرية بجيم معطشة وحركة الفتحة القصيرة بعدها بالكسرة الطويلة وحذف الياء وإبدال صوت الباء بالفاء وإنهاء الكلمة بحركة الضمة الطويلة .

(د) الفتحة > ضمة :

حدثت هذه الظاهرة فى ثمان كلمات فى أربع منها قبل الأصوات الشفوية وهى /أَ مَ رَ/ >/أُمُ رْ نِ ى/ بابدال حركة الفتحة القصيرة بعد الهمزة بالضمة القصيرة، وابدال حركة الفتحة بعد صوت الميم بالضمة القصيرة وحذف حركة الفتحة القصيرة بعد الراء، وإضافة صوت النون وحركة الكسرة الطويلة إلى نهاية الكلمة.

و /تَ بَ رْ رُك/> /تُ بَرْ رُكِ/ بابدال حركة الفتحة القصيرة بعد التاء بالضمة القصيرة وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة .

و/ تَ هَ مَ/>/تُ هُ مْ تَ/ بإبدال صوت الفتحة القصيرة بعد التاء بالضمة القصيرة وكذلك إبدال حركة الفتحة القصيرة بعد الهاء بالضمة القصيرة وحذف حركة الفتحة القصيرة بعد الميم وإنها الكلمة بصوت التاء وحركة الفتحة القصيرة .

و /كَ مَ ا/>/ كُ مَ/ بإبدال حركة الفتحة القصيرة بعد الكاف بالضمة القصيرة وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة الطويلة .

وفى كلمتين بعد الأصوات الشفوية وهما / أَس ـَ نْ ت/>/سُ مُ نْ تِ/ بحذف صوت الهمزة وحركة الفتحة القصيرة بعدها، وإضافة حركة الضمة القصيرة بعد السين وإبدال حركة الفتحة القصيرة بعد الميم بالضمة القصيرة. وإنهاء الكلمة بحركة الكسرة القصيرة .

و /خَ لِ ى فَ ةَ/>/كَ لِ ى فُ و/ بإبدال صوت الخاء بالكاف. وحركة الفتحة القصيرة بعد الفاء بالضمة الطويلة وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة.

وفى كلمتين قبل صوت الجيم القاهرية والنون وهما : / سَ جَ دَ / > / سُ جَ دَ / بابدال حركة الفتحة القصيرة بالضمة القصيرة وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة القصيرة .

و/ظَ لَ مَ /> / زَ ا لُ نْ تَ /بابدال صوت الظاء بالزاى وحركة الفتحة القصيرة بعد اللام بالضمة القصيرة وإبدال صوت الميم بالنون وحذف حركة الفتحة القصيرة

بعدها وإضافة التاء وحركة الفتحة القصيرة إلى نهاية الكلمة .

(د) الفتحة الطويلة > ضمة :

حدثت هذه فى كلمة واحدة فيما جمعت من مادة علمية وهى / جَ اسَ />/ كُ سَ / بابدال حركة الفتحة الطويلة بالضمة بعد صوت الجيم القاهرية وإنهاء الكلمة بحركة الفتحة القصيرة .

٣ ــ حركة الضمة :

(ا) الضمة > كسرة :

حدثت هذه الظاهرة فى كلمة واحدة وهى / جُ مْ لَ ة />/ جِ مِ لْ لَ / بابدال حركة الضمة القصيرة بعد الجيم بالكسرة القصيرة وإضافة حركة الكسرة القصيرة بعد الميم وتضعيف اللام وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة وإنهائها بحركة الفتحة القصيرة .

(ب) الضمة > فتحة :

حدثت هذه الظاهرة فى أربع كلمات فى ثلاث منها فى المقطع الأول وهى :

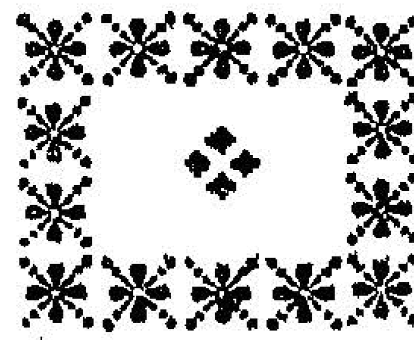
/ سُ حُ ور />/ سَ هُ ْر ــ بابدال حركة الضمة القصيرة بعد السين بالفتحة القصير وإبدال صوت الحاء بالهاء وتقصير حركة الضمة الطويلة بعدها . وحذف الحركة من نهاية الكلمة.

و / مُ صِ ى بَ ة / > / مَ سِ ى فَ / بابدال حركة الضمة القصيرة بعد الميم بالفتحة القصيرة ، وصوت الصاد بالسين ، والباء بالفاء وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة

و / خُ صُ و مَ ة />/ هـ سُ ومَ / بإبدال صوت الخاء بالهاء وحركة الضمة القصيرة بعدها بالفتحة القصيرة وإبدال صوت الصاد بالسين وحذف تاء التأنيث من نهاية الكلمة .

وفى كلمة واحدة فى المقطع الثانى منها وهى / أظْ ظُ هْ ر />/أزْ هَ ر / بإبدال صوت الظاء المضعفة بالزاى وحركة الضمة القصيرة بعدها بالفتحة القصيرة وإضافة حركة الفتحة القصيرة بعد الهاء وحذف الحركة من نهاية الكلمة .

مصطفى حجازى السيد حجازى



القزاز القيروانى
وكتابه فى ضرورة الشعر
للدكتور رمضان عبد التواب
— ٢ —

يرتبط موضوع الضرورة الشعرية ، بنظرة علماء العربية القدامى ، إلى لغة الشعر والنثر من حيث وجوب خضوع كل منهما ، لخصائص لفظية وتعبيرية واحدة . وانطلاقا من هذه النظرة ، أخذ علماء العربية يستشهدون بالمنظوم والمنثور ، على قضايا اللغة والنحو ، بيد أنهم سرعان ما لاحظوا وجود بعض التغييرات فى البنية أو التركيب أو الإعراب ، فى بعض لغة الشعر ، تنحرف بها عن سنن العربية وقواعدها العامة .

واختلف موقف هؤلاء العلماء من هذه الظاهرة ، فذهب من كان منهم يؤمن بالسليقة اللغوية ، وارتباطها بالجنس والوراثة إلى عد كل ما جاء عن العرب حجة لا تنقض ، ولو خالف القياس أو الشائع والمألوف فى اللغة ، وترتب على هذا أنهم ما كانوا يجرءون على تخطئة الشعراء ، الذين كان يضطرهم وزن الشعر وموسيقاه إلى مخالفة النظام اللغوى فى بعض شعرهم ، سواء فى بنية الكلمات أو فى الإعراب ، أى أنهم لم يعترفوا بما يسمى : «ضرورة الشعر» وراحوا يتكلفون فى التأويل والتخريج مالا يحتمل ، أو يصنعون روايات أخرى تخلو من الخلل الواقع فى هذا الشعر [1].

على أن منهم — وهم قلة — من لم يغال فى تقدير كل ما وصل إلينا ، من كلام الشعراء الأقدمين ، بل اعترف بأن هناك ضرورات للوزن الشعرى ، تلجىء الشعراء أحيانا إلى مخالفة المألوف ، من ألفاظ اللغة وقواعدها ؛ ولذا عد ما جاء من ذلك فى أشعار القدماء ، شذوذا عن القاعدة ، ومن هؤلاء العالم اللغوى حمزة بن الحسن

---

(١) للاستزادة فى هذا الموضوع ، راجع الفصل الذى عقدناه بعنوان : « ضرورة الشعر والخطأ فى اللغة » فى كتابنا : « فصول فى فقه العربية » ص ١٤٢ — ١٦٨

الإصبهانى (المتوفى سنة ٣٥٠هـ)[١]، والعالم الناقد القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى (المتوفى سنة ٣٦٦ هـ)[٢]، وأبو عبدالله محمد ابن شرف القيروانى (المتوفى سنة ٤٦٠هـ)[٣] وغيرهم .

ومن هنا اتجه بعض العلماء إلى البحث فى الضرورات الشعرية ؛ فمنهم من خصص للكلام فيها فصولا من كتبهم فى اللغة والنحو ، ومنهم من أفردها بالتأليف ، كأبى العباس المبرد[٤]، وغيره، حتى قال ابن فارس اللغوى (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) فى رسالته ذم الخطأ فى الشعر[٥]: «وصنفوا فى ضرورات الشعر كتبا ».

ومن هؤلاء العلماء ، الذين خصوا الضرورة الشعرية بالتأليف أبو عبدالله القزاز فى كتابه الذى نقدمه هنا ، حيث وقفه على البحث فيما يســوغ للشاعر دون الناثر ، من وجهة نظر علماء اللغة .

وقد أشار القزاز فى مقدمة كتابه هذا (نشرة تونس ٢٣ = نشرة الإسكندرية ٢٩) إلى موضوع الكتاب ، والغرض منه ، فقال : « هذا الكتاب أذكر فيه إن شاء الله ، ما يجوز للشاعر عند الضرورة ، من الزيادة والنقصان ، والاتساع فى سائر المعانى ، من التقديم والتأخير ، والقلب والإبدال وما يتصل بذلك من الحجج عليه ، وتبيين ما يمر من معانيه ، فأرده إلى أصوله ، وأقيسه على نظائره ، وهو باب من العلم ، لا يسع الشاعر جهله ، ولا يستغنى عن معرفته ليكون له حجة لما يقع فى شعره ، مما يضطر إليه ، من استقامة قافية ، أو وزن بيت ، أو إصلاح إعراب » .

فالغرض الذى يرمى إليه القزاز تعايمى كما يظهر من العبارة السابقة ، ويعزز ذلك قوله بعدها : « وذلك أن كثيرا ممن يطلب الأدب ، وأخذ نفسه بدراسة الكتب إذا مر ببيت لشاعر من أهل عصره ، أو لطالب من نظرائه ، فيه تقديم أو تأخير ، أو زيادة أو نقصان ، أو تغيير حركة عما حفظ من الأصول المؤلفة له فى الكتب ، أخذ فى التشنيع عليه ، والطعن على علمه ، والإجماع على تخطئته . ولو نظر بعين الحق لعلم أن ذلك لا يخرج إلا من وجهين : إما أن يكون ذلك جائزا ، لعلل تغيبت عنه لم يبلغ النهاية من علمها ، وهو كذلك ، ووهمه الذى لعله إن نبه عليه ، أو أعاد نظره فيه رجع عنه إلى الصواب ، وتخطاه إلى ما لا مطعن فيه من الكلام ؛ إذ كان غير معصوم من الخطأ ، ولا ممنوع من الزلل » .

---

(١) انظر التنبيه على حدوث التصحيف ١٥٧ — ١٥٨

(٢) انظر الوساطة بين المتنبى وخصومه ٤ ، ٩

(٣) انظر اعلام الكلام ٣٧

(٤) انظر إنباه الرواة ٣ / ٢٥٢ وبغية الوعاة ١ / ٢٧٠

(٥) انظر ذم الخطأ فى الشعر ٢٩

وتدعيما لهذا الاتجاه التعليمي ، يبدأ المؤلف بمناقشة بعض الأخطاء ، التي أخذها علماء العربية القدامى على بعض الشعراء ، محاولا أن يجد لها وجها من الصواب ، مستغلا بعض الشواهد الشعرية ، التي يعدها هؤلاء العلماء من الضرورات الشعرية ، فيقول مثلا — في بيت أبي نواس :

نَبِّه نديمك قد نَعس
يسقيك كأساً في غلسْ

« قالوا : كان الوجه : (يسقك) كما تقول في مثله : (ارم زيدا يرمك) فتحذف الياء للجزم ، وهذا على ما أصل في الكتب المختصرات ، على ماقيل ، غير أن لجوازه وجها من العربية ، وهو أن الشاعر له أن يجرى المعتل مجرى السالم ، فيتوهم أن الياء كانت متحركة ، وأنه أسكنها للجزم ، على أصل مايفعل في السالم . ومثله قول الشاعر .

ثم نادى إذا دخلت دمشقاً
يا يزيد بن خالد بن يزيد

فقال : (نادى) ، وهو أمر ، فأثبت الياء على ماذكرنا » .

وقد يستغل بعض القواعد العامة ، المبنية على السماع أو القياس ، والتي أقرها بعض النحويين ، فيستدل بها على صحة مذهب الشاعر ، فيما عد خطأ عليه ، كقوله في بيت أبي نواس :

كمَنَ الشنآن فيه لنـا
ككمُون النار في حَجَرِهْ

« قالوا : والنار مؤنثة ، فكان الوجه أن يقول : ككمون النار في حجرها . وهذا ظاهره على ماقالوا ، ولكن العرب تتسع ، فتذكر المؤنث لمعنى تخرجه له ، يئول به إلى التذكير كما قال امرؤ القيس :

بَرَهْرَهة رَخْصَة رُؤْدة
كخُرعوبة البانة المنفطرْ

فذكّر (الخرعوبة) و (البانة) ، لأنه يريد : (الغصن) أو نحوه من المذكر » .

وبعد أن يورد شاهدا آخر من شعر أبي ذؤيب الهذلي ، يقول : « هذا ، على أن بعض النحويين يقول : كل مالا روح له يجوز تذكيره وتأنيثه ، وهذا وإن لم يكن بشيء فقد ذكرنا بعض ما يعضده من شعر العرب » .

وقد يدفع الخطأ عن الشاعر ، بالاتجاه إلى تفسير النص الشعري ، على نحو جديد من الفهم ، ينأى عن العيب الذي أخذ عليه فيذكر مثلا أن العلماء أخذوا على أبي تمام قوله :

أظن دموعها سنن الفريد
وهي سلكاه من نحر وجيد

وأنهم قالوا : « فالسنن الطريق ، وأضاف إليها الفريد ، وشبه الدموع بها ، وكان الوجه أن يقول : أظن دموعها الفريد ، لأنه هو الذي يشبه الدمع لا طريقه» ، ولكن القزاز يخالفهم في هذا الفهم ، ويرى أن

الشاعر إنما أراد : « أظن سنن دموعها سنن الفريد ، يريد أن يشبه تتابع الدموع ، وهو سننه ، بتتابع الفريد إذا وهى سلكه » .

وعلى الرغم من أن القزاز ، يصرح بأنه لن يخرج فى مناقشته لعيوب الشعر فى هذا الكتاب ، عن دائرة النحو ، وأنه لن يلتفت إلى ما أخذ على الشعراء فى غير النحو ، من عيوب المعانى والألفاظ والأوزان وما إليها ، حتى لا يكثر ما أراد تقليله ، ويصعب ماقصد تسهيله ، ويبعد ما أمل تقريبه — نقول : على الرغم من ذلك ، فإنه تعرض لعيوب المعانى والألفاظ والأوزان ، وناقش كثيراً منها ، وأسرف فى الاستشهاد عليها ، حتى شغل الكلام عليها حوالى ثلاثين صفحة من صفحات الكتاب ، ليدلل على أن « من طلب عيباً وجده ، ومن طلب مخرجاً لم يفته » .

ولذا نراه يتلمس المخارج ، لمـما أخذ على الشعراء من هذه العيوب ، فيذكر — مثلا — ماأخذ على المرقش فى قوله يذكر امرأة :

صحا القلب عنها على أن ذِكْرَةً
إذا خطرت دارت به الأرض قائماً

فقد قالوا : كيف يصحو عنها من إذا ذكرت ، دارت به الأرض ؟ ويدفع ما عابوه بقوله : « وهذا أيضاً من العنت ، لأنه يريد أنه ترك طلابها ، على أنه فى هذه الحال من الوجد بها » .

وعلى هـــذا النحو ، يحاول تصويب المعنى ، فى قول زهير بن أبى سلمى ، يذكر الضفادع :

يخرجن من شربات ماؤها طحل
على الجذوع يخفن الغم والغرقا

فقد عابه العلماء بقولهم : « ليس خروج الضفادع من الماء ، مخافة الغم والغرق ، إذ كانت حياتهن إنما تكون مع كثرة الماء » . ولكن القزاز يرد ما عابوه بقوله : « وهذا أيضاً ليس بعيب ، وإنما أراد التبالغ ، أن يخبر أن هذه الضفادع ، التى إنما حياتها مع كثرة الماء ، قد زاد الماء عليها حتى صارت تهرب منه ، وجعل ذلك خوف الغم والغرق ، لأنه عادة من هرب من الماء من الحيوان » .

وبمثل هذا المنهج يعالج عيوب اللفظ والوزن ، يصوب ماذهب إليه الشاعر حينا ، ويسكت عنه أحياناً ، إلى أن يختتم هذه المقـــدمة بقوله : « وهذا كثير إن تقصيته طال الكتاب ، وخرج عما قصدته من الاختصار » .

ولا تمنعنا هذه العبارة ، من القول بأنه قد خرج فعلا فى هذه المقدمة عن حد الاختصار ، كما أننا نستطيع أن نضيف إلى هذه الملاحظات ، ملاحظة أخرى تتصل باضطراب منهجه فى العرض والمعالجة لهذه العيوب ، حيث تناول أولا بعض عيوب المعانى ، ثم انتقل إلى الحديث عن عيوب الألفاظ ، وأتبع ذلك بالرجوع إلى ذكر

عيوب أخرى من عيوب المعنى ، ثم تكلم على عيوب الوزن .

وهذا الاضطراب المنهجي، سوف نلاحظه كذلك فى معالجته مسائل الضرورات كما سيأتى .

بعد هذا يأخذ القزاز فى عرض مايجوز للشاعر فى شعره ، من غامض العربية ومستنكرها فى المنثور، على حد تعبيره ، ولنا على هذا العرض ملاحظات أهمها :

١ – لم يختط المؤلف لعرضه هذا منهجا متناسقاً ، يجمع فيه النظير إلى نظيره ، والمسألة إلى مايشاكلها ، بمعنى أنه لم يلتزم جمع مسائل الضرورة المتصلة بالإعراب ، ومسائلها التى ترجع إلى الحذف ، والأخرى التى يكون موضوعها الزيادة ، أو التغيير والتبديل فى بنية الكلمة ، وغير ذلك فى مكان واحد ، بل كان يعرض مسألة أو مسائل من هذه ، ويتبعها بأخرى من تلك ، ثم يعود إلى مايشاكل الأولى . . . وهكذا .

خذ مثلا حديثه عن ضرووات الإعراب فى أول كتابه ، حيث يورد عدة مسائل من هذا الضرب ، ثم ينتقل (فى المسألتين ١٣ ، ١٤) إلى الكلام على وضع المفرد فى موضع الجمع وبالعكس ، ويتبع ذلك بذكر بعض ضرورات المعانى والحذف ، ثم يعود (فى المسائل ١٧ – ٢٠) إلى ضرورات الإعراب . وفى المسألة رقم (٢٠) يتناول مسألة من مسائل الضرورة فى الصيغ ، يعود بعدها مباشرة إلى عدة مسائل أخرى فى ضرورات الإعراب .

ونستطيع أن نتتبع هذا الاضطراب فى الكتاب كله ، مما يجعله أشبه بكتب الأمالى ، من حيث فقدان المنهجية فى عرض المسائل ومعالجتها ، وتنسيق تناولها .

٢ – يتبع المؤلف أسلوباً ، يكاد يكون واحداً فى معالجة كل ضرورة ، حيث يبدأ ببيان نوع الضرورة الجائزة للشاعر ، ويسوق شاهدا أو أكثر على جوازها ، مبينا – فى كل شاهد – موضع الضرورة ، ووجه مخالفة الشاعر للأصل فيها ، ويعلل لجوازها . وكثيراً مايورد من أقوال علماء اللغة ، مايكشف عن وجه الصواب فيها ، وقد يدلى برأيه مؤيداً وجهة النظر التى ارتضاها . والأمثلة على ذلك كثيرة فى الكتاب كله .

٣ – التوسع فى التماس الضرورات ، ويدخل فى هذا الباب ماتعده بعض المذاهب ضرورة، على حين ترفضه المذاهب الأخرى من ذلك على سبيل المثال :

حذف الإعراب على قول قوم من النحويين إذا اضطر الشاعر إلى ذلك، وهذا لايجوز عند أكثرهم فى كلام ولاشعر (المسألة ٤١) ومنها : إفراد واحد « كلتا » عند الكوفيين وهذا لايجوز عند البصريين (المسألة ٩٦) ومنها : حذف ألف الاستفهام ، وليس فى الكلام عليها دليل، وهذا جائز فى الضرورة عند الكوفيين ، ويمنعه البصريون (المسألة ١١٨) ، وغير ذلك كثير ، مما جعل كتابه يحوى ١٤٣ مسألة فى الضرورة .

٤ — كثيراً مايستدل القزاز بأقوال العلماء السابقين ، على بعض القضايا التى يعالجها ويهمل نسبة هذه الأقوال إلى أصحابها ، مما يجعل البحث عن هذه الأقوال فى مصادرها صعب المرام ، وعباراته التى يصدر بها هذه الآراء كثيرة ومتنوعة منها مثلا : « قالوا » و« قال قوم» و « أنكر قوم » و« قد زعم قوم » و« بعضهم يرويه » و« أنكر بعض أهل النظر » و« زعم بعض أهل النظر » و« قال بعض النحويين » وغير ذلك :

٥ — لم يكن المؤلف دقيقـا دائما ، فيما ينقله من نصوص أقوال سابقيه ، إذ نلاحظ بعض التغيير فى عبارة النص فى كتاب القزاز ، وعبارته فى مصدره الأصلى ، فإذا أخذنا مثلا ، مانقله القزاز عن سيبويه فى التعليق على بيت أبى قيس بن الأسلت (المسألة ٩) :

ألا مَنْ مبلغ حسانَ عنى
أسحر كان طِبُّكَ أم جنونُ

وبيت الفرزدق :

أسكران كان ابنَ المراغةِ إذ هجا
تميماً بجوفِ الشامِ أم متساكرُ

حيث يقول القزاز : « قال سيبويه : فهـذا إنشاد بعضهم ، وأكثرهم ينصب سكران ويرفع الطب ، وينصب سحرا ، ويرفع متساكرا وجنونا ، على قطع وابتداء كأنه قال : أم هو متساكر » .

ونرجع إلى نص سيبويه فى كتابه فإذا هو : «فهذا إنشاد بعضهم ، وأكثرهم ينصب السكران ويرفع الآخر على قطع وابتداء» فانظر كيف صارت عبارة سيبويه فى كتاب القزاز !

٦ — كثرة الشواهد الشعرية فى كتابه ، فمما يلفت النظـر أن المؤلف قلما كان يكتفى بشاهد أو اثنين فى المسألة التى يعرضها ؛ ولذلك جاء كتابه هذا جامعا لعدد كبير من الشواهـد ، لايتناسب مع حجمه الصغير نسبيا ، وهـذه ناحية من النواحى التى تجعل للكتاب أهمية خاصة ، لدى الباحثين والمحققين ، فى ميدان اللغة والنحو.

ولم يقتصر القزاز فى شواهده على الشعر ، بل كان يستمد بعض شواهده من القرآن الكريم ، وإن كان ذلك على قلة ، إذ لم تتعد شواهده القرآنية ٢١ شاهدا ، وهو يسوق الآيات القرآنية ، للاستشهاد على جواز الضرائر التى يستشهد عليها ، بلا تفرقة بين القراءة المتواترة والقراءات الشاذة .

أما الأحاديث النبوية ، فلم يأت منها بشاهد واحد ، وقد استشهد بأمثال العرب ومأثورقولها ، مثل : افتد مخنوق . أطرق كرا . ذهب فلان السمهى . أعز من الكبريت الأحمر . استنوق الجمل . قالت نخلة لأختها : أبعدى ظلى من ظلك أحمل حملى وحملك ... إلى غير ذلك :

٧ — وهناك ميزة أخرى لهذا الكتاب ، تتمثل فى عناية المؤلف — إلى حد ما ، بالتنبيه على الروايات المختلفة ، للشعر الذى يستشهد به ، تخلو من الضرورة التى تؤخذ على الشاعر . فإذا عرفنا أنه ترك شيئا من النص على تلك الروايات التى تخلو من الضرورة ، أمكننا أن ندرك مدى استفادة الدارسين والباحثين فى موضوع الضرورة من هذه الروايات ، وما يمكن أن يستخلصوه على ضوئها من نتائج كبيرة فى هذا الموضوع .

٨ — كذلك ينفرد القزاز من حيث الاستشهاد بالشعر ، بما أورده من بعض الشواهد ، التى يغلب على ظننا أنها من اختياره الخاص ؛ إذ لم نجدها فى كل ما وصل إلينا من مؤلفات العلماء ، الذين تعرضوا لهذا الموضوع قبله ، وأوردوا الشواهد عليه . بل إننا لم نجد مصدرا من هذه المصادر ، يضم كثرة من شواهد كتابه الأخرى ، وإنما هى مفرقة فى هذه المصادر وغيرها من تراث العربية فى فنونها المختلفة ، مما يدل على سعة اطلاع الرجل ، وتمكنه من مادة موضوعه الذى عالجه .

٩ — لم يعن المؤلف كثيرا بنسبة الشعر إلى قائله . فمعظم شواهده غير معزوة إلى أصحابها ، شأنه فى ذلك شأن كثير من المؤلفات القديمة ، وعلى رأسها كتاب سيبويه المشهور .

١٠ — يسوق القزاز بعض الشواهد مصدرة بعبارة : « قال الأول » ، وهى عبارة لم نهتد إلى وجه المراد بها ، فهى توحى فى بعض المواضع بأن المراد بها الشاعر الجاهلى ، كالربيع ابن ضبع الفزارى (المسألة ٣٤) وزهير ابن أبى سلمى (المسألة ٤٤) ، على حين يصدر بها بيتا للفرزدق فى موضع آخر (المسألة ٩٨) والفرزدق شاعر أموى إسلامى (وانظر كذلك المسألة ٤٢ والمسألة ٤٧) .

١١ — يمكن الوقوف على بعض المصادر ، التى استقى منها القزاز بعض مادة كتابه ، على ضوء ما أورده من عبارات ، عثرنا عليها بنصها فى مصادر أقدم من كتاب القزاز ، ومن أشهر هذه المصادر ، وأكثرها دورانا عند القزاز : كتاب سيبويه ؛ فهو يصرح بالنقل عنه فى ١٧ موضعا من كتابه . وقد عثرنا على بعض هذه النقول بنصها فى كتاب سيبويه بلا تغيير أو تبديل (انظر مثلا : المسألة ١٧ والمسألة ٥٦) ، وهناك بعض النقول التى أصيبت بالتغيير والتبديل ، كالمثال الذى سقناه هنا فى الملاحظة الخامسة ، كما أن هناك نقولا لم نعثر عليها فى الكتاب (انظر مثلا : المسألة ١٢ والمسألة ١٧)

ويشير القزاز فى كتابه إلى أن بعض المحدثين عاب عدداً من الشعراء ، وأخذ عليهم سقطات فى أشعارهم ، وفضل قوله على قولهم . فإذا عرفنا من كتاب العمدة (١ / ١٣٤) أنه يعنى بذلك « أبا العباس الناشىء » ، الذى ألف كتابا فى تفضيل شعره على شعر الفحول ، مثل جرير وغيره ، وسماه : « تفضيل الشعر » ، أمكننا أن نعد هذا

الكتاب للناشيء ، أحد المصادر التى نظر فيها القزاز ، وأفاد منها .

كذلك نستطيع أن نعد من الكتب التى أفاد منها القزاز : «كتاب الشعر والشعراء» ، لابن قتيبة ؛ ففى المسألتين (٥٣ ؛ ٥٤) نصوص تكاد تتفق مع مافى هذا الكتاب فى العبارة وترتيب الشواهد .

ويروى القزاز عن المبرد ، فى ثلاثة مواضع من كتابه ، ولم نعثر على نص رواية المبرد فى كتبه التى بين أيدينا ، كالكامل ، والفاضل ، والمقتضب ، والمذكر والمؤنث ؛ وأغلب الظن أنه كان متأثرا فيها بكتاب المبرد المفقود ، فى ضرورة الشعر .

كذلك يروى القزاز عن الفراء ، فى مواضع ثلاثة من كتابه ، وقد راجعنا كتب الفراء ، التى بقيت لنا من مؤلفاته ؛ وهى : معانى القرآن ، والمذكر والمؤنث ، والأيام والليالى ، والمنقوص والممدود ، فلم نجد هذه النقول بنصها فى هذه الكتب ، غير أنه مما يلفت النظر أن القزاز أورد فى موضع واحد (المسائل ٨٦ ؛ ٨٧ ؛ ٨٨) عددا من الشواهد، نجدها بترتيبها فى معانى القرآن للفراء ١ / ٦٦ — ٦٨ فلعله نظر فيه ، وأفاد منه .

وقد أشار القزاز فى موضعين من كتابه هذا ، إلى كتاب آخر له ، هو كتاب : « الحروف » ، وأحال عليه ، ويبدو أنه كان قد فرغ من تأليفه قبل كتابه فى الضرائر .

هؤلاء هم العلماء الذين نص عليهم القزاز فى كتابه، ولايعنى هذا أنه لم يفد من مؤلفات غيرهم ، ففى كتابه إشارات كثيرة إلى أقوام غيرهم ، لم ينص على أسمائهم ، وإن كان قد نقل عنهم واستفاد من مؤلفاتهم ، بصريين وكوفيين وغيرهم ؟

أما عن تأثر اللاحقين فى مؤلفاتهم ، بكتاب القزاز الذى نتحدث عنه ، فإن التأثر لايظهر إلا عند تلميذه ابن رشيق القيروانى فى كتابه : « العمدة » ، فقد نقل عن أستاذه قصة ملاحاة مسلم بن الوليد ، وأبى نواس ، كما رواها القزاز فى هذا الكتاب(انظر العمدة٢/١٩١) .

١٢ — بقيت ملاحظة أخيرة ، تتصل بلغة القزاز فى مؤلفه هذا ، وهى فى مجموعها لا تخرج عن طابع الفصاحة ، غير أن له بعض الاستعمالات اللغوية ، غير المألوفة فى اللغة ، من مثل قوله : « وهذا فليس منه » (المسألة ٦) ، وقوله : « واللام فعلها الإعراب » (المسألة ٨١) ، وقوله : « والعرب فمن كلامها » (المسألة ٨٥)، ودخول الفاء فى مثل هذه العبارات من أساليب القرآن الكريم .

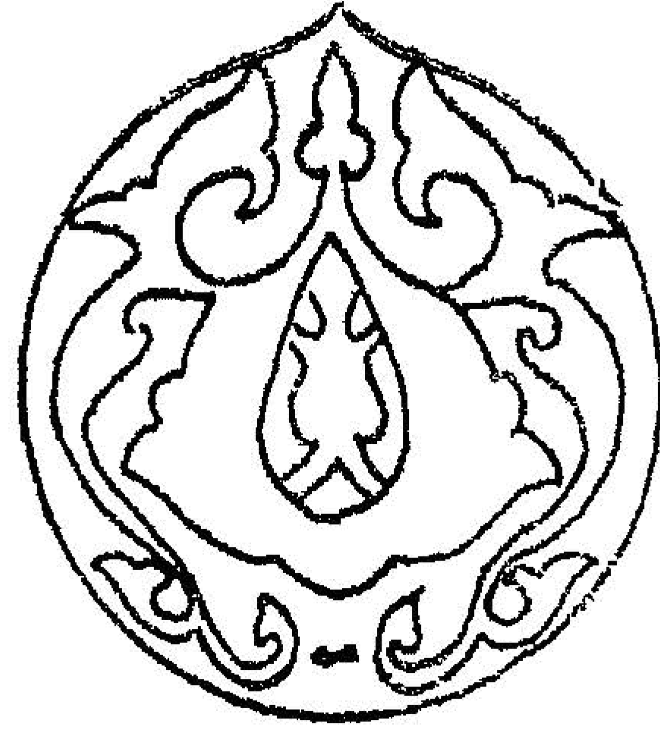
كما أنه يستخدم كلمة « سائر » حينا بمعنى « الباقى » (المسألة ٨١) وهو الاستعمال الفصيح ، وأحيانا يستخدمها بمعنى «جميع» (المقدمة ، والمسألة ٣٨) ، وهذا الاستعمال

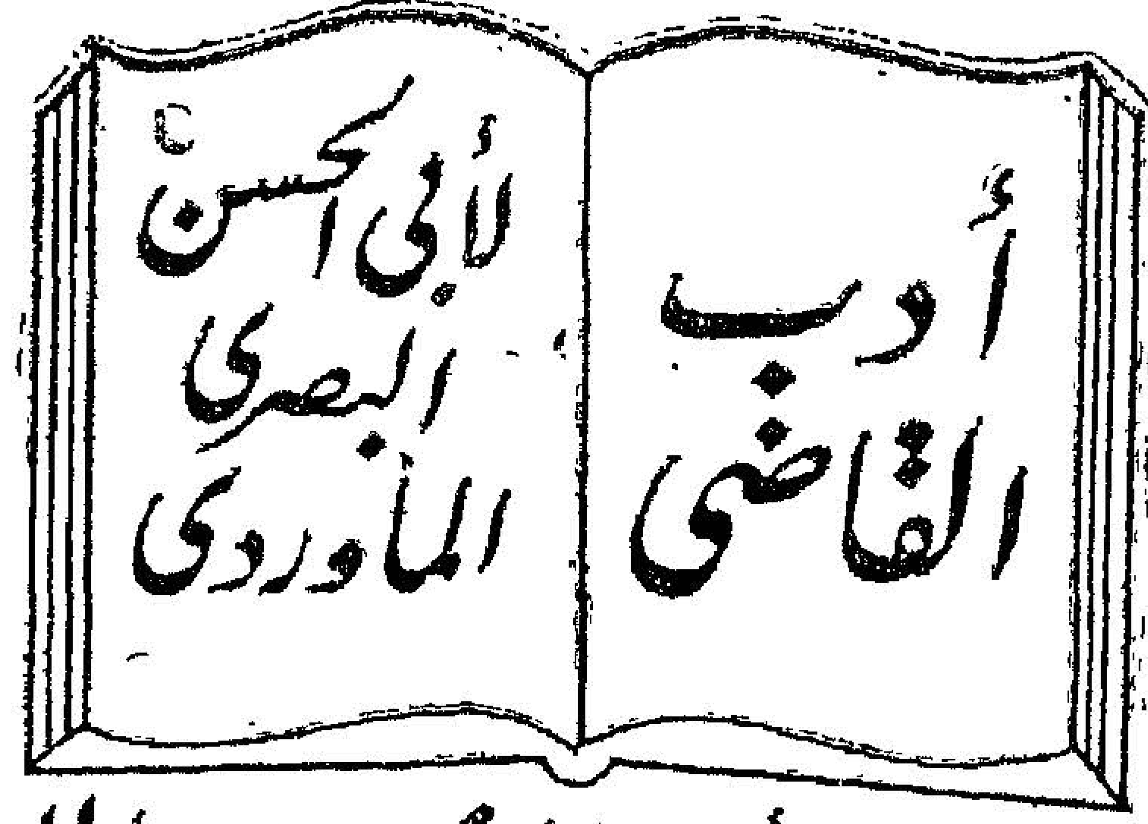
من أوهام الخاصة وأغلاطهم ، عند الحريرى فى كتابه درة الغواص فى أوهام الخواص ٢ وهناك قلة من العبارات ، اختصرها القزاز اختصارا ، أضفى غير قليل من الغموض على المراد منها ، وأحوجنا إلى شرحها ، ليظهر معناها ، فمن ذلك قوله : « وهذا بمعنى التعجب » ، يعنى أن التفضيل بمعنى التعجب فى شروط صياغة كل منهما ، فحيث لا يجوز صياغة التعجب ، مما الوصف منه على أفعل مباشرة ، كذلك لا يجوز فى التفضيل (المسألة ١٢٢)

هذه ملاحظات ، أردنا بها أن نحدد بعض الملامح العامة ، لمنهج القزاز ومادته فى هذا الكتاب ، تهدى الباحث فيه والمهتم بقضاياه.

والله أعلم .

رمضان عبد التواب





تحقيق: الأستاذ محيي هلال السرحان
تعريف ونقد: الأستاذ محمد عبد الغني حسن

هذا كتاب جيد نفيس مما صنفه الفقيه الإمام الماوردي صاحب كتاب (الأحكام السلطانية) المشهور ، وكتاب (أدب الدنيا والدين) ، و (أعلام النبوة) وكتاب (قوانين الوزارة وسياسة الملك) الذي ظن الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغي الأمين السابق لمكتبة الأزهر أنه مفقود لم يصل إلى أيدي العلماء ، على حين أنه طبع في دار العصور بمصر سنة ١٩٢٩ تحت عنوان (أدب الوزير) : : .

ويزيد في قيمة كتاب (أدب القاضي) للماوردي أنه يرى النور بطبعه في المطابع العربية لأول مرة ، بعد أن ظل حبيسا في نسخه المخطوطة كل هذا الزمن الطويل منذ وفاة الماوردي سنة ٤٥٠ هـ إلى يومنا هذا .

والحق أن كتاب (أدب القاضي) للماوردي ليس كتابا مستقلا قائما بذاته ، ولكنه جزء ضخم من كتاب كثير الضخامة هو كتاب (الحاوي) الذي بلغت عدة أجزائه ثلاثين جزءا ، والذي لا يزال مخطوطا كله لم يخرج إلى نور الحياة بالطبع ، إلا هذا الجزء في أدب القاضي الذي تصدى الأستاذ العراقي محيي هلال السرحان لإخراجه وتحقيقه والتعليق عليه والتقديم له ضمن أطروحة جامعية لنيل درجة الماجستير في الشريعة الإسلامية من جامعة بغداد .

ولقد فاز الأستاذ المحقق بنيل درجة الماجستير ، كما ظفرت المكتبة العربية بكتاب (أدب القاضي) مطبوعا في جزءين كبيرين ، تبلغ صفحات الأول أربعين وسبعمائة صفحة ، وصفحات الثاني ثمانمائة صفحة ، وهو عمل طباعي عظيم نهضت به رياسة ديوان الأوقاف بالعراق مشكورة ، على الرغم مما بذل فيه من مال كبير . ولكن أين المال من إحياء أثر علمي كبير لعالم عربي مسلم اشتهر بالفقه

والأدب فكان فيهماحجة ، على قلة من يجمع بين الفقه والأدب فى شخص واحد ، إلا ما ندر من أمثال الماوردى الذى جمع بين الفقه والقضاء والأفتاء ، والأصول ، والتفسير ، والحديث واللغة ، والنحو ، والشعر ، والأدب ، والسياسة ، فكان فى ذلك كله سابقاً لا يلحق . . .

ولقد عاش الإمام الماوردى خمسين سنة من القرن الخامس كانت أنضج سنوات عمره ، وأحفلها بالأعمال الجليلة . أما الست والثلاثون سنة التى عاشها فى القرن الرابع قبل ذلك فقد كان أكثرها فى الطلب والعلم فى مدينة البصرة أولا ، وفى العاصمة بغداد بعد ذلك . وقد شهد ألوانا من الصراع الفكرى والسياسى والمذهبى فى العراق ، وخرج من ذلك كله بحصيلة عظيمة من العلم والتجربة أهلته لأن يكون فقيها عالى المكان ، ومفتيا ، وقاضيا . ولم يكتف من القضاء بمنصبه العادى ، بل بلغ به الشأن أن يفوز بلقب (أقضى القضاة) ، وأن يظل هذا اللقب الجليل ملازما له إلى أن توجه ربه سنة ٤٥٠ ه

ومن العجب أن هذا اللقب العظيم ظل ملازما له بعد وفاته بقرون ، فبقى المؤرخون والمصنفون وكتاب التراجم والطبقات يصفونه بهذا اللقب ، كالذى نجده فى « طبقات الشيرازى » ، و « تاريخ دولة آل سلجوق للبندارى » ، و « الأنساب » للسمعانى ، و « الوافى بالوفيات » للصفدى ، و « شذرات الذهب » لابن العماد الحنبلى ، و « روضات الجنات » للخوازنسارى ، وغيرهما .

وقبل المضى فى التعليق على أول طبعة لكتاب (أدب القاضى) ينبغى أن نشير إلى أن بعض الكتاب المعاصرين يخطئون فى كتابة اسم (الماوردى) فيجعلونه (الموارِدى) بواو بعدها ألف وراء ، كأنها نسبة إلى (الموارد) جمع (مورد) . وهو وهم غليظ ، وخطأ فاحش ، فإن الماوردى — بميم بعدها ألف ، وواو ، وراء ، نسبة إلى بيع الماورد — وهو ماء الورد — كما قال بذلك الحافظ ابن ماكولا ، فى (الإكمال) والسمعانى فى (الأنساب) وكما جاء فى (وفيات الأعيان) لابن خلكان ، و (شذرات الذهب) لابن العماد الحنبلى و (كشف الظنون) لحاجى خليفة وغيرها فى القديم ، وكما جاء فى (الأعلام) للزركلى ، و (معجم المؤلفين) لعمر رضا كحالة و (كنوز الأجداد) لمحمد كرد على فى الحديث .

نضيف إشارة ثانية لعلها تفيد القارىء وتزيده علما بما دون فى أدب القضاء على مذهب الإمام الشافعى من كتب ، وقد أحسن المحقق محيى هلال السرحان حين دون فى مقدمته لكتاب الماوردى ما ألف من كتب فى أدب القاضى والقضاء منذ بداية عصر

التدوين والتأليف فى الأدب العربى حتى عصر الماوردى فى القرن الخامس الهجرى ، وهذه الكتب مذكورة فى الصفحتين السادسة والستين والسابعة والستين من الكتاب الذى نحن الآن بسبيل نقده والتعليق عليه . فليرجع إليها القراء . . . أما ما ألف من كتب أدب القاضى وآداب القضاء بعد ذلك — على المذهب الشافعى كذلك — فنذكره هنا جريا على عادتنا من إفادة الباحث بما قد لا يستطيع التهدى إليه ، وهذه الكتب هى : (روضة الحكام وزينة الأحكام) للرويانى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ ، و (العمدة ، أو أدب القضاء) لابن جميع القرشى قاضى القضاء بمصر والمتوفى سنة ٥٥٠ هـ ، و (أدب القاضى) للسمعانى صاحب كتاب الأنساب المشهور ، والمتوفى سنة ٥٦٢ هـ ، و (ملجأ الحكام ، عند التباس الأحكام) لابن عتاب الأسدى المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ، و (أدب القضاء) لابن أبى الدم المتوفى سنة ٦٤٢ هـ — وقد صدر مطبوعا عن مجمع اللغة العربية بدمشق ، ومحققا بمعرفة الدكتور محمد مصطفى الزحيلى الأستاذ بجامعة دمشق — وكتاب (أدب القضا) لابن مسلم القرشى الدمشقى المتوفى سنة ٧٩٣ هـ ، و (آداب الحكام ، فى سلوك طريق الأحكام) لشرف الدين الغزى المتوفى سنة ٧٩٩ هـ ، و (عماد الرضا ، ببيان أدب القضا) لزكريا الأنصارى المتوفى سنة ٩١٠ هـ ، و (أدب القضاء) للإمام السيوطى المؤرخ المصرى المتوفى سنة ٩١١ هـ ، و (جواهر العقود ، ومعين القضاة والموقعين والشهود) لشمس الدين المنهاجى ، و (الديباج المذهب ، فى أحكام المذهب ، فى أدب القضاء) لمؤلف مجهول ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية . . .

هذا ولا حاجة بنا إلى الإطالة فى الحديث عن القاضى الإمام الماوردى ، فليس هنا موضعه . ويكفى أن نحيل القراء الكرام إلى طائفة من الكتب فى القديم والحديث ، ترجمت للماوردى ، ليرجع إليها من شاء من القراء . وقد ذكر المحقق أكثر هذه الكتب وكاد يوردها على سبيل الحصر فى هامش الصفحتين ١٤ ، ١٥ من الكتاب . فهو ثبت واف أربى على الثبت الذى أورده الطناحى وعبد الفتاح محمد الحلو فى هامش الجزء الخامس من كتاب (طبقات الشافعية) للإمام السبكى فى معرض ترجمة السبكى للإمام الماوردى . ص ٢٦٧

وبهذه المناسبة أود أن أشير إلى أن السبكى فى طبقاته الجليلة قد أضفى على الماوردى من نعوت التقدير والإجلال ما يليق بقدره ، مع أن تاج الدين السبكى متحفظ ومقتصد فى خلع الألقاب والنعوت والصفات على من يترجم لهم فى طبقاته : فوصف صاحبنا الماوردى بقوله : (على بن محمد ابن حبيب الإمام الجليل القدر . الرفيع الشأن أبو الحسن الماوردى)

ثم عاد فى خلال الترجمة له يقول عنه : (وكان إماما جليــلا وفيع الشأن ، له اليد الباسطة فى المذهب ، والتفنن التام فى سائر العلوم) ، ثم عاد لينقل فى الترجمة كلاما لابن خيرون عن الماوردى يقول فيه : (كان رجلا عظيم القدر ، مقدما عند السلطان ، أحد الأئمة ، له التصانيف الحسان فى كل فن من العلم) .

والحق أن كل كلام قيل فى الماوردى هو دون مايستحق ، وأقل مما يستوجب ، فقد جمع إلى العلم الخلق الكريم . فقد قال عنه تلميذه عبد الملك الهمذانى — ونقلها عنه صاحب معجم الأدباء — : (لم أر أوقر منه ، ولم أسمع منه مضحكة قط ، ولا رأيت ذراعه منذ صحبته إلى أن فارق الدنيا . . .) . وما الظن برجل لم يكشف عن ذراعه أمام واحد من تلاميذه ، توقرا وتصونا ؟ وقال عنه المؤرخ ابن كثير صاحب البداية والنهاية : (وقد كان حليما وقوراً ، أديبا ، لم ير أصحابه ذراعه يوماً من الدهر ، مع شدة تحرزه وأدبه) . وقد بلغ من مروءة الماوردى وجلال قدره أنه رأى كشف الذراع أمام الرجال منقصة من قدر الكريم .

ويكشف كتاب (أدب القاضى) للإمام الماوردى عن عقلية رجل فقيه لا يقل قدره عن قدر الأئمة السابقين ، فهو حين يعالج المسألة من الفقه يتناولها تناول الفقيه الأصولى الرائد المجتهد غير المقلد ، ففى بحثه حول موضوع مذهب القاضى وهل يشترط أن يكون موافقا لمذهب الإمام يقول فى حجية ونصوع بيان : (ولا يلزم فى تقليد القضاء أن يكون مذهب المولَّى موافقا لمذهب المولِّى ، ولا يمنع اختلاف مذهبيهما من التقليد بينهما ، فيجوز للشافعى أن يقلد حنفيا ، وللحنفى أن يقلد شافعيا ، لأن على القاضى أن يحكم بمذهبه لا بمذهب غيره ، ويعمل على اجتهاد نفسه لا على اجتهاد غيره) .

وقد اجتمع له من سابق الخبرة فى القضاء على امتداد رقعة الإمبراطورية الإسلامية ما جعله يضع للتقاضى والقضاء آدابا وشروطا تعد دستورا صحيحا لسلامة الإجراءات القضائية على تطاول الدهور ، لأن طبائع الناس هى دائما بعينها على اختلاف الأزمنة والأمكنة ، ومن تدقيقاته واحترازاته فى أول قيام القاضى بعمله — بعد أن ينعقد القضاء له من الخليفة أو الوالى — أن (يتسلم ديوان الحكم ممن كان قبله ، أو من أمين إن كان فى يده ديوان الحكم هو حجج الخصوم من المحاضر والسجلات وكتب الوقوف ، لأن الحكام يستظهرون فى حفظ الحقوق على أربابها بحفظ حججهم ووثائقهم فى نسختين ، يتسلم المحكوم له إحداهما ، وتكون الأولى فى ديوانه حجة يرجع إليها إذا احتاج ليكون على ثقة مما فى يده . . .) .

ويجرنا الحديث عن « القاضى » إلى جنسه من البشر . أيكون ذكرا فقط ؟ أم يصح

أن يكون أنثى ؟ وهنا نستعرض ما ذكره الماوردى — وهو هنا يمثل رأى الشافعية ، ثم يذهب إلى عرض رأى الحنفية ، فيقول : (. . . والشرط الثانى — أى من شروط ولاية القضاء — الذكورة . فيكون رجلا ، فأما المرأة فلا يجوز تقليدها . وجوزه ابن جرير الطبرى كالرجل. وقال أبو حنيفة: يصح قضاؤها فيما تصح فيه شهادتها . وشهادتها عنده تصح فيما سوى الحدود والقصاص ، فأما ابن جرير فإنه علل جواز ولايتها — يعنى القضاء — بجواز فتياها ، وأما أبو حنيفة فإنه علل جواز ولايتها بجواز شهادتها) . ويبدى الماوردى رأيه بفساد رأى القائلين بجواز ولاية المرأة للقضاء قائلا : (والدليل على فساد ما ذهبا إليه قوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض » يعنى فى العقل والرأى ، فلم يجز أن يقمن على الرجال ، وقول النبى صلى الله عليه وسلم « ما أفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة » . وقوله صلى الله عليه وسلم : « أخروهن من حيث أخرهن الله » ولأنه لما منعها نقص الأنوثة من إمامة الصلوات مع جواز إمامة الفاسق كان المنع من القضاء — الذى لا يصح من الفاسق — أولى . ولأن نقص الأنوثة يمنع من انعقاد الولايات ، كإمامة الأمة ، ولأن من لم ينفذ حكمه فى الحدود ، لم ينفذ حكمه فى غير الحدود كالأعمى) .

* * *

لقد سبق القول أن كتاب (أدب القاضى) للماوردى يكون جزءاً من كتاب (الحاوى الكبير) للمؤلف نفسه ، ولم ير النور من كتاب الحاوى إلا هذا القسم الخاص بأدب القضاء ، وقد رجع المحقق فى تحقيقه لهذا الكتاب إلى نسخ خطية متفرقة فى أنحاء من العالم ، بلغ عددها تسعا . واتخذ الجزءين المودعين مكتبة متحف استنبول ، ومكتبة السليمانية باستنبول النسخة الأم ، وإن كان قد تفرق جزءاها فى موضعين من العاصمة القديمة لتركيا ، ووضع المحقق لنفسه منهجاً فى التحقيق ساقه إلى كثير من الجهد والمعاناة ، وطول المراجعة ، وكثرة المقابلة . فقابل بين النسخ الخطية ، وقرأها قراءة واع فطن ، ونبه على التصحيفات الواردة وهى كثيرة ، وضبط هيئة الكلمات ضبطاً لغوياً صحيحاً ، وشرح ما رأى ضرورة شرحه للقارىء ، وخرج الأحاديث الكثيرة التى أوردها الماوردى ، وبين أرقام الآيات القرآنية وسورها ، ودل على المصادر التى تناولت مسائل الكتاب فى كتب الإمام الشافعى ، وكتب أصحابه وهى كثيرة جداً ، وكان على رأس هذه الكتب « مختصر المزنى » تلميذ الشافعى ، ومختصر كلام الشافعى فى كتبه المختلفة ، ونسق المحقق مسائل الكتاب ، وقسم إلى فقرات ، وخرج أقوال الصحابة ، وآثار التابعين ، وأبيات الشعراء فأحالها إلى مكانها هداية للباحث ، وتيسيراً على الدارس ،

ولم يكتف بذلك – وهو فوق الكفاية – فترجم للأعلام فى هوامش الكتاب تراجم موجزة جامعة ، دقيقة ، وكشف عن مصادر الترجمة لهم : ورجع فى ذلك كله إلى مئات من الكتب أعانته على إيفاء الترجمة ، ودقة التحقيق ، حتى بلغت مصادره أربعة وستين وأربعمائة مصدر ، ما بين مخطوط ومطبوع ، وما بين غفل ومعروف ، وما بين كتاب ومجلة ، حتى كأنه لم يترك مرجعاً يعينه على الوفاء بالتحقيق الكامل إلا رجع إليه ، واستأنس به ، وبالطبع لم يذكر هذه المصادر الكثر تكاثراً وتفاخراً وادعاء لما لم ينهض به ، ولكنه غربل هذه المصادر كما يبدو من هوامشه الكثيرة المفيدة الممتعة .

وإذا كان هذا هو جهد المحقق الفاضل فى أطروحة قدمها لنيل الماجستير ، فماذا يكون جهده فى أطروحة يتقدم بها لنيل الدكتوراه ؟ .

وعلى الرغم مما بذله الأستاذ محيي هلال السرحان من جهد فى هذا الكتاب ، وقعت فيه بعض هفوات من أثر الطبع أو غير الطبع ، لعلها وقعت لتؤكد معنى قول الشاعر القديم :

ما كان أحوج ذا الكمال إلى
عيبٍ يوقيه من العينِ

ونسوق الآن بعض هذه المآخذ الواقية من عيون الحساد :.

صفحة ١٢ – (مقرونة بتوثيق الثقاة) وصوابها : الثقات لأنها جمع مؤنث سالم .

صفحة ٢٤ – (فجعلته لنفسه عذراً ، ولغيرك جرما) .وصوابها– كما يقتضيه السياق : (فجعلته لنفسك عذراً ، ولغيرك جرما) .

صفحة ٥١ – (فإننى لم أعثر على نسخة عنه) . وصوابها : منه

صفحة ٥٧ – (وقد يتبادر إلى الذهن أن الكتاب كتب وعظ وإرشاد) وصوابها : كتاب وعظ .

صفحة ١٣٥ – (. . . أما لشبهه تدخل على من تدين) .وصوابها : (لشبهة) بالتاء المربوطة :

صفحة ٢٤٥ – (عبادته المرضى) : وصوابها : عيادته ، بالياء المثناة التحتية ، من الفعل : عاد ، لاعبد :

وما لنا نذكر هذه المآخذ ، وحسنات المحقق كفيلة أن تذهب بعض ما وقع فى الكتاب من سيئات الطبع ؟ وقد فاتنا أن نشير إلى مزية أخرى يمتاز بها هذا الكتاب الجليل ، وهى تلك الفهارس الخمسة عشر التى أضفت على النص الثمين ذاته قيمة كبرى ، بتيسير الإفادة منه ، والرجوع إليه ، وقد بلغت

عدة صفحاتها ثمانين وثلاثمائة صفحة كاملة ، وهى فهارس المصادر ، والأعلام ، والكتب ، والألفاظ العلمية والحضارية ، والمصطلحات ، والأمثال ، والأيام والوقائع ، والأوائل ، وآيات القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، والمواضع الجغرافية ، والفرق والقبائل ، والشعر والكتب التى نقلت عن الماوردى ، وموضوعات الكتاب ومواده ، وتكون هذه الفهارس كتاباً يكاد يقوم بذاته .

ولن ندع القلم هنا دون أن نشير إلى المزية الأدبية التى امتاز بها كتاب (أدب القاضى) بالإضافة إلى المزية الفقهية فيه . فقد أضفى الإمام الماوردى ذوقه الأدبى على كل موضوع فقهى تناوله حتى جعله سائغاً لكل قارىء . فلا تحس فى هذا الكتاب ، ولا فى كل ما ألفه الماوردى مما بين أيدينا من كتب ، ذلك الجفاف والجمود والتزمت الذى تجده عند أكثر الفقهاء ، ولكن تجد على أسلوب الرجل مسحة من الأدب والذوق البلاغى الرفيع ؛ ومن هنا كان حبه للشعر وروايته له والإكثار من روايته فى كثير من مصنفاته . وتبدو هذه الظاهرة بكثرة فى كتابه : (أدب الدنيا والدين) الذى نشرته « وزارة المعارف » منذ أكثر من نصف قرن ليوزع على طلاب المدارس الثانوية والمعاهد فيما كانت توزع على الطلبة تزودهم بزاد طيب من القراءة .

ولقد نشر « أدب الدنيا والدين » يومئذ بتحقيق الفقيه العلامة الشيخ أحمد إبراهيم بك رحمه الله وتقديمه بترجمة وجيزة للماوردى ؛ وما رأيت فقيها ينسب الشعر الذى يسوقه للاستشهاد إلى قائله كما يفعل القاضى الماوردى . وهو لا يخبط أو يخلط فى النسبة ، بل يأتى بها على وجهها الصحيح . ولقد كثر الشعر المروى فى « أدب الدنيا والدين » وكثرت فيه نسبته إلى أصحابه . ماعدا مواضع معدودة مما لم يستطع الرجل أن يتحقق منه . ويا ليت « أدب الدنيا والدين » تعيد طبعه اليوم وزارة الثقافة أو وزارة التعليم ، ضنا به أن يحجب عن الناشئين :

وبلغ من حب الماوردى للشعر أنه كان يدخله فى مسائل الفقه ، بل كان يدخل فيه أبيات الغزل . . . . مما لفت نظر السبكى فى طبقات الشافعية وهو يترجم له . وبلغ من حبه له كذلك أنه صنف كتاباً عنوانه (كتاب الأمثال والحكم) ، جمع فيه من السنة النبوية ثلاثمائة حديث ، ومن الحكمة ثلاثمائة فصل ، ومن الشعر ثلاثمائة بيت ؛ وعرف منه أخوه المقيم بالبصرة حبه للشعر فكان يرسل إليه البيتين أو المقطوعة يستروح بها مما كان يعانيه من الغربة فى بغداد .

وقد كان منتظراً أن رجلا يروى الشعر ويطرب له ويتلقاه من أخيه أحسن لقاء ،

ينظمه ، ولكنه لم يكلف نفسه ذلك : وما أكثر ما عنيت نفسى بالوقوع على شعر للماوردى ، فلم أرجع بعد طول البحث ، وكثرة السعى إلا ببيتين اثنين نسبا إليه ،وهما :

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله
فأجسادهم دون القبــور قبور

وإن امرأ لم يحى بالعــلم صدره
فليس له حتى الممات نشور

رحم الله الإمام الفقيه القاضى الماوردى ، وحيا محقق كتابه (أدب القاضى) على هذا المنهج العلمى السليم ، وحيا الهيئة العراقية التى أفضلت بإحياء هذا التراث الإسلامى العظيم .

محمد عبد الغنى حسن
عضو المجمع

